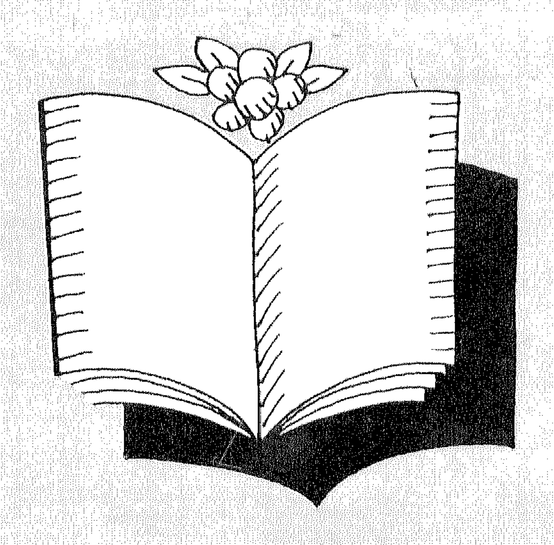
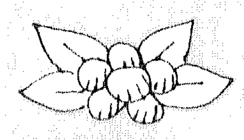


د. عبد الحميد إبراهيم

الأدب المقارن

من منظور الأدب العربي

مقدمة وتطبيق



دار الشروق

الطبعة الأولى
١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

د. عبد الحميد إبراهيم

الأدب المقارن

من منظور الأدب العربى

مقدمة وتطبيق

دار الشروق

المقدمة

الأدب المقارن
والهدف القومى

- ١ -

لاتخلو الدراسات الجامعية، مهما تجردت، من هدف قومى . وكل ماهو مطلوب، أن يعرض الباحث هدفه بموضوعية. وليس ثمة تناقض بين الهدف القومى، والغاية الإنسانية؛ فحب الإنسان لذاته، أو لوطنه، أو لدينه، لايتناقض مع الغاية الإنسانية، بل هو الطريق إليها.

وفاقد الشىء لا يعطيه.

والمتنكر لدينه وذويه، هو من باب أولى يتنكر لإنسانيته.

فالإنسانية، ليست مجرد أشياء هلامية، تتجاوز أحلام الإنسان، وتعلو فوق اهتماماته بنفسه وبمن حوله.

هى، فى النهاية، مجموعة أشياء صغيرة، تمثل فى تراكمها المدخل الحقيقى لعالم الإنسانية.

فأن تحرص على ذاتك وثقافتك، معناه أن تسمح لغيرك أن يحرص أيضا على ذاته وثقافته، ففاقد الشىء لا يعطيه، كما قلنا من قبل. والطريق إلى الإنسانية، يبدأ من الحارة. والشارع، والقريب، والجار، والوطن، والثقافة، والدين، ثم يصاعد حتى يصل إلى الإنسان، فى كل مكان وزمان.

والأعمال الإنسانية، تبدأ فى أولها من المكان والزمان، ثم تصل إلى اللامكان، واللازمان.

والعالمية تبدأ فى هذا الطريق، ولا تستطيع أن تقفز فوق هذا الطريق. وكل من يقفز فوق هذا الطريق، يصبح هلاميا لا طعم له، وتتحول إنسانيته إلى عظام معروقة، لاتسمن ولا تغنى من جوع.

-٢-

فالهدف القومى ، لايتنافى مع الغاية الإنسانية، من ناحية. وهو ، من الناحية الثانية ، لايعنى التعصب.

هو يعنى لغة واحدة، تؤدى إلى مجموعة من الخصائص الثقافية.

فهو، إذن ، يعنى الخصوصية ، ولا يعنى التعصب.

لأن التعصب لاينطلق من أرضية ثقافية، ولا يؤدى إلى موقف ثقافى. إنه ، باختصار، لاشيء. ومن لايملك شيئا، فهو يخشى الذوبان ويتحصن فى منطقة الدفاع، ويهاجم الغير بلا سبب وبلا هدف، فقط ليثبت ذاته، تماما كهذا الطفل الصغير، الذى يخشى من زميله أن يختطف لعبته، فهو يصرخ فى وجهه، ويعض يده.

القومية هى مجموعة خصائص ثقافية ، تؤدى إلى موقف خاص.

وهى، بهذا التعريف، تؤدى إلى الإنسان الناضج، الذى لايهين نفسه، ولايهين غيره. إنه ينطلق من ذاته، ويسمح للآخر أن ينطلق من ذاته أيضا.

إنه لايهين نفسه وينسحق فى الآخرين تحت عنوان الإنسانية، ولايهين غيره ويحرمه من حرية التعبير تحت عنوان «الإقليمية»، والخلاصة، أن القومية شيء غير التجريد، وشيء غير الانغلاق. ومن يمارسها مرة باسم التجريد وأخرى باسم التعصب، فهو لايفهمها، أو لا يفهم شيئا على الإطلاق؛ لأنه يخلط بين المسميات، أو بين الخصوصية، والانحراف عن الخصوصية، مرة إلى الأممية ، وأخرى إلى الإقليمية.

-٣-

القومية ، إذن ، لاتتنافى مع الإنسانية، من ناحية .

وهى ، من الناحية الثانية ، لاتعنى التعصب أو التقوقع.

أما من الناحية الثالثة فهى لاتعنى الهوى السياسى، الذى يتأرجح من غرض إلى غرض.

ولعل هذه الناحية الأخيرة، هى من أخطر الأمور ، لأنها تحتاج إلى وعى كبير ودقيق، حتى لانخلط بين ماهو متأرجح وماهو غير متأرجح، بين ما يخضع للغرض وما يخضع

للموضوعية، بين ما يتعامل مع فن الممكن ويتغير حسب مقتضيات هذا الممكن ، وما هو يمثل موقعا ثابتا .

نحن ــ إذن ـ فى حاجة إلى وعى كبير ودقيق، يميز بين القومية كخصوصية ثقافية، والقومية كشعار سياسى. إن الخلط بين الأمرين يؤدى إلى خسارة القومية بمعناها الثقافى. وهذا ما حدث بالضبط على الساحة العربية؛ فقد رُفعت القومية كشعار سياسى ، أثار الكثير من الجدل، وتدخلت عوامل كثيرة، مرة مع القومية ، وأخرى ضدها، ولكنها ـ على أى حال ـ أثارت الغبار حول هذه الكلمة ، وجعلت الكثيرين ينفرون منها، ولا يرددونها فى مؤلفاتهم العلمية .

فقد أرادت السياسة، مرة ، أن تضرب الخلافة العثمانية باعتبارها رمزًا إسلاميا، فرفعت إزاءها فكرة القومية العربية، ودعت العرب إلى إبراز كيان يستقل عن الخلافة العثمانية تحت مسمى القومية .

وأرادت السياسة، مرة أخرى، أن تضرب المد المتزايد للقومية العربية إبان الخمسينيات، فرفعت إزاءها فكرة الإسلامية، على أساس أن القومية فكرة ضيقة تتنافى وعالمية الإسلام .

والسياسة، فى كلتا الحالتين، لاتبحث عن الموضوعية ؛ لأنها تجرى مع المصلحة. وتتأرجح مع الغرض. ومن هنا، فإن النفور من كلمة « القومية» الذى يشعر به الباحث المعاصر، إنما يأتى من إسقاطات سياسية ، ومن الخشية من اتهامات سريعة، يقذف بها العرب أخاه، مرة باسم العروبة، وأخرى باسم الإسلام .

ـ ٤ ـ

أما القومية، بمفهومها الثقافى، فهى تعنى لغة واحدة، وبيئة جغرافية متجاورة، وتاريخا مشتركا، وغير ذلك مما يشكل فى النهاية مجموعة من الملامح الثقافية ، تميز إنسان المنطقة، وتمثل خلفية فكرية وراء ردود أفعاله .

وهى، بهذا المفهوم، لاتتنافى مع الإسلام؛ بل على العكس من ذلك تماما، تسند الإسلام والإسلام يسندها، فكلاهما كوجهى العملة الواحدة، لايستغنى أحدهما عن الآخر.

العروبة تمثل المكان الذى اختمر فيه الإسلام؛ لأن أى دين ، أو حركة فكرية، أو ثورة ثقافية، ليست مجرد عقائد ونظريات ومبادئ، بل لابد أن يتجسد ذلك خلال مجموعة من البشر، تعيش فى مكان، وتكون بمثابة الرحم، الذى يحتضن المولود حتى يستكمل خلقه، ثم ينطلق محققا وجهه العالمى. فالعروبة هى المحلية، والإسلام هو العالمية، والمحلية لاتستغنى عن العالمية، والعالمية لا تصبح كذلك إلا من خلال المحلية .

- ٥ -

ولا نستطيع أن نجرد العلوم الإنسانية من صفة «القومية» مهما تسترت وراء فكرة الموضوعية . إن علوما مثل الأدب ، والتاريخ ، والاقتصاد والسياسة ، لاتخلو من جانب قومى ، مهما تعاملت مع مبادئ كلية .

الأدب ، مثلا ، قد تصفه بأنه أدب عربى ، أو فرنسى ، أو إنجليزى . ونحن ، بهذا الوصف ، إنما نشير إلى لغة تخفى وراءها خصوصية ثقافية ، تجعل الأدب العربى ، مثلا ، يختلف عن الأدب الفرنسى ، وعن الأدب الإنجليزى .

- ٦ -

وما نقوله عن الأدب كنص ، يمكن أن نقوله عن الأدب المقارن كعلم من العلوم الإنسانية ، مثله فى ذلك مثل النقد ، والتاريخ ، والاقتصاد ، والسياسة .

إن الأدب المقارن ، مهما أوغل فى عالميته ، فهو يحمل داخله مفهوما قوميا ؛ لأنه ليس فلسفة تتعامل مع الإنسان كإنسان ، ولكنه فى نشأته الأولى ينطلق من نصوص أدبية ، كتبت بلغة خاصة ، وتحمل وجهة نظر خاصة وتعكس وجدانا خاصا .

إن العالمية والقومية معاً ، يتدخلان فى مفهوم الأدب المقارن . فهو يبدأ من نصوص مكتوبة بلغة قومية ، قد تكون هى العربية ، ثم يصعد فوق هذه النصوص ليكتشف علاقتها مع نصوص كتبت بلغة أخرى ، قد تكون هى الفرنسية .

إن الدراسة ، التى تتعلق بالأشياء المشتركة بين الآداب المختلفة ، ودون أن تنطلق من نصوص أدبية ، هى من نوع ما يسميه بعض الباحثين بالأدب العالمى ، بصدد محاولتهم تأسيس علم ، يشبه الفلسفة ، ويبحث فيما هو مشترك بين الآداب الإنسانية .

وهم يطمحون أن يكون لهذا العلم تاريخ ، مثلما للآداب القومية تاريخ ، وإن كانوا لايطمحون إلى أن يكون له نقد ، مثلما للآدب القومية نقد ؛ لأن النقد يرتبط بالنصوص ، وهذا العلم يتجاوز الخصائص اللغوية للنصوص ، لكى يقف عند ما هو مشترك بين الآداب الإنسانية ، وعند الموضوعات الكلية ، التى هى أشبه بموضوعات الفلسفة .

وإن الدراسة ، التى توازن بين النصوص الأدبية داخل اللغة الواحدة ، ولاتتعدى أسوار هذه اللغة ، إنما هى نوع من الموازنات الأدبية ، التى يهتم بها كل أدب قومى ، استثارة للذوق لكى يتبين أوجه التلاقى والافتراق بين النصوص ، وأوجه التأثير والتأثر بين أديب وآخر .

أما الأدب المقارن، فهو يجمع فى جعبته بين الوجهين القـومى والعالمى معاً. فهو ينطلق من نصوص أدبية ، كتبت بلغة معينة وخضعت لمقتضيات هذه اللغة البلاغية، ثم يبحث عن علاقتهـا، من حيث التأثير والتأثـر ، بنصوص أدبية كتبت فى لغـة مختلفة، وخضعت لمقتضيات هذه اللغة، وذلك لكى يثبت أوجه التفرد عند هذا الأديب، أو عند غيره.

-٧-

وقد نشأ الأدب المقارن، فى جامعات فرنسـا وأوروبا، فى حضن الأدب القومى، ونتيجة لتطور تاريخى وحضارى.

فقـد كانـت هنـاك روح عـالمية، عمـت العـالم الأوروبـى فى العصر الحديث، نتيجـة للاكتشافات العلمية، وخاصة فيما يتعلق بوسائل المواصلات والاتصلات. وسادت القارة فلسفات وأفكـار عامة. فما إن يظهر المذهـب الفلسفى أو الأدبى، فى فرنسـا أو فى غيرها، حتى ينتقـل بسرعة إلى البلـدان المجاورة. حدث ذلـك مع الكلاسيكيـة، والرومـانتيكية، والواقعية. وحدث أيضا مع المذاهب السياسيـة، مثل الماركسية والرأسمالية، ومع المذاهب الفلسفية، مثل الوجودية والعبثية.

ولم يقف جدار اللغـة حاجزا بين التقاء الشعـوب، والسعى من أجل إشبـاع هذه الروح العامة، فقد أخذت كل لغة تتطلع إلى جارتها، وتتعرف على ثقافتها سواء عن طريق الترجمة أو الاحتكاك المباشر.

وسايـر الناقد الأدبـى هذه الموجة العـامة، فأخـذ يصعد بموازنـاته الأدبية داخـل لغته القومية، إلى موازنات مع نصوص كتبت بلغة أخرى، بهدف استثارة الذوق، والكشف عن أصالة النصوص فى لغته القومية، والبحث عن درجة الابتكار عن هذا الأديب أو عند غيره.

ثم تطـور الناقد الأدبى بكـل هذه الإشارات ، وأخـذ يلتمس الأدلة العلمية، والـوثائق التاريخية، التى تؤكد فكرة التأثير والتأثر.

وهكذا، أخذ الأدب المقـارن يستقل عن النقد الأدبى ، وعن تـاريخ الأدب ، ويتحول إلى علم يهتم بالموازنات الأدبية، خارج حدود اللغة القومية.

وقد انعكست هذه النشأة الأولى على واقع الأدب المقارن، داخـل جامعات فرنسا، فقد وظف لخدمـة الأدب القومى. وانطلـق من القضايـا التى تتعلـق بالأدب القومـى، لسبب

بسيط ، وهو أنه نشأ فى حضن الأدب القومى ، وتطويرًا لفرع من فروع النقد الأدبى ، وهو فرع الموازنات الأدبية .

-٨-

ولم يكن الحال كذلك مع نشأة الأدب المقارن فى جامعات مصر والعالم العربى . فلم يأت نتيجة لتطور تاريخى وحضارى ، أو استجابة لحاجة داخل اللغة القومية ، تدفعها إلى توسيع دائرة اهتمامها ، والإطلال على الجيران والأقارب .

بل كان الأمر على عكس ذلك ؛ فقد جاء الأدب المقارن إلى العالم العربى من فوق ، ومنقولا من الجامعات الفرنسية ، على يد الدكتور محمد غنيمى هلال ، فى كتابه : « الأدب المقارن» .

-٩-

وكتاب الدكتور غنيمى ، يؤرخ للأدب المقارن ، بعد أن اكتمل فى جامعات فرنسا ، خلال رحلته التاريخية داخل الأدب الفرنسي . ومن هنا ، يأتى هذا الكتاب أقرب إلى الترجمة منه إلى التأليف . فهو يعتمد على المصادر الأجنبية ، وينقل منها ، ويؤالف بينها . إن نظرة إلى الهوامش ، أو إلى فهرس المعارف ، أو فهرس الموضوعات ، أو فهرس الأعلام ، تثبت بجلاء أن هذا الكتاب يقدم واقع الأدب المقارن فى فرنسا وأوروبا ، وينقله إلى اللغة العربية ، ويصنفه ، ويجيد الانتقال من رأى إلى آخر ، وقليلا مايعلق على هذه الآراء ؛ وإن فعل ، فباقتضاب شديد ، وفى جمل قصيرة .

إن الدكتور غنيمى هلال يعقد فصلا تحت عنوان « تاريخ نشأة الأدب المقارن» ، يمتد فى الطبعة الثالثة ، من ص ٢٠ إلى ص ٧٧ ، يتابع فيه بصبر وأمانة تاريخ الأدب المقارن ، منذ اليونان والرومان ، وحتى العصر الحديث ، فى أواخر القرن التاسع عشر ، حين اكتمل الأدب المقارن على يد مؤسسه جوزيف تكست ، ومرورا برحلات الرومانتيكيين وعصر النهضة . وغير ذلك من عوامل تاريخية واجتماعية وثقافية ، أدت إلى نشأة الأدب المقارن ، وتطوره بطريقة طبعية تستجيب لحاجة حضارية ، وعوامل تاريخية من داخل المجتمع .

ولم يتابع الدكتور غنيمى هلال تاريخ الأدب المقارن داخل اللغة العربية والحضارة الإسلامية ، حتى إن الكثير من الأعلام العربية والشرقية التى كان يشير إليها ، إنما كان يرجع فيها إلى مراجع فرنسية أو أوروبية ، مما يدل على أنها كانت من إيحاء الدراسات المقارنة

فى العالم الأوروبى، ولم تأت نتيجة استقصاء خاص داخل المصادر العربية. ومتابعة شخصية لتاريخ الأدب المقارن داخل الثقافة العربية.

ومن هنا، نراه يتجاهل إلى حد كبير وضعية الأدب المقارن فى العصور الوسطى. ويكتفى بالرجوع فيها إلى المصادر الفرنسية والأوروبية، التى تنظر إلى هذه الفترة نظرة ازدراء لأن الحضارة الغربية كانت فيها متخلفة، وتفسح الطريق للحضارة العربية الإسلامية، لكى تلقى بتأثيرها على مسيرة الحضارة الإنسانية فى كل القارات.

إن الدكتور غنيمى يقدّم هذه الفترة فى عبارات قصيرة وعامة، يستند فيها إلى المصادر الأوروبية، ويقول:

« وفى العصور الوسطى، التى امتدت من عام ٣٩٥ حتى عام ١٤٥٣، خضعت الآداب الأوروبية المختلفة لعوامل مشتركة، وحّدت بعض اتجاهاتها، ووثّقت علاقاتها بعضها ببعض. وكان لهذا التوحيد فى اتجاه الأدب مظهران عامان: أولهما دينى، كان رجال الدين فيه هم المسيطرين؛ فكان منهم القرّاء والكتّاب معًا، وتغلغل الروح المسيحى فى ذلك الإنتاج الأدبى؛ فقد كانت اللاتينية هى لغة العلم والأدب، كما كانت هى لغة الكنيسة. وثانى هذين المظهرين العامين كان فى الفروسية التى وحدت ما بين كثير من الآداب الأوروبية فى تلك العصور» (ص ٢٢).

حقا إنه أورد فصلا تحت عنوان: « الوضع الحالى لدراسات الأدب المقارن فى جامعات الغرب وفى الجامعات المصرية »، لكنه فصل يمتد من ص ٧٨ إلى ٨٨ فقط، أى لايزيد على عشر صفحات، يحاول خلالها أن يغطى هذا العنوان العريض. وقد نالت الجامعات المصرية ست صفحات فقط، تحدث فيها عن نشأة الأدب المقارن فى مصر، فى الربع الأول من القرن العشرين، خلال الترجمة والدراسات النقدية التى تستمد من مصادر أوروبية، ثم قدم منهجا لدراسة الأدب المقارن فى الجامعات المصرية، تجاهل فيه جذور الأدب المقارن فى الأدب العربى القديم.

وحقا أيضا، إنه فى مقدمة الطبعة الثانية، تحدث عن أهمية الأدب العربى، كعنصر حيوى فى مفهوم الأدب المقارن. ولكن ذلك كان فى المقدمة، وربما جاء استجابةً للمد القومى فى الجمهورية العربية المتحدة، ولم يتجاوز ذلك إلى منهج الكتاب، لأن ما ألف قد ألف، وما كان قد كان، وعملية الترقيع قد يكون لها من الضرر أكثر مما لها من النفع.

لا يهم أن يورد المؤلف بعض الأمثلة، وأن يستدرك بعض الأعلام العربية، ولكن المهم أن ينطلق من الأدب القومى، شأن الدراسات فى الجامعات الفرنسية، وأن ينطلق من الأدب العربى كمحور أساس.

ـ ١٠ ـ

وقد كانت هناك نتائج كثيرة . ترتبت على اتجاه الدكتور غنيمى فى كتابه : «الأدب المقارن» ، يمكن أن نشير إلى نتيجتين منها :

١ ـ التركيز على الوجه العالمى فى دراسة الأدب المقارن .

٢ ـ تضخيم دور الأدب المقارن .

وسنقف وقفة قصيرة عند كل من النتيجتين .

ـ ١١ ـ

ذكرنا من قبل أن الأدب المقارن ، شأنه شأن العلوم الإنسانية ، يحتوى على وجهين : وجه عالمى ، وآخر قومى . فهو يبدأ من نصوص أدبية مكتوبة باللغة القومية لها خصائصها الأسلوبية ، ثم يصاعد منها نحو الكشف عن العلاقة مع لغة أخرى .

وقد نشأ الأدب المقارن فى جامعات فرنسا هذه النشأة الطبيعية ، التى تنطلق من الأدب القومى ، وتهدف إلى خدمة الأدب القومى ، من خلالها لكشف عن أصالته والبحث عن مصادره .

ولكن الحال يكن كذلك فى مفهوم الأدب المقارن ، فى الجامعات المصرية والعربية . فقد قدم الدكتور غنيمى هلال فى كتابه ، تعريفا للأدب المقارن ينحاز فيه نحو الوجه العالمى ، ويقول :

« مدلول الأدب المقارن تاريخى ، ذلك أنه يدرس موطن التلاقى بين الآداب فى لغاتها المختلفة ، وصلاتها الكثيرة المعقدة ، فى حاضرها ، أو فى ماضيها ، وما لهذه الصلات التاريخية من تأثير أو تأثر ، أيا كانت مظاهر ذلك التأثير أو التأثر» (ص ٩) .

والتركيز على الوجه العالمى يتردد فى أكثر من موضع فى الكتاب . ففى ص ١٨ ، يركز على هذا الوجه فى مفهوم الأدب المقارن ، ويقول :

« فالأدب المقارن ، إذن ، يرسم سير الآداب فى علاقاتها بعضها ببعض ، ويشرح خطة ذلك السير ، ويساعد على إذكاء الحيوية بينها ، ويهدى إلى تفاهم الشعوب وتقاربها فى تراثها الفكرى . ثم هو ـ بعد كل هذا ـ يساعد على إخراج الآداب القومية من عزلتها ، كى ينظر لها بوصفها أجزاء من بناء عام ، هو ذلك التراث الأدبى العالمى مجتمعا» .

ثم ينص على ذلك صراحة ويشبه الأدب المقارن بالاقتصاد السياسى ، وبالتاريخ ويقول :

« فهو يدرس مثلهما العلاقات الخارجية ، والمشروعات التى تبدأ بها دولة ما ، وأنواع النفوذ التى تخضع لها ، وما تتعرض له إن طوعا وإن كرها من وراء حدودها ؛ وكل هذا مما تتوثق به نواحى النشاط الإنسانى وتتنوع مظاهره ». (ص ٧٧) .

وقد ترتبت على هذا الوضع ، فى كتاب الدكتور غنيمى هلال ، نتيجتان :

أولاهما ، أن الكتاب يحفل باقتباسات خارجية ، وبأعلام أجنبية ، وغير ذلك مما يغطى على الوجه القومى ، ويجعله يبدو شاحبا ، لايعبر عن نفسه ، ولايعلن عن وجوده إلا فى بعض استطرادات خفيفة للغاية ، وإشارات إلى بعض الأمثلة ، تأتى من باب القياس على الأمثلة الأجنبية ، والنصوص الأوروبية . وفى حالات كثيرة ينقل هذه الإشارات من مصادر أجنبية . وهو ، فى كل الأحوال ، لاينطلق من النصوص العربية ، ولايجعلها محورا لكتابه ، ولايصاعد منها ليلتقى أخيرا بالوجه العالمى ، ولكنه يبدأ من الوجه العالمى ، فيظل حبيسا لهذا الوجه العالمى .

أما النتيجة الثانية ، فهى تتمثل فى شحوب الناحية الفنية فى هذا الكتاب ، وذلك لأن الدكتور غنيمى يركز على العلاقات التاريخية بين النصوص ، على حساب الناحية الفنية فى بنية النصوص . ومن هنا ، لانجد ، إلا نادرا ، تحليلا لنص أدبى ، أو كشفا عن الفروق الدقيقة بين نص وآخر .

لقد كانت الموازنات الأدبية التى درسها القدماء تحت عنوان « السرقات الشعرية » ، أقرب إلى الناحية الفنية ، لأنها تنطلق من النصوص ، وتكشف عن درجة «الأخذ» من شاعر لآخر ، وفيما إذا كان الشاعر الأخير استطاع أن يخفى المعنى المأخوذ ، أو أحاله إلى صياغة جديدة تحمل بصماته ، ويمكن أن ينسب إليه أكثر مما ينسب إلى الشاعر السابق ، أو أن هذا المعنى من باب توارد الخواطر ، ومن باب المعانى المطروحة فى الأسواق ، ولكل شاعر أن يصوغه بطريقته الخاصة ، أو بغير ذلك من تساؤلات تنطلق من النص ، وترتد إلى النص .

ولكن العنوان الجارح والخادع لهذه الموازنات الأدبية ، وهو عنوان السرقات الشعرية ، والنفور من كل ما يمت إلى البلاغة القديمة بصلة ـ جعلا الناقد الأدبى ينفر من هذا الباب ، ولا يبدأ منه .

ولو أن الناقد انطلق من هذا الباب ، لوجد نفسه فى زحمة من النصوص الأدبية ، ينطلق

منها للبحث عن العلاقة التاريخية بين هذه النصوص ، ومدى مردود هذه العلاقة على الصياغة الفنية .

لو كان ذلك كذلك ، لعاد للأدب المقارن قيمته الفنية ، ولما أصبح عرضة للتشكيك من بعض الدارسين فى قيمته الفنية .

ولكن ذلك لم يكن كذلك ، فجاء كتاب الدكتور غنيمى تأكيدا لهذه الشكوك ، وانحاز إلى العلاقات التاريخية المجردة ، والتى هى أقرب إلى الفلسفة أو علم الاقتصاد السياسى أو التاريخ ، أو غير ذلك من ميادين تقف عند العلاقات الخارجية بين الدول ، ولاتعنى نفسها بالوقوف عند الخصوصية المحلية .

إن الانطلاق من الأدب القومى ؛ يجعلنا فى مواجهة الجانب الفنى ، ويضفى على الأدب المقارن شيئا من الحياة ، يجعله ينتمى إلى عالم الأدب الحى ، أكثر مما ينتمى إلى عالم الكليات المجردة .

وهذا الجانب الفنى ، يمكن بدوره أن يخدم قضايا الأدب المقارن ، وأن يساعد فى تمحيص فكرة العلاقة بين النصوص الأدبية . فقد تكون هذه العلاقة خارجية ، لأن الجانب الفنى يؤكد البعد بين النصين ، وقد تكون هذه العلاقة حقيقية ، لأن الجانب الفنى يؤكد الصلة بين النصين .

ولنضرب مثلا يوضح ذلك من مسرحية الحكيم عن شهر زاد ، ومن رواية لفريد فرج عن « أيام وليالى السندباد» .

فالجانب الفنى فى مسرحية الحكيم ، يدفعنا إلى الافتراض بأن لهذه المسرحية جذورا فى التربة الأوروبية . فالتركيز على عنصر الحوار ، وتأزم الصراع ، والقضايا الفلسفية ، والرموز الأدبية ــ وغير ذلك يذكرنا « بتكنيك » المسرحيات الغربية ، التى تتخذ من الأساطير رموزا لمعالجة قضايا ذهنية ، كقضية التطهير الفنى التى يعالجها الحكيم فى مسرحيته عن شهر زاد .

أما الجانب الفنى فى رواية ألفريد فرج ، فإنه يجعلنا فى مواجهة افتراض أن لهذه الرواية مصادرها فى التربة الشرقية . فالتركيز على العنصر الخيالى « الفانتازى» ، والجانب الأسطورى البدائى ، والبهجة والمتعة الحسية ، وعدم الايغال فى الرمز والتوتر فى الصراع ، والانطلاق من قضايا غيبية ، والاعتماد على الحس الدينى ـ وغير ذلك ، يذكرنا بالجو الشرقى .

إن الجانب الفنى هنا وهناك ، يمنحنا هذا الافتراض أو ذاك ، ويبقى على الباحث بعد

ذلك أن يكشف عن العلاقات التاريخيـة ، وأن يلتمس المصادر فى تلك البيئة أو فى غيرها ، حتى يصل إلى النتيجة المطلـوبة فيما إذا كان هذا العمل ينتمى إلى مصـادر خارجية ، فتعد قضيته من قضايا الأدب المقارن ، أو أنه ينتمى إلى مصادر من تاريخ ثقافته ، فيعالج داخل قضايا الأدب القومى .

-١٢-

نشأ الأدب المقـارن فى فرنسا تطورا للمـوازنات الأدبية داخـل اللغة القومية . فقـد اتسع مفهوم هذه الموازنـات ، وأصبح يتناول الموازنات على مستوى اللغات المختلفـة . ومن هنا ، يعرّف الناقـد الفرنسى الأدب المقارن بأنه العلـم الذى يعالج السرقات الدائمـة والأبدية بين الدول [١] . فهو ، إذن ، بهذا التعريف ، امتداد للسرقـات الأدبية أو الموازنات داخل الأدب القومى .

وقد جـاء الأدب المقارن ، فى نشـأته الأولى داخل الجامعـات الفرنسيـة ، لخدمة تـاريخ الأدب القومى ، ونقد الأدب القومى . وهذا ما يؤكده الباحث الفرنسى « جون جاك أمبير » ، وهو من أوائل من نبه إلى أهمية الدراسات المقارنة ، وقال فى إحدى محاضراته سنة ١٨٣٢م ، بجامعة السربـون : « ستقوم أيها السادة ، بتلك الـدراسات المقارنة ، التـى بدونها لا يكمل تاريخ الأدب» [٢] .

ومن هنـا ، لم يكتسب الأدب المقارن ، فى نشأتـه الأولى ، أهمية خاصة تجعلـه فى مستوى يفوق مستـوى تاريخ الأدب أو النقـد الأدبى ، بل إنهم قابلـوه فى أول الأمر بحذر شـديد ، وظلت جامعات فرنسا لمدة طويلة تخلو من كرسى مستقل لتخصص الأدب المقارن ، كعلم قائم بذاته ، وظلت دراسته تتم داخل تاريخ الأدب ، أو النقد الأدبى .

ولكـن الأمر يختلـف فى جـامعـات مصر والعالم العـربـى ، فقـد جاء الأدب المقـارن فى أوروبا ، يـرتدى قبعة الرجـل الأبيض . ويحس بالتفـوق على الأدب القومى ، وبأنـه أسمى مكانًـا من تاريخ الأدب ، ومـن نقد الأدب ؛ فهو يرطـن بلغة الأجانب ، وهـو عالمى وغيره محلى من أهل البلد .

وقد احتفى به الدكتور غنيمى هلال ، وقدمه بحفاوة شديدة . بل إن بعض العيوب التى وجهها إليه أصحابـه ، راح يدافع عنها ، ويلتمس لها المعاذير. فـإن قال البعض بأن الأدب المقارن يمثل سرقات دولية ، عقب الدكتـور غنيمى هلال بأن « الأدب المقارن أرحب أفقا ،

(١) الأدب المقارن ، ص ١١ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١١ .

وأعمق نظرا، وأصدق نتـائج فى دراسته للصلات الأدبية الدولية، من الـدراسات القديمة الضيقة الأفق والقليلة الجدوى، لما كانـوا يسمونه : السرقات الأدبية [1]. وإن اتهمه آخرون بأنه تاريخى لايفيد، عقب الدكتور غنيمى بعدم جدوى مثل هذه النهضة[2].

وقد أراد كثيرون فى عالمنـا العربى أن يكتسبوا مثل هذه الـوجاهة، فاندفع كـل من هب ودب يؤلـف حول الأدب المقارن، وليـس مهما ما يقول، ولكن المهـم أن يكون كتابـه حول الأدب المقارن، وقـد لايمت الكتـاب إلى الأدب المقارن بمعناه العلمـى، وقد يكـرر مسائل رتيبة ومعروفة، أو يشرح بعض القضايا حول علمية الأدب ومجال التأثير والتأثر، وقد يكون كتابـا طلابيـا، ولكن المهـم - فى كـل الأحوال ــ أن يجارى الموجة، ويكتسـب الوجـاهة، وينتمى إلى أصحاب القبعات ومعاطف الفرو .

إن وضع قضية الأدب المقارن فى الجامعات الفرنسيـة، غيره فى الجامعات العربية. ففى الجامعات الفـرنسية، كانـت القضية تتلخص فى البحث عـن وضع ممتاز لـلأدب المقارن، يستقل به عن تاريخ الأدب القومى. أمـا فى الجامعات العربية، فإن القضية تتلخص فى التخفيف من ذلك الوضع الممتاز، والحد من درجة الاستعلاء على الأدب القومى .

ـ ١٣ـ

يبقى من كتاب الدكتور غنيمى هلال أمران، هما : المنهج من ناحية، واستثارة الذهن نحو تطبيق ذلك المنهج، من ناحية ثانية.

فالمنهج، يتمثل فى تلك القيمة الباقيـة من كتاب « الأدب المقارن»، وتتلخص فى دراسة علاقة التأثير والتـأثر بين النصوص الأدبية فى اللغات المختلفة، ثـم إثبات البراهين العلمية التى تؤكد هذه العلاقة.

وقد طبـق الدكتور غنيمى هـذا المنهج على نصوص أجنبية فى حـالات كثيرة، ورجع إلى آراء باحثين فـرنسيين وأوروبيين فى الأعـم الأغلب. ويبقى مـن هذا التطبيق استثارة الـذهن لكى يقـوم بالمثيل، ويتمكن مـن الانطلاق من نصوص عـربية، ومن باحثين عـرب، ثم يصاعد خلال ذلك إلى البحث عن الوجه العالمى للأدب المقارن.

ونحن نتطلـق من هذين الأمـرين عند الـدكتور غنيمى هـلال، فنقدم تعريفا جـديدا للأدب المقارن، هو :

---

(١) المرجع السابق، ص ١١ .　　　(٢) انظر مقدمة الطبعة الأولى .

« توسيع مجال الموازنات الأدبية ، لكى تنتقل من حدود اللغة القومية ، إلى الكشف عن العلاقات مع نصوص كتبت بلغات أخرى ، وإثبات تلك العلاقات عن طريق النقد الأدبى من ناحية ، وعن طريق البراهين العلمية ، من الناحية الأخرى » .

إن هذا التعريف الجديد ، قد يكون من باب « المعارضة » لتعريف الدكتور غنيمى ، ولكنه أبدا لن يكون من باب المناقضة ، لأنه يلتقى مع الدكتور غنيمى فى منهجه الذى يحاول من خلاله أن يثبت بالبراهين العلمية موطن التأثير والتأثر .

ومن هنا ، فإن ما ذكره الدكتور غنيمى ، فى الفصلين الثالث والرابع من الباب الأول ، شىء يتطلبه هذا التعريف الجديد ؛ فقد تحدث فى الفصل الثالث عن « عدة الباحث فى الأدب المقارن » ، وتحدث فى الفصل الرابع عن « ميدان البحث فى الأدب المقارن » ، وكل ذلك فى الدراسات التمهيدية ، التى لايستغنى عنها الأدب المقارن ، حتى فى تعريفه الجديد .

وأيضا ، فإن الكثير مما ذكره الدكتور غنيمى فى الباب الثانى ، تحت عنوان « بحوث الأدب المقارن ومناهجها » ، لايتنافى مع التعريف الجديد ، فهو قد تحدث فى الفصل الأول عن « عالمية الأدب وعواملها » ، وهو قد تحدث فى الفصل الثانى عن « الأجناس الأدبية » وفى الفصل الثالث عن « المواقف الأدبية والنماذج البشرية » ، وفى الرابع عن « تأثير كتاب أدب من الأدب فى آداب أخرى » ، وفى الفصل الخامس عن « دراسة المصادر » ، وفى الفصل السادس عن « المذاهب الأدبية » ، وفى السابع والأخير عن « تصوير الآداب القومية للبلاد والشعوب الأخرى » ، وكل هذه العناوين يتطلبها التعريف الجديد ، كدراسات تمهيدية لابد منها لكل باحث فى مجال الدراسات المقارنة .

إن ماذكره الدكتور غنيمى هلال فى الفصلين الأخيرين من الباب الأول ، وماذكره فى الباب الثانى بفصوله السبعة ، يمتد من ص ٨٩ حتى ص ٤٢٩ ؛ فهو يشغل نحوًا من ٣٤٠ صفحة ، فى كتاب لاتزيد صفحاته على ٤٣٧ ، بما فى ذلك المقدمات والخاتمة . وكل هذا ، يدل على أن نقط الالتقاء مع الدكتور غنيمى أكثر بكثير من نقط الافتراق .

إن مجال الافتراق بين التعريفين إنما يتمثل فى نقطة البدء . فالباحث ، فى التعريف الجديد ، يبدأ من الأدب القومى (العربى) ، ويجعل علاقة التأثير والتأثر موظفة لخدمة هذا الأدب . وهو ، بذلك ، يخفف من تضخم مكان الأدب المقارن ، ويجعله قسيما لتاريخ الأدب وللنقد الأدبى ، بل ربما يشكك فى دوره كعلم مستقل ، ويحوله إلى فرع من فروع النقد

الأدبى، يهتم بالموازنات بين النصوص الأدبية ، وبـالسرقات الدولية والأبدية على حد تعبير الباحث الفرنسى.

وهذا التعـريف الجديـد، يهتم بالنـاحية الفنية أيضـا، ويجعل منهـج البحث فى الأدب المقارن مـن شقين: النقد الأدبـى من خـلال الاستشعار الأولى بـالعلاقـة بين النصين. ثم البراهين المادية التى تؤكد هذا الاستشعار.

إن الاستشعار الفنـى ، هو الخطوة الأولى فى الدراسـات المقارنة، التـى تطرح الافتراض المبدئى، وتدفع الباحث إلى أن يواصل الطريق فى البحث عن البراهين العلمية .

وهو استشعـار، يأتى عـن طريق الحسـاسية الفنية. ودون هـذه الحساسية، قـد يضل الباحث طريقه، ويقع فى مسائل تجريدية جـافة، وهذا يدل على الصلة العميقة التى تربط الأدب المقارن بالنقد الأدبى، كعلم يقوم على مـوهبة تستشعر الفروق الدقيقة بين النصوص الأدبية.

وربما كان الاستشهاد بمثال من واقع تجربتى الشخصية ، يمكن أن يقرب لنا ما أريد أن أنص عليه من أهمية الناحية الفنية فى مجال الدراسات المقارنة.

فبعد أن فرغـت من رواية « أمريكـا » لكافكا، أحسست بـأن هذه الرواية تختلـف عن «القضية» و«القلعـة» و«سور الصين»، وغير ذلك مـن روايات كتبها كـافكا. بل أكثـر من ذلك، أحسست أن هذه الرواية تختلف عـن منهج الرواية الأوروبية التقليدية ، وأنها تقترب كثيرا من منهج المقامـات فى الأدب العربى، وهو منهج يقوم على وحـدات مستقلة ، ليس من الحتم أن تخضع لخط تطورى يربط بين الفصل والذى يليه .

إن الحس الفنى، نبهنى إلى افتراض مصادر شرقية لهذه الرواية. ومع البحث، اكتشفت أن مقامات الحريرى انتقلـت إلى العالم الغربى، وأنها قد أثرت فى جنـس أدبى يسـمى أدب الشطار، وهو جنس يـدور حول بطل من قاع المجتمع شبيه إلى حـد كبير ببطل المقامات. فتوصلت إلى نتيجـة مؤداها أن هذه الـرواية لكافكا إن لم تكن قـد تأثرت مباشرة بـالمقامات فهى على الأقل قد تأثرت بها عن طريق ذلك الجنس الأدبى.

وهذا الانطـلاق فى الأدب القومى، كنصـوص أدبية تحمل خصـوصية فنية، يقلـل من أهمية الـدراسات التـى أوردها الدكتـور غنيمى هـلال فى الفصل الأول مـن الباب الأول ، والتى تـدور حول تـاريخ نشأة الأدب المقـارن فى أوروبا. وهـذا التقليل ، لا يصـدر، من تجاهل للمجهود العلمى الذى بذله الدكتـور غنيمى من أجل هذه الدراسات ، ولكن لأن هذه الـدراسات خاصـة بواقع الأدب المقارن فى الجامعـات الأوروبية والفرنسيـة. ونحن فى

التعريف الجديد ننطلق من الأدب القومى ، الذى هو الأدب العربى فى مثل حالتنا ، ومن هنا ، تبدو هذه الدراسات غير مجدية فى نقطة انطلاقنا ، ونراها أقرب إلى الترجمة والنقل .

وكل هذا ، يجعلنا نقترب من الغاية التى تهدف إليها هذه الدراسة ، وهى تتعلق بتأسيس علم أدب مقارن من منظورعربى . وفى هذه الحالة ، سوف يتحول كتاب الدكتور غنيمى إلى خلفية تاريخية لهذا العلم ، قدمت المنهج ، وقدمت النموذج من واقع الأدب الفرنسى ، واستفزت الذهن لكى يؤسس علم الأدب المقارن ، من واقع تاريخ الأدب العربى ، وانطلاقا من النصوص العربية .

ـ ١٤ ـ

ومن أجل هذه الغاية ، يمكن أن نطرح تصورا التأسيس علم أدب مقارن من منظور عربى ، يقوم على الخطة التالية :

١ ـ البحث عن جذور الأدب المقارن داخل الأدب العربى .

٢ ـ دراسة الأجناس الأدبية من واقع تاريخ الأدب العربى .

٣ ـ الاهتمام بتأثير الأدب العربى فى غيره من آداب الشعوب الأخرى .

٤ ـ البحث عن مذاهب أدبية داخل الفكر العربى .

وسنقف وقفة خاصة عند كل نقطة من تلك النقاط السابقة .

ـ ١٥ ـ

جاء الفصل الأول فى كتاب الدكتور غنيمى هلال تحت عنوان : « تاريخ نشأة الأدب المقارن فى أوروبا » ، وقد خصصه للنقاط الآتية :

فكرة الأدب المقارن قبل القرن التاسع عشر ـ نظرية المحاكاة فى الأدب اللاتينى وفى عصر النهضة والعصر الكلاسيكى ـ فى القرن السابع عشر ـ فى القرن الثامن عشر ـ فى القرن التاسع عشر ـ الحركة الرومانتيكية ـ مبادئ الرومانتيكية ومقارنتها بمبادئ الكلاسيكية ـ مدام دى ستال ـ سانت بوف ـ النهضة العلمية فى القرن التاسع عشر ـ إرنست رينان ـ هيبوليت تين ـ جاستون بارى ـ برونيتير ـ كمال نشأة الأدب المقارن على يد جوزيف تكست والباحثين المحدثين .

إلى هذه النقاط نتابع جذور الأدب المقارن فى التاريخ الغربى قبل عصر النهضة وبعده ،

وخلال مذاهب وحركات غربية ، مثل الرومانتيكية والكلاسيكية ، وعلى يد أعلام فى الغرب ، مثل : مدام دى ستال ، وسانت بوف ، وإرنست رينان وحتى جوزيف تكست ، وترصد هذه الجذور بالعودة إلى مصادر أوروبية وفرنسية بنوع خاص .

ونحن بصدد البحث عن جذور للأدب المقارن ممتدة فى التاريخ العربى ، سنغير الفصل إلى « تاريخ نشأة الأدب المقارن عند العرب» ، ونخصصه للنقاط الآتية :

رحلات العرب قبل الإسلام ـ رحلة الشتاء ورحلة الصيف ـ المناذرة ـ الغساسنة ـ اليهودية والنصرانية فى الجزيرة العربية ـ القيان والمغنيات ـ الهجرات اليمنية ـ الفتوحات الإسلامية ـ الهجرات العربية بعد الإسلام ـ الصراع مع الحضارة المجاورة ـ التعريب ـ الزواج والنسب ـ تعريب الدواوين ـ كتاب الدواوين من أصول غير عربية ـ الترجمة عن اليونانية والفارسية والهندية والسوريانية وغير ذلك ـ المنافذ الحضارية خلال الأندلس وجنوب فرنسا وصقلية ومالطة وأوروبا الشرقية ـ رحلات ابن بطوطة وغيره ـ مجالس الخلفاء والوزراء والقادة ـ الفلاسفة ـ المتصوفة ـ السير الشعبية ـ العادات والتقاليد ـ الأعياد والمواسم ـ الكتب المقدسة ـ قصص الأنبياء ـ قصة يوسف ـ مجنون ليلى ـ الشعوبية ـ الجاحظ ـ ابن المقفع ـ الموشحات والأزجال فى الأندلس ـ لقمان ـ النفود الفارسى ـ النفوذ التركى ـ الحروب الصليبية ـ الحملة الفرنسية على مصر ـ محمد على ـ الاستعمار ـ الترجمة فى العصر الحديث ـ البعثات الخارجية ـ الجامعات ـ الصحافة ـ الإعلام ـ جهود الدكتور غنيمى هلال ـ كتابه فى الأدب المقارن ـ توجه الدراسات المقارنة بعد الدكتور غنيمى ـ البحث عن الجذور التراثية فى الرواية والمسرح وغيرهما ـ ظهور فكرة الأصالة ـ اقتراح دراسة الأدب المقارن من منظور الأدب العربى .

وغير ذلك من نقاط تستوحى التاريخ العربى ، وتحاول أن توصل للأدب المقارن داخل هذا التاريخ ، وتردد أعلاما عربية ، وأحداثا عربية . حتى حينما تتعرض للتأثيرات الأوروبية ، فإن منطلقها يكون من الواقع العربى ، ولا تمس الأحداث الأوروبية إلا من خلال تأثيرها على هذا الواقع .

إن الذى حدث عند الدكتور غنيمى ومن سار فى اتجاهه ، أنهم اطلعوا على بعض المؤلفات الأوروبية وقاموا بترجمتها ، وعرضوا وجهة نظر أصحابها ، وهذا أمر سهل ، يتطلب معرفة صاحبه بلغة أوروبية فحسب . أما بقية الجهد ، فقد قام به أصحابه من المفكرين الأوروبيين . وكل ماهو مطلوب من الدكتور عنيمى ، أو من يسير فى اتجاهه ، هو عرض هذا الجهد ، أو التعليق عليه ، أو ضرب أمثلة تستوحيه وتسير على منواله .

أما الخطوة الأخرى المطلوبة ، والخاصة بتأصيل الأدب المقارن فى البيئة العربية ، فهى

أشد صعوبة، لأن الطريق غير ممهدة، ولأن المطلوب من الباحث أن يتابع النقاط السابقة فى المؤلفات التاريخية والجغرافية والأدبية والفلسفية والصوفية، ثم يقدم نسقا يضاهى النسق الذى قدمه الباحثون الأوروبيون والفرنسيون، واستوحاه الدكتور عنيمى ومن سار على دربه.

-١٦-

استعرض الدكتور غنيمى فى الباب الثانى، ميادين البحوث فى الأدب المقارن. التى تدور حول المواقف الأدبية، والنماذج البشرية، والأجناس الأدبية، وغير ذلك مما غطى به الفصول السبعة التى تشكل هذا الباب.

وقد ذكرنا من قبل، أنه يمكن لمن يريد أن يؤصل الأدب المقارن فى البيئة العربية أن ينطلق من هذه الميادين وتلك الفصول، ولكن بشرط له أهميته، وهو أن تكون طريقة معالجته لهذه الفصول مختلفة عن الطريقة التى عالجها بها الدكتور غنيمى.

فالدكتور غنيمى، قد نقل معلوماته من الكتب الأوروبية والفرنسية، فجاءت تخدم الأدب القومى الفرنسى أكثر مما هى تخدم الأدب القومى العربى، الذى ضاع خلال السياق، وجاء من باب الاستطراد، وفى حالات كثيرة منقولا عن مصادر أوروبية.

لنضرب مثلا على ذلك بما ذكره الدكتور غنيمى فى فصل «الأجناس الأدبية». فقد استعرض الأجناس الأدبية الشائعة فى العالم الغربى، من مثل: الملحمة، والخرافة، والقصة والمسرحية. وتجاهل الأجناس الشائعة فى الأدب العربى، من مثل: الشعر، والخطابة، وفن الحكمة.

ومن هنا، جاء استعراضه مليئا بالأعلام والأمثلة والإحالات الغربية، وعرج على الأدب العربى من باب الاستطراد السريع. فهو، مثلا، فى حديثه عن الملحمة، يتابع تاريخها عبر الأدب اليونانى، واللاتينى، وفى العصور الوسطى وحتى العصر الحديث، ويضرب أمثلته من الإلياذة، والأوديسا، والانياده، والكوميديا الإلهية، والفردوس المفقود، ومغامرات تلماك، ويشير إلى هوميروس، وفرجيل، ودانتى، وميلتون، وفينلون.

إن يشرق ويغرب، ولا يعرج إلى الأدب العربى إلا فى النهاية، وفى فقرة أخيرة لاتتجاوز ستة أسطر، يذكر فيها أن الأدب العربى القديم لم يعرف فن الملاحم، وكل ما عرفه العرب مما يمت إلى ذلك بصلة، هو فن السير الشعبية، وهو فن فيما يرى ليس له من المكانة الأدبية ما يسمح له بأن يدرسه فى هذا الكتاب؛ ومن هنا، يكتفى بهذه الإشارة، ويتوقف عن دراسته.

لقد كـان أسهل على الـدكتور غنيمـى أن ينقل ويترجـم، من أن يتـابع بنفسـه تاريـخ الأجناس الأدبية التى شاعت فى الأدب العربى، وأن يُكوِّن رؤيته الخاصة.

أما الباحـث عن تأصيل الأدب المقارن فى البيئـة العربية، فإن مهمته أصعـب من ذلك بكثير؛ إذ عليه أن يتابع بنفسـه رحلة الشعر، والخطابة، والحكمة، وغير ذلـك من أجناس أدبية، عرفها العرب، و رددوها فى كتبهم.

وهو فى تلك المتابعـة لن يردد ماقاله النقـاد، القدامى أو المحدثون، عن تـاريخ الشعر العربى، أو عن الخطابة، أو الحكمة، أو المديح، أو الغـزل؛ لأن ماقالوه يندرج فى تاريخ الأدب القومى. ولكن الباحث عن تأصيـل الأدب المقارن، يتصدى لدراسة هذه الأجناس والأنواع، من منطلق علاقة التأثير والتأثر مع آداب اللغات الأخرى.

لنضرب مثلا، يجسد هذه المهمة من تتبع تاريخ الشعـر العربى، من منظور هذه الرؤية المقارنة. فالمطلوب من الباحث، أن يكشف قبـل كل شىء عن نظرية الشعر عند العرب، كما تتمثل فى عمود الشعر نظريا، وفى المعلقات كنماذج. ثم يتحدث عن نظرية الشعر عند اليونان، كما يمثلها كتاب «فن الشعر» لأرسطو. ثم يتابع الصراع الحضارى بين النظريتين، ومردود هذا الصراع على الشعر العربى، ويرصـد قوة الحضارة العربية فى تلك الفترة، والتى تمثلت مصطلحـات أرسطو، وحولتها عـن مجراها، وجعلتها أقرب إلى مصطلحـات الشعر الغنائى، منها إلى مصطلحات الشعر التمثيلى. ثم يتابع رحلـة الشعر فى علاقته مع الثقافة الفارسيـة، وأثر تلك العـلاقة فى اللغة والموضوعـات، ورحلته فى بلاد الأنـدلس، والتغيير الذى طرأ على شكل القصيـدة واستجابة القصيدة العمودية لهذا التغيير. ثـم متابعة التغيير الذى طـرأ على شكل القصيدة فى العصر الحديث بعـد الاحتكاك مع الحضـارة الأوروبية، ورصد درجة الانحراف عن تقـاليد القصيدة العربية. والمقارنة بين موقـف الحضارة العربية القديمـة التى تمثلت الفكـر الإغريقـى، وحولته إلى جـزء من بنيتها الفكـرية، ومـوقفها فى العصر الحديث بعد أن ذابت فى الفكر الأوروبى وخضعت لمصطلحاته الخاصة.

وغير ذلك من متابعة لكل جنس من الأجناس الأدبية الشائعة، وهى متابعة لاتنقل من تاريخ الأدب العـربى فى صورته القـومية، ولاتترجم من المصـادر الغربية، ولكنها تـوصل لـلأدب المقارن، مـن دائرة النصوص العـربية وعـلاقتها بـالنصوص الأجنبيـة، بحثا عـن الأصالة، واستنتاجا من تاريخ عربى، وترديدا لأعلام عربية، واستشهادا بنماذج عربية.

مالت الدراسات المقارنة فى مصر والعالم العربى، بفضل كتاب الدكتور غنيمى، إلى التركيز على تأثر العرب بغيرهم، وخاصة بالكتّاب الأوروبيين. ولم تعط مثل هذا الاهتمام بالجانب الآخر، الذى يركز على تأثير العرب فى غيرهم من كتّاب الشعوب الأخرى.

وانطلقوا يبحثون عن مصدرٍ لكل أديب عربى؛ فطه حسين هو فولتير الشرق، والعقاد هو كوليردج، والحكيم هو أفلاطون، ومحمود تيمور هو موباسان، ونجيب محفوظ هو زولا، وإحسان عبد القدوس هو هـ. جـ. ويلز، وصلاح عبد الصبور هو إليوت.

وقد كانت هذه المصادر الأجنبية تطلق بتيه شديد، سواء من الأديب أو من ناقده، ودون أدنى إحساس بأن التركيز على المصدر إنما يحيل الكاتب إلى صدى، ولدرجة أن بعضا ممن يكتبون بدافع من أنفسهم، ومن منطلق الأصالة، قد تواروا فى الظل، لأنهم لايجدون «سيدا» أجنبيا يتكئون عليه، ويتيهون به على الجمهور.

وقد توالى الضغط الأوروبى على الواقع العربى، وأصبحت المذاهب الأدبية التى تنشأ فى أوروبا تفرض على الواقع الأدبى فى مصر والعالم العربى.

من المعروف أن المذهب الأدبى، لايفرض من فوق، أو بقوة القانون والقهر، ولكنه يختمر فى بيئة، ويتحرك بين جمهور، ويعكس فلسفة معينة ويخضع لتأويلات النقاد والدارسين. وكل هذا يعنى أنه يحمل خصوصية معينة، لاتتيح له أن يترعرع فى تربة أخرى.

ولكن الدارسين يتجاهلون ذلك، ويتعرضون لتفسير التاريخ العربى، وتحليل الإبداع الأدبى، من منطلق الكلاسيكية، أو الرومانتيكية، أو الواقعية، أو الماركسية، أو الوجودية، وينثرون المصطلحات الوافدة التى نشأت فى ظروف خاصة على التاريخ العربى.

وظهر هذا الضغط، بصورة واضحة، على أقسام: اللغة الإنجليزية، واللغة الفرنسية، واللغة الألمانية، وغير ذلك من أقسام الجامعات المصرية والعربية، التى تتخصص فى اللغات الأوروبية، وتتحول إلى نسخة من أقسام الجامعات الإنجليزية، والفرنسية، وتقوم بدراسة الأدب المقارن من منظور هذه الجامعات، وتركز على الموضوعات التى تبرز تأثير الآداب الأوروبية فى الأدب العربى الحديث، من مثل: شكسبير فى الأدب العربى - إليوت فى الأدب العربى - تأثير تيار الشعور فى الرواية - العبثية فى المسرح المصرى - صورة الغرب فى الرواية العربية الحديثة - بين رواية زينب وغادة الكاميليا - المصادر الفرنسية فى أدب طه حسين - بخيل موليير فى الأدب العربى - الرومانتيكية الغربية فى الشعر العربى الحديث - بين نجيب محفوظ وتشارلز ديكنز.

إن تأصيل الأدب المقارن فى الواقع العربى، يتطلب قدرا مماثلا من الاهتمام بالصورة الأخرى، التى تحاول أن تبرز تأثير الأدب العربى فى غيره من آداب الأمم الأخرى. إن الباحث، بذلك، يصحح الوضع، ويستكمل الصورة، ويحقق الموضوعية التى تستغرق الجوانب كافة.

ومن ناحية أخرى، فإن هذا الاهتمام يحقق هدفا قوميا، ويجعل الإنسان العربى يحس بأنه ممتد تاريخيا، خلال أدب عريق، أثر قديما فى الحضارات المجاورة، مثل: حضارة الفرس والترك والحضارة القبطية، وامتد بتأثيره إلى قارتى إفريقية وآسيا، وعبر البحر إلى قعر الحضارات الغربية.

إن موضوعات، مثل: المقامات، وألف ليلة وليلة، وحى بن يقظان، والمعراج، والموشحات، وبخلاء الجاحظ، والحب العذرى، والفروسية، والوقوف على الأطلال، والعروض، والقافية، وصورة الشرق، وقصة يوسف، ومجنون ليلى، ، والأدب العربى فى إفريقية، أو فى الصين، أو عند الشعوب الإسلامية، أو فى أمريكا اللاتينية، أو فى أوروبا الشرقية - إن موضوعات كهذه، يمكن أن تكون منطلقا للكشف عن تأثير الأدب العربى فى الآداب الأخرى، وأن توظف الأدب المقارن من أجل هدف قومى.

- ١٨ -

المذاهب الأدبية لاتنشأ من فراغ، ولكنها تختمر داخل بنية المجتمع، نتيجة عوامل سياسية وفكرية. وقد ذكرنا، من قبل، أن الضغط الأوروبى على الواقع العربى، قد بلغ حد إسقاط المذاهب الأوروبية على الواقع العربى، وتحوير هذا الواقع لكى يستجيب لمقولاتها. ونضيف، الآن، أن الدكتور غنيمى فى كتابه قد ذكر أن الأدب العربى لم يصل إلى حد المذاهب الأدبية، نتيجة غيبة الوعى عند الجمهور، وغياب الرؤية الفلسفية[(١)].

ليس حتما أن يعرف الأدب العربى نفس المذاهب الأدبية التى نمت فى أوروبا نتيجة عوامل تاريخية، حتى إذا ما افتقدناها حكمنا على الأدب العربى بالجهل والغباء، ثم نمعن فى عملية التعذيب الذاتى، ونرى أنفسنا غير جديرين بالمعرفة والرؤية الفلسفية.

إن الذى يدرب ذهنه على استقلالية التفكير، ويصدر عن تفرد وأصالة، ثم يبحث فى الفكر العربى عن المذهب الأدبى، فإنه حتما سيلتقى بهذا المذهب. ولكن، ليس من الحتم أن يكون هذا المذهب صورة من المذاهب التى عرفتها الحضارة الأوروبية.

(١) انظر ص ٤١٦.

إن المذهب فى تعريفه اليسير يحمل رؤية فكرية ، تتجسد خلال جمهور يتحمس لها ، وتثبت فعاليتها خلال تطبيقات تتناول مختلف الأنشطة البشرية ، سلوكية ، أو شعورية أو عقلية .

وليس من المعقول أن حضارة عريقة وممتدة تاريخيا ، كالحضارة العربية الإسلامية ، تخلو من المذاهب بهذا التعريف البسير. فهى حضارة تملك رؤية فكرية وعقدية ، وأثرت وتأثرت بالحضارات المجاورة ، ولها خصوصيتها الحضارية ، التى ألقت بظلالها على مختلف الأنشطة البشرية . وكل ما هنا لك ، أن الذهن العربى المعاصر فى حاجة إلى أن يلتقط أحكامه الخاصة من واقع التاريخ العربى ، وليس من واقع المؤلفات الجاهزة أو الأفكار الوافدة .

إن مذهبا ، مثل مذهب الوسطية ، يمكن أن يمثل مذهبا أدبيا من واقع التاريخ العربى ، ويمكن أن يحمل كل مقومات التعريف السابق للمذهب الأدبى ، وكل ما هنالك ، أن هذا المذهب قد وقع فى دائرة الفكر الدينى ، فانصرف عنه الفريقان .

الفريق القديم ، نظر إليه كمذهب دينى ، لاينبغى أن تهتك حرمته ، وننظر إليه كفكر يستجيب للاجتهادات البشرية .

أما الفريق الحديث ، فقد نظر إليه كطقس دينى ، يشبه العبادة والتبتل ، ولا يصل إلى حد التأثير على الفكر الإنسانى .

وسوف نحاول فى الأسطر القادمة أن نتابع هذا المذهب الوسطى ، من منظور الأدب المقارن ، الذى يقوم على فكرة التأثير والتأثر بين الآداب المختلفة ، وسنحس ذلك بسرعة وخفة ، لأن لى كتابا مفصلا حول هذا الموضوع ، يصل إلى خمسة أجزاء .

الوسطية لها رؤيتها ، ولها جمهورها ، ولها تطبيقاتها ، كما أوضحت فى الكتاب السابق ، ولها خصوصيتها التى جعلتها تدخل فى صراع حضارى مع وسطية أرسطو، واستطاعت أن تحوّر من الفكر الفلسفى الذى ترجم إلى العربية ، ثم انتقلت بعد ذلك بهذا التحور الحضارى إلى العالم الأوروبى ، وأثرّت فيه . وكانت قصة حى بن يقظان هى المثال البارز على هذا التأثير. وقد تجسدت الوسطية العربية فى قالب الأدعية المأثورة ، التى كانت تعكس رؤية فكرية مميزة ، أثرت بعد ذلك فى شطحات الصوفية ، والتى بدورها نقلت إلى الفكر الغربى . وكان ابن عربى والحلاج مثالين بارزين على ذلك . ثم عاد الفكر الصوفى بعد أن تلوث بالرؤية الغربية إلى العالم العربى . وكان الحلاج ـ كما صوره صلاح عبد الصبور فى مسرحيته ـ شاهدا على تلك العلاقة بين الحضارتين الغربية والأوروبية .

وهكذا ، يمكن أن نتابع هذا المذهب من منظور الأدب المقارن ، ونجد أنه يملك تاريخا

لايقل عن المذهب الكلاسيكى، أو الرومانتيكى، وأنه يثير الكثير من القضايا التى تمت بصلة كبيرة إلى ميدان الأدب المقارن.

-١٩-

منذ أن تشكلت الحضارة العربية الإسلامية، دخلت فى حوار حىّ مع مختلف الحضارات الإنسانية، منذ الفرعونية وحتى الحضارة الغربية الحديثة، مرورا بالحضارات الإغريقية، والقبطية والفينيقية، والآشورية، والفارسية، والرومية.

ولأنها حضارة عريقة، تستند على أرضية فكرية، وليس على مظهر عسكرى فحسب، لم يفقدها ذلك الحوار خصوصيتها، بل خرجت منه بأفق أوسع، ودماء جديدة.

وقد انعكس هذا الحوار على الأدب العربى وتفاعل مع الآداب الأخرى، وأخذ منها وأعطاها، وكانت حصيلة ذلك تجددا فى الشعر، وفى النثر، وفى سائر الأجناس الأدبية.

إن كل هذا يعنى أن فكرة التأثير والتأثر موجودة منذ أن بزغ الأدب العربى إلى الوجود، وتشكل فى لغة لها رؤيتها الفكرية والفنية وهى حقيقة لاتحتاج إلى بيان، تدل عليها الترجمات، وأقوال الأدباء من أمثال الجاحظ وابن المقفع.

فالأدب المقارن هو حقيقة قائمة منذ القديم، وكل ما أضافه العلم الحديث هو ذلك المنهج العلمى، الذى يخضع علاقة التأثير والتأثر للبراهين العلمية والأدلة المادية.

وقد كان للدكتور غنيمى فضل التعريف بهذا المنهج فى الأوساط الأدبية والجامعية فى العالم العربى. وإذا كان الدكتور غنيمى قد اعتمد فى تعريفه وفى شرحه على أمثلة أوروبية وعلى مصادر فرنسية، فإن الخطوة التالية والمتمثلة فى المشروع الذى اقترحته، تنتظر رائدا آخر، يكون له فضل تشكيل علم أدب مقارن من منظور عربى.

-٢٠-

كانت تلك المقدمة عن الهدف القومى من الأدب المقارن.

ويأتى هذا الكتاب تطبيقا لتلك المقدمة.

فهو فى الفصل الأول، يبدأ من مقامات الحريرى، ويكتشف البنية الفنية لهذه المقامات، ثم يتابع رحلتها فى بطن التاريخ حتى تصل إلى رواية «أمريكا» لكافكا.

وهو فى الفصل الثانــى ، يسعى إلى بيان أن الكثير من المناهج الأدبيـة ، يمكن الوصول إليها عـن طريـق التراث . إن فكرة « البنائيـة » مثلا ، التى شغلـت النقد الأدبـى الحديث ، يمكن الوصول إليها عن طريق السكاكى ، وعـن طريق البلاغة العربية ، بدلا من أن يكون مدخلنا إليها هو رولات بارت وغيره من النقـاد الأوروبيين ، وبذلك نصحح طريق النهضة الذى تتبعه مختلف الحضارات الإنسانية ، والذى يقوم على إحياء التراث ، ثم الانطلاق منه إلى رؤية معاصرة .

وهو فى الفصل الثـالث ، يقدم معالجة للأشكـال الأدبية من منظور عـربى بحت . إن فكرة الـرحلة إلى العوالم الأخرى ، والتطلـع نحو أخبار السماء تضربـان بجذورهما فى الأدب العربى ، منذ أن بدأ الكهان ، عـن طريق الجان ، يتلصصون على أخبار السماء ، وحتى أن أصبحت هذه الرحلة قالبا أدبيا شكلته الحضـارة العربية الإسلامية ، ومنحته خصوصيتها ، وتداولتـه أيدى الكتّـاب ، وانتقل بعد ذلـك إلى مختلف الحضارات الإنســانية ، كـالحضارة الفارسية ، والتركية ، والإيطالية .

وهـذا الفصل ، يتـابع تلـك الرحلـة منذ الطبرى فى تفسيره ، وحتـى الزبيرى فى روايتـه «مأسـاة واق الواق» ، وإقبال فى رسالتـه « جاويدنـامه» . وهو خـلال تلك الرحلة ، يتـابع تنقـلات هذا الشكـل مـن النثـر إلى الروايـة إلى الشعـر ، ويرصـد استجـابتـه لكل الـرؤى الحضارية ، سواء كانت فكرية أو فنية .

وهو فى الفصل الرابع ، يتابع رحلة الحلاج من التراث العربى ، إلى الفكر الأوروبى ، ثم عودته إلى الأدب العربى ، محملا برؤية غربية وغريبة ، تكشف عن الصراع الحضارى الذى يتستر وراء الشخصيات الأدبية ، والأشكال الفنية ، لأن الوعـى بهذا الصراع يزيد من درجة المناعة .

والكتاب ، فى كل فصوله ، يتشبث بأمرين ، ويحاول ألا يفلتا منه : أولهما ، الانطلاق من النصوص الأدبية فى محاولة لإضفاء نزعة فنيـة على بحوث الأدب المقارن ، تخفف من جفاف النزعة التاريخية . والآخر، الانطلاق من الهدف القومى ، فى محاولة لتأصيل علم أدب مقارن من منظور عربى .

والله أعلم .

الفصـل الأول

البطـــل المــــــراوغ

بين الحريرى وكافكا

دراسة مقارنة حول الشخصيات الأدبية

- ١ -

يقدم الحريـرى فى مقامته الحرامية ـ وهى المقـامة الأولى فى التـأليف ، وإن كانـت تمثل الثامنة والأربعين فى ترتيب المقامات ـ صـورة لبطلة « أبى زيد السَّروجى » . فقد ذاع أمره بين الناس ، يراه فى مسجد بنـى حرام بالبصرة يخطب ، فيعجب به ، ويسمـع الكثير عنه . كل واحد من الحاضريـن يذكر أنه رآه فى مسجد آخر . وكـل واحد يتحدث عن ظرفـه وبلاغته وشدة تـأثيره فى الناس . وكل واحد يـذكر أنه سمع منـه أحسن مما سمع الآخـرون . وكلهم يؤكدون على أنه كان يغيّر فى زيه وهيئته .

ويصف الشريشى فى شرحه للمقامة الحلوانية ، السَّروجى بـأنه من أهل الكُدْية ، الذين ينتمون إلى بنـى ساسان ، وهـم قوم قد خضعـوا لراية الإسـلام فى عهد عمر بـن الخطاب ، وتقلبت بهم صروف الدهر ، من عز وملك إلى ذل وبـؤس ، فاحترفوا مهنة السؤال ، وأخذوا يرققون قلوب النـاس بالحديث عما كانوا فيه من عز ، ومـا صاروا إليه من ذل ، ويشيرون إلى أعاجيب الدهر ، الذى يعز ثم يذل .

وقد تحول هؤلاء القوم إلى طائفة ، لهم مصطلحـاتهم الخاصة ، وتقاليدهم الخاصة ، ولهم فوق كل ذلك « نوادر » يرويها الناس ، ويتفكهون بها .

وقد أوقف الحريرى مقامتـه التاسعة والأربعين ـ وهى المقامة الساسـانية ـ للتحدث عن هذه الطـائفة ، وهو يعطى فى هـذه المقامة ابنـه ولاية العهد مـن بعده ، ويذكره بقيمـة هذه الحرفـة ، وأنها تفوق غيرهـا مـن الحرف الأخرى ؛ فـأصحـابها « أينما سقطوا لقطـوا ، وحيثما انخرطوا خرطـوا ، لايتخذون أوطانا ، ولايبغون سلطانا ، ولايمتـازون عما تغدو خماصا وتروح بطانا » .

فالسروجى يحمـل أبعادًا تاريخية ، تثير فى النفوس العبرة ، والخوف من تقلبـات الزمن ، والإشفاق من أن يحدث لهم مثـل ما حدث له . وهـو ، من أجل ذلك ، قـد تحول إلى بطل شعبى ، ، يتحلق حولـه الناس ، ويتداولون أخباره ، وقد يتزيـدون فيها إن لم تكن الحقائق كافية لإرضاء فضولهم .

- ٢ -

وقد وجـد الأدباء فى شخصية المُكْـدِى ، صورة مركبة ، لشخصيـة لها أبعادها التـاريخية والشعبية ، ولها إيحاءاتها التـى تحرك مشاعر النـاس . ومن هنا ، تحوَّل المكـدى إلى نموذج ، يتواتر ذكره فى الكتب الأدبية ، قبل الحريـرى وبعده ، وتتوارد أخباره فى مثل : الأذكياء لابن الجوزى - الأغـانى لـلأصفهانـى - الأمالى لابـن عالى القـالى - الإمتـاع والمؤانسة لأبـى حيان التوحيدى ـــ البخلاء للجاحظ - ثمرات الأوراق لابـن حجة الحموى - حكاية ابـن القاسم البغـدادى لابـن أبـى مظهـر الأزدى - زهـر الآداب للحصرى ـــ شرح مقـامـات الحريـرى للشريشى ـــ العقد الفـريد لابن عبـد ربه - عيـون الأخبار لابـن قتيبة الدينـورى - الفـلاكة والمفلوكون لابن على الدلجى - الكامل للمبرد - المستطرف للأبشيهى - نهاية الأرب للنويرى - القصيدة السـاسانية لابن حلى ـــ وغير ذلك من أمهـات الكتب ، التى تواتـرت على مدى التاريخ العربى ، وتغطى كل بقعة يرتفع فيها صوت اللغة العربية .

فالحريـرى ، إذن ، لم يختر بطله صدفـة ، بل هو عمد إلى نمـوذج يحمل « ثِقْلا» تـاريخيا وأدبيا ، فيتحول هـذا الثِّقْل إلى خلفية تثير فى ذهن القارئ الكثير من المتـواردات . ليس هو بطلا مسطحا ، يمثل حالة خاصة ، يكون هـم المؤلف أن ينقلها إلى القارئ ، ولكنه بطل ذو أبعاد مـركبة ، يتحـول إلى رمز ، يسحب معـه ثِقْله التاريخى والأدبـى ، فيضيف إلى صـورته الشخصية أبعادا غير مرئية وغير فردية .

- ٣ -

ولم يكتف الحريرى بهذا « الثِّقْل» التـاريخى والأدبى للبطل ، بل أضاف إليه مـن فنه ، ما جعل المُكْدِى فى مقاماته يتحول إلى ذات مميزة لاتضيع فى آلاف المُكْدين المتناثرين فى الكتب المختلفة .

وتتجلى خصوصية الحريرى فى ذلك البعد النفسـى والاجتماعى عند بطله . فهو ، دائما ، ناقم كثير الشكوى [١] . وهو فى شكـواه يصف الوضع المتردى لطـائفته[٢] ، ويشير - مـن بعيد ، وفى حذر شديد - إلى الجهة المسئولة عن هذا الوضع ؛ وذلك ، على هيئة دعابة خفيفة من الوالى وأشباهه [٣] .

وهذا البعـد النفس والاجتماعى . منـح مقامات الحريـرى - فيما يـذكر الدكتـور غنيمى هلال [٤] - أبعادا جعلها تتفـوق علي مقامات الهمذانى ، على الرغـم من أسبقيتة ، وأتاح لها من النضج ماجعلها تتخطى حواجز الزمان والمكان .

وهناك بعدان يتكاملان فى إضفاء الخصوصية على بطل الحريرى، وهما: بعد الحركة والتنقل وحب السفر من ناحية [٥]، وبعد المطاردة بين البطل والراوى من ناحية أخرى[٦].

فالبطل كالنحلة المحمومة، لايهدأ ولايستقر، ويتنقل من مكان إلى مكان. وقد تتخذ بعض المقامات من اسم المكان عنوانا لها، كالمقامة الحلوانية، أو الدمياطية، أو البصرية أو البغدادية؛ ولكن هذا لايعنى أنها تهتم بالمكان كعنصر قائم بذاته، يلعب دورا أساسيا فى البنية الفنية، كما هو الحال فى الروايات الحديثة. إنما هذا يعنى أن صاحب المقامات، يشير إلى عنصر التنقل والحركة فالبطل لايهدأ. قد يكون فى حلوان، ثم نراه فى دمياط، أو الإسكندرية، أو بغداد، أو البصرة، أو الشام. أو سمرقند.

ومن هنا، يتواتر وصف البطل بأنه أخو أسفار (١/ ١٩٥)، أو بأن الأرض قد انشقت عنه (٢/ ٣)، أو أنه من الفرار (٢/ ٥٦). أو أنه يشرّق فى الأرض ويغرّب (٢/ ٢٥٤)، أو أنه يظهر وقت الأرق (٢/ ١٥٠)، أو أنه يظهر فجأة ويختفى فجأة (٣/ ٣٣)، ويظهر حتى فى البحر (٣/ ٤٨)، وغير ذلك من صفات تضفى على البطل روح الحركة والتنقل.

وتتوارد الأشعار التى ينشدها البطل فى السفر وإغراءاته، وذلك فى أكثر من مقامة.

وهى أشعار تتميز بالحرقة وصدق العاطفة. ففيها حنين إلى الديار، وشكوى من الغربة، وأحيانا يلجأ إلى الكأس لينسى عذاباته، ويغلفها نوع من الحزن خفيف، لايصل إلى حد التمرد والإغراق. وذلك، كقوله فى المقامة الثلاثين، يتحرق شوقا إلى مسقط رأسه «سروج»:

ولِمَن ينزاحُ عنها زَفَراتٌ ونشيجُ

مثل مالاقيت مُذْ زحزحنى عنها العُلوج

عَبْرة تهمِى وشجو كلما قَرّ يَهيجُ

---

(١) انظر شرح المقامات للشريشى: ١/ ٧١ ـ ٢/ ٩٩ ـ ٢/ ١٢٧ ـ ٢/ ١٣٧ ـ ٢/ ٣٩٤ ـ ٣/ ٢٣٧ ـ ٣/ ٤٤١ ـ ٤/ ١٧٤ ـ ٤/ ٢٧٤ ـ ٥/ ٢٧ ـ ٥/ ٧٣ ـ ٥/ ٢٥,١ ـ ٥/ ٢٨٠ ـ ٥/ ٣٢١ ـ ٥/ ٣٢٧ ـ ٥/ ٣٢٨.

(٢) المرجع السابق: ١/ ٢١٨ ـ ١/ ٢٥٩.

(٣) المرجع السابق: ١/ ٣٧٤ ـ ٣/ ٣٠ ـ ٣/ ١٦٥ ـ ٣/ ٣٧٧ ـ ٣/ ٤٠٦ ـ ٥/ ٢٠٢.

(٤) الأدب المقارن: ص ٢٢٦.

(٥) شرح المقامات: ١/ ٧٩ ـ ١/ ١٦٨ ـ ١/ ١٩٥ ـ ١/ ٣٣٢ ـ ٢/ ٣ ـ ٢/ ٥٦ ـ ٢/ ١٥٠ ـ ٢/ ١٥٤ ـ ٣/ ٣٣ ـ ٣/ ٤٨.

(٦) ـ المرجع السابق: ١/ ٢٨٤ ـ ١/ ٣٠٧ ـ ٢/ ١٢٤ ـ ٤/ ٣ ـ ٤ ـ ٢٥٢ ـ ٤/ ٢٥٤.

وهمـــــوم كـــل يـــوم خطبهـــا خطـب مَـرِيُـج
ومَسَـــاحٍ فى التَّرجِّـــى قـــاصرات الخطـــو عُـــوج
ليـت يـــومى حُـــمّ لمّا حُـــمّ لى منهـــا الخـــرُوج

ويتصـل بالسفـر، روح المطاردة بين البطـل والراوى. فـالراوى يتعقـب البطل فى كـل مكان، ويـربط بين الاثنين نـوع من العلاقـة غريب، لايستغنـى أحدهما عـن الآخر. وفى الوقت نفسه، بينهما شـىء من التوتر؛ فالراوى، دائما، يلوم البطل على مغـامراته ومجونه، والبطل يـراوغه، ثـم يتخلـص منه، ويتركه فى حسرة. وعلى الرغـم من ذلك، فـإن الراوى معجب بأفانين السَّروجى، متعلق به، يصفه فى أكثر مـن مرة بأنه أعجوبة زمانه. ويتمادى البطل حتى نهاية اللعبة، ويتفنن فى مغامراته، ويستثير الراوى، ويشد بإعجابه.

إن هذيـن البعديـن ـ (روح السفـر، والمطاردة) ـ يتكامـلان، ويتداخـل كل منهما فى الآخر؛ فيضفيان على المقامة نوعا من الحركة، يظهـر تأثيرها على نوعية من الصراع، مناسبة لرؤية الإنسان العربى فى ظل حضارته المميزة.

إن الراوى والبطل، يمثلان ـ فى ظنى ـ مستويين يتدافعان: أحدهما، يمثل روح الفنان التى تميل إلى التحرر وكسر القيود، والآخر يمثل روح المجتمع، الذى يحاول أن يخرط الفنان فى حظيرته. ويدور بينهما نوع من الصراع، تمثله المقامات فى مستويات عديدة.

ـ ٤ ـ

يذكـر الدكتور حسن إسماعيـل، اعتمادًا على مصادر تاريخية، أن شخصيـة المُكْدِى، كانت معروفة فى الآداب الفارسية والهندية والتركية، وأنها انتقلت من هذه الآداب إلى الأدب العربى[١].

قد يكون هذا حقيقة. وقد يكون أن الآداب العلميـة عرفت شخصية المكدى، كنموذج ينتمى إلى النفس الإنسانية بوجه عام، مثـل نموذج البخيل والمنافق، وغير ذلك من نماذج تواترت على مدى الحضارات المختلفة، وهى نماذج ـ فى عمومها ـ شاذة عن طريق الجماعة، تثير حاسة الأديب فى كل مكان وزمان، فيصور هذا الشذوذ، ويرصد مقدار الانحراف.

قد يكون كل هذا حقيقة، ولكن المقامات فى الأدب العربى وبخاصة مقامات الحريرى،

---

(١) ظاهرة الكدية: ص ٢٣، ٢٤، ٢٦٣.

اتخذت شكلا أدبيا أعطاها خصوصية ، تنقل هذا النموذج من مجال العمومية ، إلى مجال الملكية الخاصة .

إن الحضارات إرث مشترك ، وإن البشر هم جنس واحد ، يملكون أجهزة جسدية وفكرية متشابهة ، ويلتقون على أرضية مشتركة . ولكن الفرق بين حضارة وأخرى ، إنما يكون فى تشكيل هذا الإرث المشترك ، ومنحه خصوصية تميزه عن أن ينساب مع غيره . وبقدر هذه الخصوصية ، بقدر ماتتشكل الحضارة كوجود فعلى . وإذا افتقدت هذه الخصوصية ، فإنها تفنى فى حضارة أخرى أو تتشكل فى قوالبها ، لأنها حينئذ تصير هشة رخوة ، مرنة إلى حد كبير ، يفقدها الذاتية ، ويجعلها كالماء يتلون بلون إنائه .

وهنا ، نصل إلى فكرة « الاستيحاء» بين الحضارات المختلفة . فإن الحضارة اللاحقة ، قد تستوحى الفكرة من السابقة ، ولكنها تعطيها من الخصوصية ، ما يحيلها إلى شىء جديد .

ورثت الحضارة العربية الإسلامية ، الكثير من قصص أهل الكتاب ، ولكن هذه القصص بدت عند المفسرين فى «صياغة» إسلامية ، جعلتها تبدو جديدة وخاصة ، وكأنها كتبت للمرة الأولى .

إن قصة يوسف فى القرآن الكريم ، غيرها فى الكتاب المقدس ، مع أن الجزء التاريخى مشترك . ولعل هذا هو المعنى الذى تشير إليه الآيتان الكريمتان ، اللتان وردتا فى نهاية سورة يوسف ، تعليقا على الأحداث ، واستخلاصا للعبرة . إن الآية رقم ١٠٢ . تقول : ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وماكنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾ . وإن الآية رقم ١١١ ، تقول : ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ماكان حديثا يُفترى ولكن تصديق الذى بين يديه ، وتفصيل كلّ شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ . فإحدى الآيتين تذكر أن هذه القصص تصدق القصص السابقة ولاتعارضها ، والأخرى تشير إلى «الخصوصية» فى القصص الإسلامى ، والصياغة الخاصة ، مما جعلها تبدو جديدة ومعجزة .

- ٥ -

وكل مقامة عند الحريرى ، تتكون من مقدمة وموضوع وخاتمة .

المقدمة ، تدور حول فكرة واحدة ، ولكنها ترد فى صيغ لغوية مختلفة . إنها تتضمن فكرة « المطاردة» بين البطل والراوى . يظهر البطل فجأة ، وفى أماكن متباعدة ، قد تكون فى المغرب أو فى المشرق . والراوى يتابعه ولا يملّ ، ويصور ظهور بطله فى مظهر غريب ، يشد الانتباه ، ويثير التشويق

أما الخاتمة فهى تدور أيضـا حول فكرة واحدة ، ولكن فى صيغ لغـوية مختلفة . إنها تشير إلى فكرة « اختفـاء » البطل فجأة ، كما بدا فى المقـدمة فجأة . إن صفـة « المراوغة » فى الخاتمة تكمل صفة المطاردة فى المقدمة . وبين الفكرتين ـ المطاردة والمراوغة ـ نوع من « الحركة » تمنح المقامات رابطة كلية . إن الراوى يعلن اختفاء البطل ، ثـم يعلن فى المقامة التالية ظهوره من جديد . وهذا النوع من الرابطة ، التى تعتمـد على «الحركة» داخل المقامات ، يحيل المقامات كلها إلى عمـل متماسك ، أشبـه بالعمـل الروائى ، الـذى يعتمد على الفقـرات المستقلة كما سنذكر بعد قليل .

أما الموضـوع ، فهو يتنوع مـن مقامة إلى مقامـة . فقد يدور حـول الوعظ ، ثـم ينتقل فى مقامة أخرى إلى الفناء . وقد يدور حول الجد ، ثم ينتقل إلى الهزل ، أو حول الشعر ثم ينتقل إلى النثر . . وهكذا ، مما يمنح المقامات تنـوعا ، ويجعل القارئ (أو المستمع) دائما مبهورا ، ينتقل من فنن إلى فنن ، ومن جديد إلى جديد .

إن المقدمة والخاتمة ، هما مـن صنع الراوى (الحارث بن همام) . أما الموضـوع ، فهو من صنع البطـل (أبو زيد السروجى) . والمؤلـف (الحريرى) يوزع الأدوار ، ويحيل المقـامة إلى أجزاء ، يشترك فى صنعها أكثر مـن واحد : الراوى ، باعتباره رمزا للجمهـور ، وتمثيلا للعقل الجمعى . والبطل ، باعتباره رمزا للفنان ، وتعبيرا عن الحرية الشخصية . ويكون هم المؤلف هو تنمية الحركة بين الـراوى والبطل ، والتى تتمثل فى المطاردة التى تتضمنهـا المقدمة ، وفى المراوغة التـى تتضمنها الخاتمة ، ثـم فى المراوغة بين المقـدمة والخاتمة . فعنـد انتهاء الخاتمة فى المقامـة الأولى . تبدأ المقدمة فى المقـامة التاليـة ، لتعلن تواصـل عملية المطاردة ، ثم تـأتى عملية المراوغة ، ثم تأتى عملية المطاردة من جـديد ، ثم المراوغة ، ثم المطاردة ، حتى تصل المقامات إلى نهايتها ، وقد تاب البطل عن لعبته ، وكف الراوى عن متابعته .

إن فكرة التنوع فى موضـوع المقامات ، هى فكرة متعمدة عند الحريـرى ، وقد نص عليها فى خطبة الكتاب وسماها بـالإحماض . وهى كلمة مشتقة لغويا مـن إحماض الإبل ، بمعنى أنها ترعـى الخُلَّة وهـى حلو المرعى فتملّـه . فتنتقل إلى الحَمْـض تأكل منـه ، فيذهـب عنها الملل ، وتنشط للرعى .

ويشرح الشريشى فكرة الإحماض عند الحريرى ، فيقول : «أراد بـه تنقله فى المقامات من حكـاية فـائقة ، إلى قضيـة رائقة ، ومـن موعظـة تبكى إلى ملهيـة تسلى . وفى ذلك تنشيـط وترغيب فى قراءتها ، ونفى للملل والكسل عن قارئها» (١) .

---

(١) شرح المقامات : ١/ ٣٢.

إن الحريرى لايشذ فى ذلك عن منهج الكتب القديمة ، التى عمدت إلى فكرة الإحماض ، أى التنوع ، ونصّت عليه فى مقدماتها . وهو موضوع ، سبق أن شرحناه فى الكتاب الثانى من « الوسطية العربية » ، وفى فصل الأدب ، وبينا أهدافه بالتفصيل ، وهى أهداف تعود فى جملتها إلى فكرة طرد الملل عن القارئ ، والانتقال به من حالة إلى حالة ، حتى يتجدد نشاطه ، ويتنامى لديه الحس الجمالى ، وهو يتنقل من نص إلى نص ، ومن مرعى إلى آخر .

وقد خضع هذا المنهج لما سميته فى الكتاب السابق بالوحدة التركيبية ، وهى وحدة تتكون من فقرات عديدة ، كل فقرة تختلف عن الأخرى ، ولكنها جميعا فى تعاون تام ومسبق .

وكل هذا يقربنا إلى فكرة جديدة ، وهى دراسة المقامات كشكل روائى ، بمعنى أننا لانكتفى ، كما يفعل الباحثون ، بدراسة كل مقامة على حدة ، ولكن نحاول أن ندرس المقامات كشكل روائى ، يخضع لرابطة كلية ، تضم المقامات فى سلك واحد .

وقد يبدو هذا غريبا لدى القارئ ، الذى اعتاد من الباحثين أن يتحدثوا عن كل مقامة كوحدة مستقلة ، دون أن يلتفتوا إلى الرابطة الكلية التى تجمع بين كل هذه الوحدات . وربما كانت هذه هى المرة الأولى ، التى يجابه فيها القارئ بحديث عن المقامات كشكل روائى . وقد يحتمل حديثا عن كل مقامة كشكل للقصة القصيرة ، ولكنه أبدا لن يحتمل حديثا عن المقامات كشكل روائى .

وسر الغرابة ، يكمن فى أن القارئ ، قد ارتبط مفهوم الرواية عنده بهذا الشكل الوافد من أوروبا ، وهو شكل يخضع كثيرا لمعنى الوحدة العضوية ، التى تقوم على الترابط المنطقى للأحداث ، وعلى احتدام الصراع ، وافتراض بؤرة مركزية ، تستقطب كل الأحداث ، وكل ما على الكاتب أن يحبك العقدة ، ويثير التشويق ، ويخفى أوراقه ، ويتلاعب بأعصاب القارئ ، حتى تأتى النهاية الموحية .

ارتبط الشكل الروائى ، فى ذهب القارئ العربى ، بهذا الشكل الأوروبى ، وخيل إليه أن كل ماهو خارج عن هذا الشكل لايحسب فى عداد الفن . وقد تأصلت هذه الفكرة عنده بما أثاره بعض الباحثين من أن الجنس السامى لايعرف القصة ، ولايستطيع اختراع الأحداث ، ولاخلق المواقف ، وكل مايستطيعه هو نوع من الخيال البيانى ، يقوم على فكرة التشابه الظاهرى بين الأشياء [1] .

وهى أفكار يجب أن تتغير. فالشكل الأوروبى ، ليس هو الشكل الوحيد ، والحضارة

---

(١) راجع قصص العشاق النثرية : ص ١٩ .

الأوروبية ليست هى الحضارة الوحيدة. وقد بدأ العالم يسير فى الطريق الذى تتعدد فيه أنواع الثقافة، وأشكال الحضارة.

والمقامات، كشكل روائى، تخضع لمنهج التأليف الأدبى ، الذى يقوم على مفهوم الوحدة التركيبية، ويهدف إلى تحريك مشاعر القارئ من خلال فكرة التنوع والتنقل من الحلو (الخُلَّة)، إلى المر (الحَمْض)، ثم العودة إلى الحلو، ثم إلى المر، فى حركة مطردة ومستمرة.

المقامات تخضع، إذن ، لهذا المفهوم السائد قبلها فى كتب الأدب، ولكنها فى الوقت نفسه قد أثرت على أنواع عديدة بعدها ، مما يدل على مكانها الأصيل فى سلسلة متكاملة، وأنها قد احتلت دورها المناسب بين ما قبلها وما بعدها.

ومن أهم الأشكال التى أثرت فيها المقامات، السير الشعبية التى احتذت حذوها فى هذا الشكل الروائى. وستجد، بعد قليل، أن شخصية المكدى، المتمثلة فى البطل المراوغ، قد انتقلت إلى السير الشعبية، وأن صورة على الزيبق قريبة فى معالمها إلى حد كبير من صورة السروجى، وسنجد أيضا أن شكل المقامة الذى يقوم على المقدمة والموضوع والخاتمة، قد ألقى بظلاله على رحلات السندباد السبع ؛ فكل رحلة، تتكون أيضا من مقدمة وموضوع وخاتمة، ومجموع الرحلات تقدم شكلا روائيا يخضع لمفهوم الوحدة التركيبية.

كل مقامة تمثل وحدة مستقلة، ولكن الوحدات تتراص بعضها بجانب بعض ، لتقدم لنا فى النهاية شكلا كليا، يمكن أن نشبهه بالعقد الفريد، أو بعياب اليمانى، أو الحبل الذى يضم مجموعة من العصى، أو الخيط الذى يجمع بين مجموعة من الزهور، أو غير ذلك من تشبيهات ، أوردناها فى الكتاب الثانى من « الوسطية العربية» ، ونحن نحاول أن نحدد مفهوم الوحدة التركيبية. إن مثل هذه التشبيهات يمكن أن تفيدنا هنا، ونحن نتحدث عن العلاقة بين المقامات كمجموع، وهى علاقة تقوم على استقلالية كل مقامة، وعلى وحدة تجمع فى النهاية بين هذه الأشياء. ويمكن أن نعود هنا، مرة أخرى، إلى التعبير الذى سبق أن طرحناه ونحن نتحدث عن الوسطية فى الكتاب الأول. وقلنا إنها تعنى «تجاور الأشياء مع تمايزها». إن الشيئين داخل الوسطية العربية يحتفظان باستقلاليتهما، ويظهر دور الوسطية فى التوازن بينهما، دون محاولة لإلغائهما من أجل البحث عن نقطة وسطى، تضيع فيها خصائص الطرفين، كما هو الحال فى وسطية أرسطو.

وتأتى المقامتان الأخيرتان، فتكشفان عن أن هذه المقامات كانت تخضع لوحدة كلية فى ذهن الحريرى. فإحداهما، وهى المقامة التاسعة والأربعون، يصل فيها البطل إلى نهايته، ويقدم وصاياه لابنه، وهو يرث المهنة بعده. أما الأخرى ، وهى المقامة الخمسون ، فإن البطل فيها يكف عن مغامراته، ويعلن توبة صادقة تنهى حياة المراوغة والمطاردة. وكل

هذا، يدل على أن المقامات تخضع لخطة عامـة، تصل إلى نهايتها، ليست بطريقة منطقية. تترتب فيهـا المقامات ترتيبـا عقليا عن طريـق الضرورة والاحتمال، كما تقول قواعد الـوحدة العضوية، ولكن عن طريق وحدة تركيبيـة، تتجاور فيها المقامات وتتراكم، حتى تصل إلى النهاية.

ـ٦ـ

وقد أدرك الحكيـم ذلك الشكـل التراثى، فجاءت روايتـه «أشعب» تطبيقـا عمليا لهذا الشكل.

إن روايته ليست عن «أشعب» كفرد معروف، لـه أخباره التاريخية والأدبية، المتناثرة بين صفحات الكتب القديمـة، ولكنها عن أشعب «نموذجا» لذلـك البطل المراوغ، الذى قد نجده فى المقامات، أوفى أدب الكدية، أو فى نوادر البخلاء. أو حتى فى السير الشعبية.

يحدد الحكيـم فى المقدمـة مصـادر روايته فى أربعـة مـؤلفين هـم: الجاحظ، الخطيـب البغدادى، ابن عبد ربه، بديع الزمان الهمذانى.

وقد حاول الباحث شهير أحمد دكرورى، فى رسالته للماجستير عن «أشعب بين التراث والمعاصرة»[1]، أن يعيد كـل خبر عن الحكيم إلى مصـدره الأصلى، وذكر أنه قـد وقع أسيرا للجاحظ فى البخلاء، وللخطيب البغدادى فى التطفيل، ولابـن عبد ربه فى العقد الفريد، ولبديع الزمان الهمذانى فى المقامات.

أما بخلاء الجاحظ، فإن ماعرضه الحكيـم (ص١٩) عن علاقة أشعب بالكندى، فقد أورده الجاحظ (ص١١٦) فى بخلائه. وما ذكره الحكيم عن سير أشعب أمام الكندى وهو يأكل (ص٢٤)، فقـد أورده الجاحظ (ص٤٠) فى بخلائه، مع تغيير يسير مـن الحكيم فى اسم البخيل،... إلخ.

أما العقد الفريد، فإن ما عرضـه الحكيم (ص٢٠) عن طمع أشعب أمام الجارية، فقد ورد (٧/ ٦٨) فى العقـد الفريـد. ونـادرة أشعب مـع الوالى، التـى ذكـرها الحكيـم (ص ١٢٥). وردت فى العقد الفـريد (٨/ ١٣٤) مع تغيير يسير فى النهـاية. ونـادرة أشعب فى السـوق، التى وردت عـن الحكيم (١٤٩)، وردت فى العقـد الفـريد تبعهـا (٨/ ١٣٦). ويستمر شهير فى صفحة كاملة يستعرض النوادر التى اقتبسها الحكيم من العقد الفريد.

أما مقامات بديع الزمان الهمذانى، فقد نقل منها الحكيم (ص ١٠٦)، المقامة المصرية عن الحلاق وفضوله. وأيضا ماذكره الحكيـم (ص ٦٨) عن الإمام الذى يطيل فى صلاته،

---

(١) انظر الباب الأخير من الرسالة.

فقد نقله عـن المقامة الاصبهانيـة وماذكره (ص ٩٥) عن صـاحب الحمام والمدلكين ، فقد نقله عن المقامة الحلوانية . . . إلخ .

أما كتاب « التطفيـل » ، فقد نقل منه الحكيم (ص ١٣٦) فى روايته مـاذكره الخطيب فى كتـابه (١٥٩) عـن تعليهات أشعب فى مهنـة التطفيل . ونقـل الحكيم أيضـا (ص ١٣٧) ماذكره الخطيـب(ص ١٦٠) ، عن نصائح أشعب لتلاميـذه . ونقل أيضا (ص ١٤١) فى روايته ، ماذكره الخطيب فى كتابه (ص ١٦٢) عن تخير أصناف الأطعمة . . . إلخ .

ولم يكتف شهير بـالوقوف عنـد المؤلفين الأربعة ، الذين أشـار إليهم الحكيم فى مقـدمة روايته ، أو بالوقوف عند مؤلفاتهم الأربعة التى لم يشر يشهد إليها الحكيم صراحة ، ولا حتى بإرجاع كل خبر عنـد الحكيم إلى موضعه من المصدر بذكر الصفحـة والجزء ـ لم يكتف بكل هذا ، بـل اكتشف مصادر أخـر عند الحكيم ، غير هذه المصـادر الأربعة مثل : ديـوان أبى نواس ، وفن الفكاهة للدكتـور أحمد الحوفى ، والأغانى ، ونهاية الأرب ، والمستطرف ، ورحلة الشعر للـدكتور مصطفـى الشكعة ، والشعـر الغنائى للـدكتور شـوقى ضيـف ، ومصارع العشـاق ، وغير ذلـك مـن مصـادر ومراجـع ، ينـص عليهـا شهير ، ويشير إلى الصفحـة والجزء .

بل يخيـل لى أن هناك مصـادر أخر للحكيم ، لم يلتفـت إليها الباحـث ، وأعنى بـذلك مصادره الشعبية ، وخاصة ألف ليلة وليلة ، التـى تحدث عنها الكيم بإعجاب فى أكثر من مناسبـة ، واستوحـاها مبكرا فى مسرحيتـه « شهر زاد » (عـام ١٩٣٤) . إن ماذكـره الحكيم (ص١٨٢) فى روايته يستحضر جـو ألف ليلـة وليلة ، فـإن الخليفة يغضـب على أشعب ، ويأمـر السياف بأن يضرب عنقه ، ولكـن الوزير يـرق قلبه نحو أشعب ، ويـدور بينه وبين الخليفة الحوار الآتى :

« ـ يا أمير المؤمنين ، هب لى ذنبه ، وأحدثك حديثـا عجبا عن نفسى ، وقد عشت مثله حياة التطفيل ليلة .

فاشتاق أمير المؤمنين إلى الحديث ، وقال :

ـ قل ، أيها الوزير . » .

وقص الوزير قصته ، وعفا الخليفة بعْدهـا عن أشعب ، وأمر له بمائدة شهية . حقا ، إن قصة الوزير قد وردت ـ فيما يذكر البـاحـث ـ فى العقد الفريد (٦/ ٢٠٩) ، وفى نهاية الأرب (٣/ ٣٣١) ، ولكن الإطـار الذى وردت به عند الحكيـم ، يستحضر جو ألف ليلـة وليلة . فالوزير يقـوم بدور شهر زاد ، وينجح فى دفع السلطان إلى العفو ، وتأتـى هذه القصة عند

الحكيم متداخلة مع قصص أخر، مما يذكر بفكرة « الاستطراد» والتداخل فى ألف ليلة وليلة .

ويخيل لى من متابعة الباحث خلال فصوله الكثيرة، أنه يهدف إلى نتيجتين : أولاهما : أن الحكيم قد تمسك بالماضى . وبالوقوع تحت أسر المصادر القديمة . وضرب الباحث أمثلة على ذلك فى فصل « اللغة»، يتضح منها أن الحكيم كان ينقل النادرة بألفاظها وتراكيبها . كما فعل مع المقامة المضرية ، أو البغدادية ، أو الاصبهانية، أو الحلوانية، أو الموصلية، أو الأسدية. . . إلخ .

إن الحكيم ليس عاجزا عن الرؤية المعاصرة، وقد حقق ذلك بالفعل فى مسرحياته الذهنية، وفى رواياته الاجتماعية، ولكنه يقف فى « أشعب» عند الماضى، دون محاولة التأويل الفلسفى، أو الرؤية المعاصرة، أو القضايا الواقعية. يفعل ذلك لسبب فنى ، وهو أنه يريد أن يحيى الشكل التراثى للرواية العربية. وهو شكل تلقائى نظرى، يبتعد عن المماحكات العقلية ، أو الاستغراق الذهنى، ويكون همه الأول أن يبعث المتعة الجمالية عند القارئ وأن ينتقل به من فنن إلى فنن، ومن محسّن بديعى إلى آخر، كماسنذكر بعد قليل .

والنتيجة الثانية ، التى نستخلصها خلال فصول شهير تتلخص فى أن الباحث يرصد على الحكيم أنه لم يلتزم بأخبار أشعب، بل جمع أخبارا أخر حدثت لغير أشعب، وفى عصر غير عصر أشعب ، ثم نسبها إلى أشعب. وضرب الباحث أمثلة كثيرة على ذلك نجتزئ منها الآتى :

(أ) ذكر الحكيم أن رشأ كانت صديقة لاشعب، والحقيقة أن رشأ كانت فى عصر أبى نواس، وقد تغزل فيها فى ديوانه. وجمع الحكيم بين أشعب والكندى، والحقيقة تذكر أن الكندى كان فى عصر متأخر، إذ عاش بين القرنين الثانى والثالث الهجريين . وجمع أيضا بين بنان وأشعب، والحقيقة أن بنان عاش فى زمن متأخر بعد أشعب . ويذكر صاحب كتاب « التطفيل» أن بنانا كان فى سنة ٣٠٠هـ (انظر الفصل الأول ، من الباب الثالث ، من رسالة شهير) .

(ب) ويذكر الباحث أن الكثير من الشعر الذى أورده الحكيم على لسان أشعب، لم يكن لأشعب ، فبعضه ورد فى ديوان أبى نواس . وبعضه ورد فى العقد الفريد، منسوبا لدعبل ، أو لإبراهيم بن النظام، أو لأحد الأعراب. وبعضه ورد فى كتاب « التطفيل» منسوبا لطفيليين مجهولين. (المرجع السابق) .

(جـ) ويذكر أيضا أن الكثير من الأحداث التاريخية ، التى نسبها الحكيم لأشعب، لم تكن فى الحقيقة له. وقد يرجع الباحث إلى المصادر القديمة، ليثبت أن هذه الأحداث لم

تكن لأشعب، وإنما كانت لآخرين، واستشهد على ذلك بكتاب البخلاء، والعقد الفريد، ومقامات الهمذانى .

(د) وفى فصل « اللغة» من الباب نفسه ، يذكر الباحث أن لغة الحكيم كانت تبتعد، فى بعض الأحيان، عن واقع لغة نوادر أشعب . إن هذه النوادر جاءت فى لغة سهلة تلقائية بعيدة عن التصنع والتألق، بينما نجد أسلوب الحكيم فى بعض الأحيان يميل إلى السجع والزخارف البيانية ، والمحسنات البديعية . ويضرب مثلا على ذلك من قول الحكيم فى روايته، على لسان أشعب للنخاس : « أبغى حمارا ليس بالصغير المحتقر، ولا بالكبير المشتهر. إذا خلا له الطريق تدفق، وإذا كثر الزحام ترفق. وإن أقللت علفه صبر، وإن أكثرته شكر. وإذا ركبته هام، وإن ركبه غيرى نام» . أو من قول الحكيم، على لسان أشعب ينصح زملاء مهنته: « افتحوا أفواهكم، وأقيموا أعناقكم، وأجيدوا اللف، وأشرعوا الأكف، ولاتمضغوا مضغ المتعللين، الشباع المتخمين، واذكروا سوء المنقلب، وخيبة المضطرب» .

ثم يعلق شهير على هذين النموذجين بأنهما يبتعدان عن لغة أشعب، ويقتربان من لغة المقامات ، التى يميل مؤلفها إلى الصنعة والمفردات الصعبة، أو من لغة الكندى، وهو ، قبل أن يكون بخيلا ، فيلسوف له لغته القوية، ومفرداته المتحولة .

(هـ) وفى فصول « المكان» و«الزمان» و«صورة المجتمع»، فى الباب نفسه من رسالة شهير يحوم المؤلف حول فكرة، مؤداها : أن الحكيم لم يلتزم بتجديد معالم المكان ، ولا بصورة العصر الأموى الذى عاش فيه أشعب، ولا بالقضايا الخاصة بهذا العصر، فقد كان يستخدم عبارات مجملة ، مثل : « والى مكة»، أو «والى المدينة»، بل أحيانا كان يستخدم تعبيرات خاطئة، فيشير إلى « قصر الخليفة ببغداد»، والخليفة فى ذلك العصر كان يقيم فى دمشق، وليس فى بغداد. إن ماذكره شهير تحت عنوان « زمن القصة» فى قوله : « إذا كان أشعب عاش عصر الدولة الأموية بأكمله، بداية من عصر عثمان بن عفان، ونهاية بقيام الدولة العباسية، فإن الحكيم لم يحدد للقصة تلك الفترة، ولم يربطها بالعصر الأموى، بل لم يجعل لها عصرا محددا، وتركها مبهمة العصر» (ص١ ٣٤) . إن قول شهير هذا يلخص المحور الرئيس الذى يدور حوله الباب كله، المتعلق بتوظيف شخصية أشعب عند الحكيم .

إن الصرامة الأكاديمية التى انطلق منها الباحث، هى التى دفعته إلى هذه المعاناة فى التحقيق والتدقيق. ولو أنه انطلق من زاوية أخرى لاختلف الوضع تماما، إن الحكيم لم يكتب عن أشعب كشخصية تاريخية، لها مكانها وزمانها وعصرها ، ولكنه كتب عنها كنموذج لبطل النادرة العربية . كان يهمه، بالدرجة الأولى، أن يعبر عن جوهر هذه النادرة

فى صورة روايـة عربيـة ، فكان يتخطـى الأمكنة والأزمنـة ، وتحديد البيئـة والعصر، ويلتقط بحاستـه الفنية المرهفة مـايراه يخدم هدفـه الفنى . إن النادرة، كنـا درة ، لاتنتمى إلى عصر ولامكان . إنها كالأدب الشعبى الذى يتخطى الأمكنة والأزمنة وحتى المؤلف . إن ما ورد من اسماء تعرض لنـا النوادر، إنما هـى مجرد رواة ، يعبرون عن لسـان الدهـر ، الذى حمل هـذه النوادر من جيل إلى جيل .

إن هذا المنطلق، يجعل المسـألة تختلف من الضد إلى الضد، ويجعـل ما رآه الباحث غير مناسـب يجعله عين المناسب ، ويحولـه إلى حساسية تقع على البـؤرة الفنية حتى لو كـانت تتمرد على التاريخ والمكان .

لقد أفضـت ، من قبل ، فى استعراض نتـائج شهير، لأصل إلى فكرة أسـاسية تهدف إلى نقد الجنس الأدبـى من خلال مصطلحاته الخاصـة ، دون أن تفرض عليه وصايـة أكاديمية كما فعل شهير ، ودون أن نحاكمه بلغة جنس آخر كما فعل النساج .

وفى ضوء هـذا ، نستطيع أن نمتحن وسـائل الحكيم ، فنراهـا تخدم هدفه الفنـى ، ونرى الموقـف قد تغير تمامـا إلى حـد الضـد . إن شهير يسوق نمـوذجين مـن لغـة الحكيم التـى لاتتناسب مع واقـع أشعب ، ولكن هذين النموذجين يعبران خير تعبير عـن النادرة العربية التى اهتمت بالتنقيـح اللغوى . إن النموذجين يعكسان فنية اللغة فى النـادرة العربية ، وفى المقامات العربية التـى تعتبر المصدر الرئيس عند الحكيم . والتى تأثـر بها أكثر من المصادر الأخر، كما سنذكر بعد قليل .

وأيضا التعبيرات التى استخـدمها الحكيم ، ورآها شهير غير مناسبـة ، لم تأت إلا بسبب حس فنى . إن الحكيم حين يختـار اسم « رشأ» دون غيرها ، إنما يريد أن يستثير كـل ما عند القارئ من دلالات قد تربت عنده ، وهويطالع أشعار أبى نواس عن هذه الجارية . إن هذه « الخلفية» تلعـب دورها فى تنميـة شخصية رشـأ ، ومن ثـم فى إبراز العـلاقة مـع أشعب . والحكيم حين يختـار اسم الكنـدى دون غيره ، إنما يريـد أن يسحب مـع هذا الاختيـار كل «خلفية» عن الصراع بين البخيل كطرف ، وبين الطفيلى كطرف آخر، وهو صراع اهتمت به الكتب العربية لأنه يمثل بؤرة جذب . ومن هنـا كان توفيق الحكيم فى تصوير تلك البؤرة ، خـلال أشعب كطـرف وعلم فى ميـدان الطفيلية ، والكنـدى كطرف آخـر وعلم فى ميـدان البخل . والحكيـم حين يشير إلى قصر الخليفة فى بغداد ، لم يفعـل ذلك عن جهـل ، ولكنه يريد أن يستثير ثقـافة القارئ التى تـربت خلال متابعـة أخبار الخلفاء فى بغداد ، وخـاصة أخبار هارون الـرشيد فى ألف ليلة وليلة . إن هذه الأخبـار تثير وجدان القارئ ، وتستحضر عنده أجواء ألف ليلـة وليلة ، وتنقل من الأعاجيب ، مالا يمكن أن يصـل إليه الحكيم ، لو أنه التزم بالدقة التاريخية ، والصرامة الأكاديمية .

أشـار الحكيم فى المقـدمة إلى أربعـة مصـادر، استقى منهـا روايته وسعـى شهير، بصبر ودأب، إلى اكتشـاف مصـادر كثيرة ومتنـوعـة. واستطعـت أن أشير إلى السير الشعبيـة، وخاصة ألف ليلة وليلة التى استقى منهـا الحكيم بعض الملامح الفنية للرواية التراثية، وعلى الرغم مـن كل هذه المصادر، ففى ظنـى أن المصدر الأساس لروايـة الحكيـم، إنما يعود إلى المقـامات، سـواء مقامـات الهمـذانى أو مقـامـات الحريرى، لأنهما يشتركـان فى بنية فنيـة متماثلة.

كل فصل عند الحكيـم ينتهى نهاية مستقلة، وكأنه المقامة عنـد الهمذانى أو الحريرى. وتتوالى الفصول دون أن تخضع لترتيب منطقى، ولخط تاريخى تطورى، ولكنها جميعا تعرض نادرة من النوادر، التى دارت حول أشعب أو الكندى أو رشأ، وجميعها تتميز بخفة الروح، وبمتعة الحس، وبتلك اللغة التى تقوم على المفارقات اللفظية.

وحين أقول «جميعها»، فإننى أبحث عن الصلـة بين الفصول، والتى حولت النوادر إلى رواية على طـريقة الشكل التراثـى، وهى صلة ينص عليهـا الحكيم فى المقدمـة، ويقول فى أسلوبه الذى يتناسب مع النادرة من ناحية، ومع اهتمامات الطفيليين من ناحية أخرى:

«لقـد استحضرت اللحم والبقـل والتـوابـل والأبازيـز مـن حـوانيت أربعـة مشـاهير: الجاحظ، وابن عبـد ربه، والخطيب البغدادى، وبديـع الزمان. فقد بهرنـى حقا، وأسال لعابى، مـا وجدته لديهم من اللـذائذ والطرائف. غير أنى وجدت كل هـذا مبعثرا ضمن بضاعتهم، وملقى على غير نظام... فملأت يدى مما تخيرت من أطايبها، وذهبت به إلى «مطبخ» فنى، حيـث مزجته وخلطته، وجعلـت منه عجينة واحدة، صنعـت منها هذه القصة المتصلة الفصول».

إن هذه الطبخة أو العجينة، كل متصل، يؤكد فكـرة الرواية التى تخضع لها المقامات، وهى فكـرة تحيل المقامات إلى شـىء مشترك، على الرغم مـن أنها مجموعة عناصر، ممتـزجة ومختلطة: فيها اللحم والبقل، وفيها الملح والسكر على حد تعبيرات الحكيم.

إن رواية الحكيـم تخضع للملامـح الفنية للمقامـات. فالبطـل واحد، قد يكـون اسمه أشعب، أو السَّروجى، ولكنه يظل شيئا واحدًا يمنح الرواية وحدة تقوم على وحدة البطل. والراوى واحـد، قد يكون اسمـه الحارث بن همام، أو بنان، ولكنـه يظل هنا وهنـاك شيئا واحدا، يمنح الرواية وحدة تقوم على وحدة الراوى.

والنهاية، أيضا، تتشابه بين المقامات ورواية أشعب، فالمقامات تنتهى وقد تاب البطل عن مغامراته، وأخذ يقدم نصائحه لولى عهده، وأشعب ينتهى به الأمر إلى أن يعتزل المهنة، ويوصى بها من بعده لصديقه بنان، ويقدم له نصائحه التى لا تختلف عن نصائح الطفيلى فى كتب التراث.

إن الحكيم لايريد أن يجمع أخبارا حول أشعب ، ولايريد أن يبعث شخصية تاريخية حية ماثلة ، كما فعل باكثير فى « سلامة القس » ، أو كما فعل السحار فى « أميرة قرطبة » ، أو كما فعل الجارم فى « مرح الوليد » .

والحكيم لايريد أن يكتب رواية تاريخية بمفهومها التقليدى الوارد إلينا من والترسكوت وإسكندر ديماس وغيرهما ، والتى تحركها عقدة تتنامى ، وصداع يحتدم ، ثم تعكس رؤية معاصرة ، تنطلق من الماضى ، وتحيله إلى « ديكور » يخدم الحاضر.

ولكن الحكيم يتجاوز كل ذلك ، ليحيى شكلا عربيا متناثرًا بين الكتب هو شكل النادرة العربية ، بمحتواها الساخر ، وشكلها الفطرى .

ولكن هذا لايعنى أن الحكيم قد وقف عند الماضى لايتجاوزه ، كما قيل ، لأن الحكيم أضفى على هذا الشكل من خبرته الفنية الحديثة . .

ولكنها خبرة لم تفرض على النادرة ، ولم تحورها عن مسارها ، ولم تشوهها برؤى فلسفية متعسفة . إنه احتفظ بجوهر النادرة ، وأضاف إليها ما يخدم هذا الجوهر .

ولنضرب مثلا على ذلك من واقع الخبر، الذى ورد فى العقد الفريد (٧/ ٦٨) ، ومفاده أن أشعب طمع فى خاتم لقينة ، فقالت : إنه من ذهب ، وأخاف أن تذهب . خذ هذا العود ، لعلك تعود . فقد احتفظ الحكيم بجوهر هذا الخبر الساخر بطريقة خفيفة ، ولكن صاغة على النحو الآتى (ص ٢٠) :

« ثم أسرع فاستوى قائما ، ومد إليها يده مودعا ؛ فمدت إليه يدا صغيرة ، كأنها حلية من عاج . فلمح فى أصبعها خاتما ، فاستبقى يدها فى يده ، وقال فى صوت يسيل رقة ولطفا :

ـ سيدتى ، جعلت فداك ، ناولينى هذا الخاتم الذى فى أصبعك لأذكرك به !

فسحبت يدها فى رفق ، وتضاحكت فى خبث ، وقالت :

ـ إنه ذهب ، وأخاف أن تذهب !

ثم أسرعت ، فالتقطت من الأرض عودا يابسا ، سقط من شجرة قرب النافذة ، وأعطته إياه قائلة :

ـ ولكن ، خذ هذا العود لعلك تعود ! » .

فالخبر، فى المصادر التراثية قصير، ولكنه يحمل من جوهر النادرة الكثير. وقد احتفظ الحكيم بهذا الجوهر، وراح يبرزه خلال تكنيك معاصر، يعتمد على مثول الموقف ، وتوظيف الحوار، واستغلال الطبيعة كخلفية ، وتصوير للحركة النفسية الماثلة فى ذلك الشد والجذب

بين أشعب الـذى يلوّن فى صـوته، والجاريـة التى تتضـاحك فى خبـث، وأخيرا فى الإيحاء بالمشاعر الداخليـة من خلال لغة تلجأ إلى صور معبرة ، من مثل « كـأنها حلية من عاج»، أو «فاستبقى يدها فى يده»، أو «ثم أسرعت، فالتقطت من الأرض عودا يابسا».

وذلك هـو الوجه المعـاصر فى رواية الحكيم . إنه وجـه يخدم الشكل العربـى، ولا يجرفه بعيدا عن مساره ، ولايثقله برؤية معاصرة، تذهب بسذاجته وخصوصيته .

-٧-

مازلنا نحوم حول الحمى دون أن نقتحمه، وندور حـول الشكل التراثى للرواية العربية، دون أن نحدد خصائصه الفنية .

عرفنا آنفا البنية الفنية لكل مقامة على حدة ، وحددناها فى المطاردة والمراوغة والمراوحة، ونقتحم الآن البنية الفنية للمقـامات كطبخة فنية، تقوم على مفهوم الشكـل التراثى للرواية العربية، ونحدها فى :

١ ـ المتعة الحسية .   ٢ ـ وظيفة الشعر.

٣ ـ عدم الإيغال .   ٤ ـ الرؤية الحضارية .

هناك ميـل جاد مـن مقامات الحريـرى، نحو إرضاء المتعـة الحسية . فقـد انتشرت فيها التشبيهات التـى تقوم على صـور من الخارج، تـأتى عـن طريـق الحواس، (انظر المقـامة الثـانية). ووصـف الغلمان (المقامـة العاشرة). والحديـث عـن الثياب (المقـامة الخامسـة والعشرون). ووصف الأطعمـة والأشربة (المقـامة التـاسعة والعشرون). ووصـف الجوارى والفتيات (المقـامة الخامسـة والثلاثـون). وغير ذلك، مما يضفى على المقـامات جـوا من البهجة، يرضـى الأذن والبصر والذوق وسائر الحواس البشرية . هو فى ذلـك لايسف ويقع فى منطقـة إرضاء الغـرائز ، ولكنه لايـزال يعمل داخـل دائرة الفـن، ومن خـلال لوحـات وصفية، لاتغـوص فى العمق، ولا تسرف فى الذهن، ولكنهـا تقف عند معالم تتحـول فيها اللوحة إلى نموذج للجمال الحسى .

ويمكن ، مـن باب المثال، أن نشير إلى المقـامة الثانية (الحلـوانية) . فهى تـدور حول «التشبيهات» التى يبرع فيها البطـل، ويتفوق على الآخرين . وهى، سواء كـانت للحريرى أو لغيره، تخلق جوا من البهجة يمتع الحواس، من مثل :

كـــأنما تَبسِـــم عـــن لـــؤلـــؤ منضّـــــد أو بَـــــرَد أو أقـــــاح

نفســى الفــداء لثغــر رق مبَسمُــه وزانــه شَنَب نــاهيــك مـن شَــنَب

يفترّ عـــن لـؤلـؤ رطـب وعــن بـرَد وعـن أقـاح وعـن طلـع وعـن حَبَب

فـأمطـرت لـؤلؤا مـن نـرجس وسقـت وردا وعضَّـــت على العُنَّـاب بـــالبَرَد

ســألتهـا حين زارت نضوَ بـرقعهـا الــ ــقانى وإيـداعَ سمعــىْ أطيبَ الخبر

فـزحــزحـت شقِقـا غشىّ سَنـا قمـر وسـاقطـت لـؤلـؤا مـــن خـاتَـم عَطِـر

وأقبلـت يـــوم جــد البين فى حُلــل سُــود تَعَــضُ بَنـان النــادمِ الحَصِر

فـــلاح ليـــل على صبـــح أقلّهما عضــن وضرَّســت البلَّــور بـالــدرَر

فهذه الأبيات، ومثلها كثير، تلتقط مفرداتها من العالم الخارجى ، الذى يدرك بالحواس، من مثـل : اللؤلـؤ والبرد والأقاح والنرجـس والعناب والثغر والـورد والشفق والقمـر والليل والصبح والبلـور والدر. وتتـداخل هذه المفـردات، لتقدم لـوحات تعتبر نمـوذجا للجمال الذى يدرك بـالحس، ويشبع طاقة العـربى، ولايجعل عنده حـاجة إلى « الفن التشكيلى»، لكى يجسـد هذا العـالم ، فيكفيه الـوصف والتشبيـه عن طـريق الكلمـة ، التى تترك مجالا فسيحا للتخيل ومشاركة القارئ. إنها لاتحبس الإبـداع فى قالب مجمد، سواء كان حجرا أو طينا ، بل تشير إليه، وتثير القارئ لكى يكمل معالم الصورة من خياله.

ويلعب اللون دورا كبيرا فى إثارة المتعة الحسية، وخلـق جو البهجة. إن الأبيات السابقة تكـون حزمـة من الأبيـض والأسود والأصفـر والعنابـى والنرجسـى والأحمر القانـى والأحمر الوردى، وغير ذلك من ألوان تتراقص وتتداخل، وتعبر عن سيمفونية من البهجة والمتعة.

إن تجاور الأبيض والأسود يعبر عن ميل أصيل عند العربى. وقد سبق فى فصل «الفن» مـن الكتاب الثـانى ، أن تحدثـت عن هـذا الميل، وكشفـت عن فلسفتـه، فى الأدب وفى الخط، وضربت أمثلة من التشبيهات التى يؤثرها العربى، لأنها تعبر عن وجدان يجمع بين الأبيض والأسود. فالأسود وحده لايجذبه ، والأبيض وحده لايجذبه، ولكن تجاورهما يعكس نفساعربية تجمع بين الشيئين معاً.

ويعبر الحريرى عـن هذا الميل فى صورة تجاور الأبيض والأسود: فتـاته الجميلة نـاصعة البياض تبدو فى ثيـابها السوداء، وكأنها الصبح يختلـط مع الليل، مما يثير وجـدان المستمع الذى يؤثر فى ثقافته وفنه ذلك التجاور بين الأبيض والأسود.

إن الناقد يستطيع أن يستخلص قيمة نقدية من فكرة « المتعةالحسية». يلتقى من خلالها

مع الاتجاهات المعاصرة لنقاد الحداثة. فالكاتبة الأمريكية سوزان سونتاج تؤلف كتابا تحت عنوان: anti interpretation « ضد التفسيرية»، تدعو فيه إلى مقاومة تفسير العمل الأدبى والبحث عن قيمة خارجه. وهى تدين المصطلحات القديمة التى تفترض شيئا خارجيا يمثل نموذجا يقاس العمل الأدبى بمدى قدرته على الاقتراب منه. إن هذه المصطلحات إنما جاءت لسيطرة نظرية « المحاكاة» منذ العصر الإغريقى، والتى تهتم فى عمومها بمحاكاة النموذج الذى تقدمه الطبيعة أمام الفنان. وهى تدعو إلى مصطلحات جديدة تقوم على فكرة « يقظة الحواس»، وتكون قيمة العمل ليست فى المحاكاة، ولكن بأن تجعل العين تبصر أكثر، والأذن تسمع أكثر، وتدفع سائر الحواس إلى اليقظة والمتعة دون الوقوع تحت أسر المضمون. وهى تطرح فى هذا الصدد مصطلح « الشفافية»، الذى يعنى أن العمل الأدبى شفاف، ظاهره كباطنه، لايتضمن أبعادا خارجة. وتأتى أهمية النقد فى وصف تلك الشفافية، وفى دفع القارئ لكى يستمتع ببريقه ولمعانه، ويقف عند سطحه الخلاب، دون أن يصرف همه إلى الغوص فى الأعماق.

حقا، توجد فى المقامات عناصر جدية، كالوعظ والزهد والمبكيات، ولكنها جميعا تأتى تحت عباءة « المتعة والتسلية» ، إن البطل يتعرض لها بهذا المنطق. ففى المقامة الحادية والأربعين، يقف السّروجى واعظا، ويلقى الكثير من المبكيات. ولكن المؤلف لايترك القارئ يعيش كثيرا فى هذا الجو، فما أسرع أن يكشف عن الحقيقة. فالبطل هنا يخفف من هذا الجو، ويكشف عن نفسه، وإنه لم يذكر هذه المبكيات إلا من أجل التأثير فى الناس، وترقيق قلوبهم، ثم يدعو راويه إلى المتعة وانتهاب اللذة، وينشد فى ذلك شعرا، يقول فيه:

اصرِف بصِرف الراح عنك الأذى   وروح القلب ولاتكتئبْ

وقل لمن لامك فيما به   تدفعُ عنك الهمَّ ! قَدْك اتئبْ

فالمسائل الجادة تختفى تحت نقمة المتعة والتسلية من ناحية، ثم إنها تأتى من باب الإحماض، الذى تحدث عنه المؤلف فى المقدمة. وهو يعنى بذلك التنويع، والتنقل إلى حالة أخرى، تجدد نشاط القارئ ، وتدفع عنه الملالة.

إن عنصر « اللعب»، هو العنصر الذى يسيطر على المقامات، وهو عنصر يعيه المؤلف منذ البداية وحتى النهاية. فهو فى صدر خطبته يصف صنيعة بالهذَر، وهو فى خاتمة مقاماته يصفه بأنه من سَقط المتاع، ويستغفر الله من « أباطيل اللغو، وأضاليل اللهو»، ثم ينشد بيتا من الشعر، يرجو فيه أن يخرج من عمله سالما، لاله ولا عليه، ويقول :

على أننى راض بأن أحمل الهوى   وأخلُص منه لا علىّ ولا ليا

وفى ضوء عنصر اللعب والتسلية ، تصحح النظرة نحو ما ورد فى المقامات من مسائل عقلية ذهنية ، كمدح الدينار وذمه (المقامة / ٣)، أو إيراد كلمات معجمة وأخرى غير معجمة (المقامة/ ٦)، أوفك الألغاز (المقامة/ ١٥)، أو الرسالة التى تقرأ من أولها بوجه ومن آخرها بوجه (المقامة / ١٧)، أو الموازنة بين الإنشاء والحساب (المقامة / ٢٢)، أو مسائل فى النحو تتضمن بعض الألغاز (المقامة / ٢٤)، أو الخطبة التى تأتى خالية من الإعجام (المقامة/ ٢٨)، أو غير ذلك من مسائل لاتأتى ، رغم مظهرها العقلى ، إلا من باب المتعة والتسلية ، وتشبه لعبة الشطرنج ، أو الكلمات المتقاطعة التى ترد كل يوم فى أعمدة الصحافة ، وفى صفحة التسلية وبرامج الإذاعة والتليفزيون ودور السينما والمسارح .

فهناك اتفاق مسبق ، يعقده المؤلف مع القارئ ، على أن كل مايرد فى المقامات هو مجرد لعبة . تتصف بالهذر وباللهو على حد وصفه ، وتثير المتعة والتسلية ، فلا يحمل شيئا منها محمل الجد ، ولا يكدر نفسه ، خاصة وأن باب التوبة مفتوح . وتأتى المقامة الأخيرة ، لتعلن توبة البطل ، بل إنه يتحول إلى نوع من المحدَّثين ، وهو مقام صوفى شفاف ، يلقى فيه إلى الشخص بأمور غيبية . إنه لم يعاقب على هذره بالطرد من رحمة الله ، ولم ينته نهاية مأساوية تثير الخوف والإشفاق ، شأن المسرحيات الإغريقية والكلاسيكية ؛ فهو كان يقوم بلعبة ليس غير، وهو كان يبغى إسعاد الناس ، بإثارة المتعة والتسلية . وقد كافأه الله ، وتقبل توبته ، وانتهى من دوره ، وودع لعبته . وقال لراويه فى نهاية المقامات : « هذا فراقٌ بينى وبينك » . وهى الجملة نفسها التى قالها العبد الصالح ، وهو يودع صاحبه ـ موسى عليه السلام ـ بعد أن كشف له عن الكثير من أسرار الحكمة الإلهية ، التى لاتقف عند حد الظاهر ، ولا تنظر النظرة المحدودة . إن الحكمة الإلهية قد تجعل المخطئ فى النهاية يصبح من المحدَّثين المقرَّبين . فالمهم هو حسن النية ، أو على حد تعبير المؤلف فى الأسطر الأخيرة من خطبة كتابه :

« ثم إذا كانت الأعمال بالنيات ، وبها انعقاد الأمور الدِّينيَّات ، فأى جرح على من أنشأ ملحا للتنبيه لا للتمويه؟!» .

ـ ٨ ـ

وتكشف الأبيات السابقة فى المقامة الثانية عن وظيفة الشعر فى المقامات ، وفى التراث القصصى بوجه عام . إنه لايأتى مجرد بطاقة وزخرفة ، أو مجرد اختصار للحكمة واعتصار للعظة ، ولايحد من انطلاق الحركة ، ولا يوقف شعور القارئ . إن الأمر يكون كذلك ، لو اقتبسنا مصطلحاتنا النقدية من الفن القصصى بمعناه التقليدى الأوروبى ، والذى يقوم

على عنصر المحاكاة وإيهام القارئ بمعايشة العالم المتخيل ، ويقف ضد كل تضمينات ، سواء كانت بيتا من الشعر أو حكمة أو معلومة لغوية ، ويراها تكسر من مثول هذا العالم .

ولكننا نستخلص مصطلحاتنا من واقع الجنس الأدبى ، الذى نحن بصدده ، وهو ذلك الشكل التراثى للقصة العربية ، وهو شكل يؤثر الشعر، لا لأنه يعبر عن حب العربى للشعر فحسب ، بل لأنه أيضا يؤدى وظيفة فنية ، إن الأبيات السابقة لاتأتى عرضا كمجرد تضمين أو مهارة أدبية بل هى تعكس جوهر هذه المقامة ، التى تتضمن تشبيهات رائعة يستحسنها الذوق العربى .

إن الشعر فى مقامات الحريرى ، يؤدى هذه الوظيفة الفنية ، ويصبح أساسا ، لتجسيد أشياء لايستطيع الأسلوب أن يجسدها ، وخاصة إذا كانت هذه الأشياء ، تضرب إلى الحالة النفسية إبّان توترها . إن البطل الذى يبدو ساخرا فكها حلو الروح ، يخفى داخله عذابا نفسيا ، لاتستطيع الجملة النثرية أن تعكسه . إنه فى المقامة الثالثة يأنس إلى راويه ، وبينهما علاقة خاصة ، فيفضفض عن نفسه ، ويكشف عن دخيلته فى أبيات شعرية ، يقول فيها .

تعارجْتُ لارغبة فى العِرَج   ولكن لأقرع باب الفرجْ
وألقى حبلى على غاربى   وأسلك مسلك من قد مَرَج
فإن لا منى القدم قلت اعذروا   فليس على أعرجٍ من حَرَج

إن مثل هذه الأبيات تجسد الحالة الشعورية ، بطريقة لاتستطيعها الجملة النثرية . وعن طريق مثل هذه الأبيات ، كان البطل يؤثر فى مستمعيه الذين يتعاطفون معه على الرغم من مجونياته ، ويؤثر أيضا فى راويه ، فيتغير حاله ، ويلتمس له العذر .

وهذه الوسيلة التى تستخدم الإمكانات الشعرية داخل الفن القصصى ، قد ظهرت بصورة أخرى فى العصر الحديث ، حين اقتربت الأجناس الأدبية من بعضها ، وأخذت تكسر الحدود الصارمة التى يفرضها النقاد ، ويستعير جنس أدبى ، نثرى مثلا ، من جنس آخر شعرى مثلا ، مايخدمه وينمى مواقفه الأدبية . وقد تتبعت هذه الظاهرة فى كتابى «الأدب وتجربة العبث» ، الذى صدر سنة ١٩٧٣ ، فقلت[١]:

« إن القصة الحديثة قد اقتربت كثيرا من جوهر الشعر ، فلقد أدرك الفنان بفطرته أن الكلمات الشعرية ، هى أكثر الأدوات اللغوية اقترابا من المنابع الداخلية . إن اللحظة الشعرية صلوات والتحام بالطبيعة ، وعود إلى الفطرة والبراءة الأولى ، واندهاش أمام المرئيات» .

---

(١) الأدب وتجربة العبث ص ٢٢ .

ومن هنا كثر استخدام هذه الوسيلة الشعرية، داخل قصة « تيار الشعور» ، لأن القاص قد أدرك بفطرته أن اللحظة الشعرية الفنية هى التى تستطيع أن تكثف اللحظة الشعرية وتوحى بها .

ولكنّ هناك فرقا فى نقطة البدء بين قصة تستخدم الإمكانات الشعرية، وبين قصيدة شعرية محضة . إن القصة ، فى الحالة الأولى ، تستغل اللحظة الشعرية ، كإمكانية تندمج داخل إمكانات أخر من الفن القصصى . وقد غاب هذا الفرق عند كتاب القصة المصرية المعاصرة، فضاعت معالم فنهم، فليس مايكتبون قصة أو شعرًا، ولكنه خليط متنافر من القصة والشعر معاً، وقد نبهت إلى هذا الاختلاط فى الكتاب السابق، وضربت أمثلة من واقع تيار الشعور عند القاص الأوروبى، وهو ذلك التيار الذى استقى منه القاص المصرى نماذجه، وقلت :

« وإذا بنا نجد ـ والأمثلة كثيرة أيضا ـ أنفسنا أمام قصص ، تحاول أن تقترب من الشعر، فإذا بها كالغراب الذى أراد أن يقلد الطاووس . إنها نسيت نقطة البدء عند كل ، فليست هى قصيدة لأنها حرمت من أهم خصائص القصيدة، وهو البناء الموسيقى خلال تراكيب الألفاظ . وليست هى قصة، لأنها حرمت من تصميم القصة، الذى لايقف عند وسيلة واحدة . . . إننى أقرأ رواية « العجوز والبحر »، فيخيل لى أننى إزاء قصيدة تتغنى بوحدة الوجود، وبنضال الإنسان ضد الطبيعة، وضد نفسه قبل كل شىء، داخل إطار شعرى أسيان . لكنها ليست قصيدة، لأنه بقى للعمل الروائى نقطة بدئه وتفسيره الخاص . وإننى أقرأ فصل « كونتين» فى رواية فوكنر، فيخيل لى أننى إزاء قصيدة صوفية، ممتلئة بالإشارات الإلهية، وبألسنة النيران وباللهب المقدس . ولكن يبقى، بعد ذلك أن هذا الفصل مندغم فى بناء تام، وأن الجو الشعرى فى هذا الفصل وسيلة فنية ، هى بنت الموقف وتتبدل مع تبدل الموقف»[1] .

والأمر كذلك بالنسبة للقصة العربية القديمة . فالشعر فيها يرد فى موضعه المناسب ليؤدى وظيفة فنية، ويتحول عندئذ إلى لبنة فى البناء الفنى، ولكنه أيضا قد يفقد فنيته، ويتحول فى بعض القصص إلى عقبة كئود توقف الحركة النفسية، وتصيبها بالبرود وقد شرحت كل ذلك بالتفصيل، فى كتاب « قصص العشاق النثرية» وضربت مثلا على الشعر الذى يفقد وظيفته، من واقع قصة عفراء التى رددتها الكتب القديمة، ومن هذا الموقف الفاتر حين نعى إليها خبر وفاة عروة؛ فقد انطلقت تنشد شعرا باردا، لايصل إلى حد الموقف، ولايجسد الشعور، ويكتفى بأوصاف خارجية، وألفاظ منظومة ، فتقول :

---

(١) المرجع السابق : ص ٢٥ .

فـإن كـان حقـا مـا تقـولـون فـاعلمـوا	بـأن قـد نعيتـم بـدر كـل ظـلام
فـلا لقـى القينـان بعـدك لـذة	ولا رجعـوا مـن غيبـة بسـلام
ولا وضعـت أنثـى تمامـا بمثلـه	ولا فـرحـت مـن بعـده بغـلام
ولا، لابلغتـم حيـث وجهتـم لـه	ونغصتـم لـذات كـل طعـام

فالأبيـات هنا باردة لاتنـاسب الموقف ، وقلت عنهـا فى الكتاب المذكور : «لاتتنـاسب هذه الأبيـات ، التى تكتفى بـالوصف الخارجـى وبالنقمـة على الناس، مع الموقـف الذى وضعت فيه القصة البطلة ، إذ تحكى أن عفـراء انسلت إلى القبر، فانكبت عليه ، فما راعهـم إلا صـوتها ، فلما سمعوه بـادروا إليهـا ، فإذا هـى ممدودة على القبر، قـد خـرجت نفسهـا ، فدفنوها إلى جنبه»[1].

إن الشعر، سـواء كان قصيـدة موزونـة أو جملة شعـرية ، هـو مجرد وسيلة فنيـة ، تقاس قيمته بـالسياق . أمـا الأحكام العامـة التى تـرفض الشعـر لمجرد أنه شعـر لايتناسـب مع القصة ، فهـى من إمـلاء النقاد الذيـن لايملكون الموهبـة ، ويتحولـون أسرى مصطلحات وقراءات ، لاينصرفون عنها ، بل لايستطيعون أن يتجاوزوها حتى لو أرادوا .

(١) قصص العشاق النثرية ص ٢٣٣ .

وتلقى مقتضيات اللعبة بظلالها على المقامات. وتنعكس على ما أسميناه بعدم الإيغال. فالمقامات تهدف إلى اللعب الذى يثير المتعة والتسلية. وكل شىء يتم بروح رياضية؛ فلا انتقام ولا إيغال. إن الراوى يلعب مع البطل، وإن المؤلف يلعب مع القارئ، ويخرجان فى نهاية اللعبة متصافحين. وقد تَنِدُّ فى أحدهما هفوة، فهما يستغفران الله فى النهاية، وكل منهما يطلب الصفح من رفيقه.

ومن هنا، نجد كل شىء، فى المقامات يتم على السطح، وبخفه ودون إيغال فلا سخرية تصل إلى حد التجريح، ولا فكاهة تصل إلى حد الإيلام، ولا صراع يصل إلى حد التعقيد، ولاخيال يوغل فى الغرائب، ولا فكر يصل إلى حد التجريد. حتى النهاية، تأتى، فى غالب الأحيان سعيدة تبارك الأوضاع، ويتصالح فيها الطرفان.

فى خطبة الكتاب، يدعو الحريرى الله. أن يجنبه الغواية فى الرواية، والسفاهة فى الفُكاهة، « حتى نأمن حصائد الألسنة، ونُكفى غوائل الزخرفة، فلا نرد مورد مأثمة، ولا نقف موقف مندمة، ولا نُرهق بتبعة ولامعتبة، ولا نُلجأ إلى معذرة عن بادرة».

وقد حقق الحريرى منهجه؛ فجاءت فكاهته بعيدة عن الفحش والسفاهة. إنها خفيفة لينة، تثير الضحك، وتجعل الشاذ يعود إلى الحظيرة دون عناد ولا كراهية. إنها لاتجرح، لأنها تهدف إلى المتعة. تدل على خفة روح البطل، دون أن يكون ذلك على حساب الضحية حتى لو كانت الفكاهة جنسية، فإنها تكتفى بالإشارة دون فحشاء، وتجعل الآخرين يضحكون، دون خدش للحياء (انظر المقامة/ ٢٠). ولاتهدف الفكاهة إلى مجرد الإيذاء، والتشفى من الآخر إنها تهدف إلى إثارة البهجة وغالبا ماتنتهى بتصالح الطرفين، فلا ساخر ولامسخور منه، ولكنها لحظة المتعة، لايكدرها فحش ولا ألم.

والصراع، أيضا لايحتد. إن التوتر بين البطل والراوى، هو من نوع التوتر بين المحبين، لايستغنى أحدهما عن الآخر. إن الراوى يلوم البطل على مكائده (المقامة/ ٢)، ولكنه معجب به، يصفه بأنه أعجوبة الزمان (المقامة/ ١٨)، ويجدُّ فى أثره (المقامة/ ١٣)، متعلقا ناهدان (المقامة/ ١) يفرح بلقيته (المقامة/ ٣٣). ويتمنى طول السفر معه (المقامة/ ٣٢). إنه، باختصار، قدره الذى ينجم له على غير انتظار، ويتشوف لملاقاته على الرغم من روغامه، وغالبا ماتنتهى كل مقامة بلحظة صلح ومكاشفة بين البطل والراوى. وتستمر عملية التوتر ثم المصالحة، حتى تأتى المقامات إلى نهايتها، وقد تاب البطل ووصل إلى المقام الصوفى. أما الراوى، فإن دموعه تتصاعد حزنا على فراق صاحبه، أو كما يسميه العبد الصالح.

حتى الصراع النفسى لايحتدم ، فكثيرا مايتستر البطل وراء أشعاره ، يشكو فيها سوء حاله ، ويندب حظه ، فهو الرجل الكريم ، الذى ينتمى إلى آل ساسان ، تقتر عليه الدنيا ، وتلجئه إلى الخديعة والتلون ، حتى يستطيع أن يعيش . ولكن البطل لايمتد خارج لحظته الشعرية ، ولايمد بأصبع الاتهام إلى أحد ، ولايشير إلى السبب . إن ليس متمردا يسخر من الأوضاع ، ولكنه يرضى بنصيبه ، ويتصالح مع قدره وينال مايريد بعد أن يضحك الآخرين حتى الأعداء الذين يؤثرون أنفسهم بكل شىء يضحكهم ويأخذ منهم مايريد ، دون إيذاء ولاتجريح .

وتأتى النهاية منطقية مع المنهج . إنها عادة نهاية سعيدة ، تمسح كل الأوجاع ، وتغطى على كل توتر. قد يضيق الراوى بالبطل ، وقد تتأزم العلاقة بينهما ، ولكن كل ذلك إلى حين ، فالنهاية السعيدة تزيل كل كدر، وتذكر الجميع بلحظة المتعة ، فلاينسون أنهم فى لعبة سوف تنتهى بالتبات والنبات . حقا ، إن المقامات تنتهى وقد دمعت عينا الراوية ، ولكن ذلك لم يكن بسبب مأساة أو كدر، بل إنه يبكى حزنا لفراق صاحبه ، وأسفا على فقدان تلك اللحظات ، التى كان يستمتع بها معه ، ويعيش مغامراته ، وتنقله من مقامة إلى مقامة ، ومن جد إلى هزل ، ومن شعر إلى نثر.

إن كل ذلك منتزع من واقع المقامات كجنس أدبى ، له محاكمته الخاصة ، وهى محاكمة ستكون فى آخر الأمر لصالحه لأنها متنبهة لحركته الخاصة ، وليست محاكمة بسبب ذنب لم يقترفه ، أو فعل من الآخرين .

أقول ذلك ، لأن كثيرا من النقاد يرون فى مثل هذه الملامح شيئا من بذور لم تكتمل ، ومن نضج لم يأخذ طريقه ، ومن موقف ساذج ، لايتنبه لواقع اجتماعى ، ولا لتحليل نفسى .

وقد وقعت فى شىء شبيه بذلك فى بداية حياتى ، وأنا أكتب رسالة الماجستير عن «قصص العشاق النثرية» ؛ فأدنت هذه الملامح فى القصص العربى ، واتهمتها بالسذاجة ، فقلت عن الصراع :

« ولكن القاص لم يستغل مواقف الصراع فى هذه القصص استغلالا كافيا ، ولم يتخذها نقطة انطلاق تنمى القصة ، وتزيد من حيويتها ، بل اكتفى بتسجيل هذا الصراع بإشارات مقتضبة ، وتلميحات خفيفة . فقد يمر بموقف ثرى ، وتحس أن الأمر يحتاج إلى إفاضة وشرح ، ولكن القاص يمربه مرورا سريعا مسجلا له فى جملة أو جملتين . وقد نشاهد دمعة تترقرق فى عين عاشق ، وتحس أنها تخفى وراءها تيارا عنيفا ، ولكن القاص يسجل الدمعة ثم يمر، لايبطن ما تحتها ، ولايعنيه ماوراءها[1].

(١) قصص العشاق النثرية : ص ٢٧٦ .

وقلت عن الفكاهـة بأنها « ساذجة لاتعبر عن غرض فى ذهـن القاص ، أو تكشف عن نفسية لشخصيـة من الشخصيات ، وإنما هـى عبارة عن حركـة بهلوانية ، أو منظـر يخالف المألوف ، أو مطب يقع فيه شخص . وهذا النوع من الفكـاهة قد يرضى العامة ، ولكنه من الناحية الفنية أردأ الوسائل ، وأقلها نضجا وثراء»[1] .

وقلت عن النهاية : « ولم يكن ذلك المعنى الفنى للنهـاية ، مفهوما لدى القاص القديم بوجه عـام ، فقد كان يترك قصته تسير بدون رقـابة ، حتى تحط رحالها وتختار النهـاية التى ترضى السامعين ، أو يرتضيها لها السامعون[2]» .

قلت كـل ذلك فى حينـه ، وأنا أنطلق مـن مفاهيم القصـة الأوروبية الحديثـة ، ولم أجد حينها تنبيها من مشرف ، أو نقدا من قارئ ، أو تعليقا من طالب ، فقد كان الجميع سكرى تلك اللحظة التى تعيش كـل شىء بالمثال الذى يقدمه الرجـل المتحضر، المتلفع فى غلالته وراء البحار.

- ١٠ -

إن عدم الايغال ، ومخاطبة الفطـرة ، ومعاملة الأشياء بتسامح ، إن كـل ذلك لم يكن من فراغ ، بل كان وراءه رؤية فكرية ، ولا أقول « فلسفية » ، لأن الفلسفة إيغال وتجريد وتشقيق وتعقيد ، لايتناسب مع هذا الجو الذى يتم كل شىء فيه على السطح ودون إيغال .

والرؤية هنا متسقـة مع رؤية الحضارة العربية الإسلاميـة . وقد سبق لى فى الكتاب الأول من « الوسطية العـربية » ، وفى فصل « الحكمة العربية أو الأصالـة » بنوع خاص أن شرحت مفهوم الحكمة ، وبينت أنها شىء يختلف عـن الفلسفة ، وأنها نتاج حضارة تعطى للمطلق حيزا واسعا فى مصير الإنسـان . إن الكون لايحكمه عقل فقط ، ولا قوانين المنطـق وحدها ، ولكنه مسير بعنـاية الله ، وهى عنايـة لم تخلق شيئا عبثـا ، ولها حكمتها التى هى أوسـع من حكمة الإنسان المحدودة . وهذه الحكمة شىء غير الظاهر، والمستقبل بيد الله ، والمخطئ ، أو من يظنونه كذالك ، قد تكون نهايته نهاية صـالحة ، والأمر بالعكس .

إن الإسلام يعترف بـالضعف البشرى ، ويتصـالح معـه ، والطريـق مفتوح لمن يـريد أن يرجع . هو لايـريد أن يجعل الخوف من الذنب شيئا يعـرقل المسيرة ، ويسىء إلى الحياة . إن

(١) المرجع السابق : ص ٢٢٨ .

(٢) المرجع السابق : ص ٣١٧ .

الإنسان هو خليفة الله فى الأرض، وهو مطالب بأن يعمرها ، وبأن ينصر الخير على الشر، قدر مايستطيع ، وقد رفع الله عنه الإصر والأغلال وسائر المعوقات ، وجعله يسعى فى الأرض بلا عقد ولا إحساس بالذنب. وقد تند منه هفوات ، فباب التوبة مفتوح ، ومن أسماء الله الحسنى الغفور الرحيم. ومن هنا ، فإن مقام التوبة هو المقام الأعلى عند أهل السنة والوسط ، لأنه مقام يشعر بالضعف البشرى ، وبحاجة المخلوق الدائمة إلى المطلق. يعبده ويستعينه ويطلب منه الهداية ، كما تدل على ذلك فاتحة الكتاب. إن المقام ليس مقام الفناء فى الله ، كما يقول أصحاب وحدة الوجود من أهل التصوف. فهذا المقام لايعترف بالضعف البشرى ، ويضفى على الإنسان صفات الألوهية ، ويسقط عنه التكاليف ، وينتهى به فى النهاية إلى اعتزال الإنسان وصغائره ، لكى يتلفع فى وحدته وأفكاره السماوية. أما مقام التوبة ، فهو ينطلق من الإنسان ومن الإحساس بالضعف البشرى ، وهو يدل على عنصر خير، يعبر عن الطبيعة الوسطى للإنسان؛ فهو ليس شريرا كالأبالسة يصر على الذنب ولايتراجع عنه ، وهو ليس ـ أيضا ـ خيرا صافيا يعيش فى مقام الألوهية ، أو على أقل تقدير، فى مقام الملائكة ، خير محض لايعى دور الشر الذى قد يسفك الدماء ، ويهلك الحرث والنسل كما تشير إلى ذلك سورة البقرة. إنه فى مقام بشرى يجمع بين الخير والشر ، ولكنه يعمل جاهدا على نصرة الخير. إن توبته تدل على أنه يغلب الصراع لصالح الخير، ويسعى فى الأرض لكى يطهر نفسه ، ويطهر الآخرين.

وينتهى الأمر بالسروجى فى المقامة الأخيرة بالتوبة. حقا ، شرق الرجل وغرب كما ذكر فى أشعاره ، ولكنه كان يحمل نفسا صافية ، لاتحقد على البخلاء ، ولاتتمرد على قضاء الله. إنه فقط يتماجن من أجل أن يعيش ، وهو فى تماجنه لايسف ولايجرح. إنها مغامرات يبغى بها المتعة ، وتثير جوا من البهجة وخفة الروح. ومن هنا ، كانت توبته صادقة ينشد الأشعار، ويلقى المواعظ ، وهى كلها تحمل حرارة العاطفة ، والرجاء من الله أن يعفو عن هفواته.

وقد تحول فى نهاية الأمر إلى نوع من المحدَّثين ، الذين يصفهم الشارح بأنهم « المكاشفون من الزهاد الذين يحدثون بالغيوب»[1]. ويورد الراوى من العبارات ما توحى بأن السروجى قد أصبح مثل العبد الصالح ، وهو العبد الذى وردت قصته فى سورة الكهف ، وقد أوتى العلم اللدنى ، الذى يتجاوز الظاهر والرؤية المحدودة.

ـ ١١ ـ

وهنا ، نجد الحكيم مرة أخرى ، يتنبه بحساسية الفنان إلى هذه الملامح الفنية للمقامات ، وهى المصدر الأساس لروايته كما قلت.

(١) شرح مقامات الحريرى للشريشى ، ٥ / ٣٧٥.

فرواية الحكيم تميل إلى المتعة الحسية ، وحديث الأكل والشرب ، ووصف الجوارى ومجالس الغناء والأشعار التى تتوارد خلال ذلك ، كلها تهدف إلى جانب المتعة .

ويأتى الأسلوب ، وكأنه طبق شهى . إنه أسلوب ملىء بالمحسنات البديعية ، وبالزخارف التى ترضى الأذن ، وكأنها « الصناجات » فى مجالس هارون الرشيد .

إن الناظر إلى عناوين فصوله ، يدرك جانب المتعة وإرضاء الحس ، فبعضها يتوارد على النحو الآتى :

أشعب وجاريته رشأ ـ أشعب والكندى والبخيل ـ أشعب وبنان ـ أشعب فى الحمام ـ حيلة شيطانية ـ فى العرس ـ ضيف ثقيل ـ محتال ظريف ، وغير ذلك من عناوين تتوارد ، وتوحى بهذا الجو الظريف .

وكل شىء فى الرواية يتم على السطح ودون إيغال ، فلا تضمينات فلسفية أو اجتماعية ، ولا تأويلات عصرية . كل شىء يتم بخفة ، منذ البداية ، وحتى النهاية .

الرواية ، تبدأ على النحو الآتى :

« انتصف النهار ، وصاح مؤذن الظهر ، لا من مسجد ذلك الحى من أحياء « المدينة » ، ولكن من بطن أشعب » .

والرواية ، تنتهى على النحو الآتى :

« وأسرع إلى يد أمير المؤمنين ، فاختطفها اختطاف الجائع للرغيف ، ورفعها إلى فمه ، وأشبعها لثما وتقبيلا » .

إن كلا من البداية والنهاية ، تحتوى على مسحة خفيفة من الفكاهة . وقد تبدو هذه الفكاهة بمنطق النظرة العصرية ، فكاهة لفظية ، تقوم على المفارقات اللغوية ، ولكنها مناسبة لمنطق النادرة العربية ، ولأسلوب المقامات ، الذى يعتمد إلى حد كبير على التلاعب اللفظى ، وتتناثر بعض المفردات والصور فى الأسطر الأخيرة ، فتوحى بمضمون الرواية ، وتساعد على رسم شخصية أشعب .

إن كل ما أضافه الحكيم إلى الشكل التراثى ، يتمثل فى عنصر الحوار ، ووصف الطبيعة ، وتمثيل الموقف ، وغير ذلك من عناصر أفادها من إنجازات المسرح الحديث .

إن هذه العناصر الحديثة تكاد تكون معدومة فى المقامات . فلا وصف للطبيعة إلا فى حالات نادرة ، وبطريقة غير مقصودة . والحوار قليل من نوع مانتعامل به فى حياتنا اليومية ، دون أن يكون موظفا توظيفا فنيا . وتمثيل الموقف شىء لاتهتم به المقامات .

ولكن الحكيم يجعل هذه العناصر المستحدثة تندمج فى طبيعة الشكل التراثى . فهى تتم بخفة ، ودون إيغال أو إسراف ، وتأتى فى حينها وبقلة دون أن تطغى على الجو العام للنادرة العربية .

فقط عنصر الرؤية الحضارية ، يختفى فى رواية الحكيم ، التى تتحول إلى مجونيات حول الأكل والشرب ، وإلى متع وتسلية حول الغناء والشعر . وتختفى فيها كل خلفية حضارية ، وكأنها فى أرض لها ثقافتها التى تعطى للمنجاذر قدرا كبيرًا ، فى تشكيل مصائر البشر .

إن المقارنة بين صورة أشعب وصورة السروجى ، توضح الفرق بين المقامات وبين رواية الحكيم .

فأشعب ، شخصية نهمة أكولة ، يقف عند المتع الحسية ، ولايحمل ثقافة تراثية من واقع عصره .

أما السروجى ، فهو شخصية معقدة ، قد يبدو فى الظاهر ساذجا لايعرف شيئا ، ولكنه عند الأزمات ، يتصرف بذكاء يثير الإعجاب . هو يجيد الفقه ورواية الشعر ومعرفة الألغاز ، ويجيد الخطب والقصص والمواعظ . يتلون مع المواقف . يبدو عليه أحيانا اللامبالاة ، ويحس بقدر كبير من الغربة ، وينشد الأشعار حول الحنين ، يشكو فيها الدهر وسوء الحال . وهو ، من أجل هذه الأبعاد المتعددة ينال احترام الجميع ، يحبونه ، ويتعلقون به ، ولا يملون من سخريته . ولكن كل ذلك يتم بخفة . ودون أن يقع فى دائرة التفلسف . فاللامبالاة عند السروجى ، لا تصل إلى حد مانراه عند كتاب العبث . والغربة ، لاتصل إلى المفهوم الفلسفى عند كتاب الوجودية . فكل شىء يتم دون إيغال ، ولايطغى على المسحة العامة فى المقامات .

إن عنصر الرؤية الحضارية ، يختفى فى رواية الحكيم ، لأنه اكتفى بالتقليد الخارجى ، وتحولت لعبته إلى مكعبات مرصوصة وفارغة .

نحن لانطالبه بشىء ذهنى حاد ، كما نراه فى مسرحياته ، ولا نطالبه برؤية عصرية ، كما يتمنى البعض . ولكن نطالبه برؤية حضارية ، تلعب كخلفية للأحداث ، وتوحى بالمسار العام لحضارته . وهذا مانراه مثلا عند ألفريد فرج فى روايته « أيام وليالى السندباد » ، مما سنتعرض له بالتفصيل فى فصل « الشكل الشعبى » .

-١٢-

يصنف بعض الباحثين التراث القصصى عند العرب إلى خانات عديدة ، مثل : القصص الفلسفى ، والقصص الدينى ، وأدب الرحلات والمقامات ، وقصص البخلاء ، والظرفاء ، والعشاق ، والنَّوْكَى ، والطفيليين .

قد تكـون هذه التصنيفـات مفيدة للجانـب التعليمى ، ولكنهـا غير واقعية . فـإن هذه القصـص تتداخـل ، ولا يمكن فصـل بعضها عـن بعـض إلا من بـاب التبسيط المخـل . فالمقامات مثلا يمكن أن تندرج فى أدب الرحلاب ، فالسروجى رجل رحالة من الطراز الأول ينجم فجـأة من حيـث لا يشعر الراوى . قـد يظهر فى البحر، أو فى جـزيرة ، أو فى أمـاكن متبـاعدة . إن أسماء الأمكنـة التـى تـردد فى عناويـن المقـامات ، كـالمقـامـة الحلوانيـة ، أو البصرية ، أو السكنـدرية ، لاتشير إلى بيئية جغـرافية ، ولكنها تشير إلى صفـة الرحالـة عند السروجى ، الذى لايستقر فى مكان ، حتى نراه فى خراسان . إنه يشرق ويغرب ، كما يشير إلى ذلك فى شعره ، وفى المقـامة الأخيرة التى يلخص فيها تطـور حياته . إنه كالنحلـة المحمومة التى تثير « العجيبة والغريبة » التى يتميز بها أدب الرحلات .

والمقامات أيضا ممتلئةبالنماذج البشرية ، التـى نراها فى القصص الأخر . ففيها البخيل ، والطفيلى ، والمنـافق ، والظـالم ، والطماع ، والأحمق ، والعـاشـق ، والزاهـد . إنها تحوى الجد والهزل ، كما قال الحريرى فى مقدمته .

وربما كان أفضل من هذا التصنيف التعليمى ، أن نـرصد ملمحا فنيا ، أو شكلا أدبيا ، أو شخصية مميـزة ، ثم نتـابع الملامـح الفنية لكـل ذلك ، مهما تسترت تحت عنـاوين ومهما اتخذت من أسماء .

إن صـورة هـذا البطـل المراوغ ، الـذى يحاول أن يحسّـن مـن وضعـه بكثير مـن الحيـل والأفانين ، التـى ترقق قلوب الآخـرين ، وتعقد بينهم صلـة من نوع ما ، تتغلـب حتى على التناقض الطبقى . إن هـذه الصورة هى التى نراها فى قصص تـراثية كثيرة ، مهما حملت من عناوين وأسماء .

إن صفة المراوغ تمثـل نموذجا بشريًـا ، يحمل مـلامح فنية ، وتشير إلى أبعـاد كثيرة . فهو مـراوغ ، يجيد التمثيـل والتخفى . وهـو مراوغ ، ينتقـل مـن مكان إلى مكـان . وهو مـراوغ كالثعلـب ، يتخلص من مواقـف كثيرة . وهو مراوغ ظـريف يحفظ الشعر والنـادرة واللغز . وهو مراوغ ، يكيد للـوالى وللقاضى . وهو مراوغ ، يخرج على المألوف ، وغير ذلـك من أبعاد تُشكل هذه الشخصية ، وتجعل من السروجى بطلا مميزا ، يتعلق به الآخرون ، ويعرفونه مهما تنكر فى ثياب ، أو تستر تحت ألغاز وخطب ، أو سافر إلى أنحاء بعيدة .

وقـد اهتدت السير الشعبيـة إلى كلمة أكثـر دلالـة ، يمكن أن تحل محل صفـة « المراوغ » وتؤدى معانيهـا ، بل وتزيد ؛ وهى كلمـة « الزيبق » ، وهو وصف أطلـق على «على الزيبق» بطل السيرة الشعبية المعروفـة بهذا العنوان . وقد سمى بهذا الوصف ، لأنه كـالزيبق ينفلت

من اليد، ولا يمكن الإمساك به. إنه شخصية مراوغة يلجأ إلى الكثير من الحيل والأفانين، لكى ينتقم من الظالمين، ولكن بطريقة خفيفة لاتجرح ولاتهدم.

نحن إذن نرى أنفسنا ندلف من حيث لانشعر، من باب المقامات إلى باب السير الشعبية. ولا غرابة فى ذلك، فكلاهما يعودان إلى نبع واحد.

اعتاد الباحثون، أيضا، أن يقسموا الأدب العربى، إلى أدب فصيح وأدب شعبى، وأن يقيموا الحواجز بينهما. فالأدب الشعبى، فى نظر البعض، أدب مبتذل يلجأ إلى اللهجة العامية، وإلى تعبيرات سوقية، والأدب الفصيح، فى نظر البعض الآخر أدب «رسمى» لايعكس وجدان الجماهير، ولايعبر عن طموحاتهم وأحلامهم.

وحقيقة الأمر، أن الحواجز بين الأدب الفصيح والأدب الشعبى، ليست من القوة بحيث نحيلهما إلى خصمين متنافسين. إن جوانب الالتقاء بينهما أكثر من جوانب الافتراق. فالرؤية واحدة، وصورة الشخصية واحدة، والبنية الفنية واحدة.

بل إن الكثير من الأخبار الأدبية، والقصص التى تناثرت فى المصادر المكتوبة باللغة الفصيحة، قد تسللت إلى السير الشعبية، وأصبحت جزءًا من بنيتها الفنية. وقد سبق أن تتبعت فى كتابى «قصص العشاق النثرية» الكثير من هذه القصص التى تسللت إلى السير الشعبية، وذلك لرصد تطورها الفنى. ولنضرب المثال بقصة الفتى الذى ادعى السرقة أمام خالد بن عبد الله القسرى، لكى ينقذ حبيبته من الفضيحة، فإن هذه القصة قد وردت فى مصادر شهيرة، من مثل: ذم الهوى، وأخبار النساء، ثم انتقلت إلى «ألف ليلة وليلة» وأصبحت جزءا من بنيتها الفنية، وخضعت لسياقها الأدبى[1].

إن المقارنة بين صورة السروجى وصورة الزيبق، تدلل كثيرا على جوانب الالتقاء بين الأدب الفصيح والأدب الشعبى. فكلاهما عزيز قوم ذل. وكلاهما يحس بالغبن، إزاء واقع اجتماعى، ينعم فيه الجاهل الأحمق، ويشقى صاحب الموهبة. وكلاهما مراوغ، يحتال من أجل نفسه بالكثير من المغامرات، ولكنه فى مغامراته لايتشفى ولايسعى للانتقام. إنها مغامرات من نوع خفيف، تهدف إلى تعديل «الشاذ»، والعودة به إلى الحظيرة. إن المقامة العاشرة تسخر من الوالى، الذى لايتحكم فى هواه، ويسلبه السروجى ماله، ويترك له رقعة من الشعر، تنصحه بأن يُعدِّل فى سلوكه الشاذ. وصورة السروجى، هنا، أقرب إلى صورة «الزيبق» وهو يسخر من «صلاح الكلبى» رئيس الدرك، ولكنها سخرية خفيفة. فمرة

(١) انظر: قصص العشاق النثرية: ص ٣٢٢.

يضع له الـزجاج فى الطريق، وثـانيا يجرده عاريا، وغير ذلـك من مغامرات، يترك الـزيبق بعدها رقعة ، تفيد الكلبى بأن هذا جـزاء من سرق العجل من صاحبه، وتهدف إلى تعديل سلوكه، وتخليصه من بذور الشر، ودفعه إلى حظيرة الخير .

وإذا كـانت صفـة « المراوغ» فى المقـامات جعلتنـا ، مـن حيـث نشعر أو لانشعـر، فى مواجهـة السير الشعبية، فإن الملامـح الفنية للمقـامات كصورة للشكـل الروائى فى التراث العربى، تدلف بنا من جديد إلى عالم السير الشعبية. وهذا يؤكد ما سبق إن أكدنا عليه بأن عوامل الالتقاء بين الأدبين الفصيح والشعبى، أكثر من عوامل الافتراق.

إنه المقارنة بين مقامات الحريرى ككل ، وبين مغـامرات السندباد، تجعلنا أمام الشكل الروائى بمفهومه التراثى، وهو شكل نلتقى به فى المقامات وفى السير الشعبية، كما التقينا به من قبل فى الكتاب الثانى فى الشعر وفى منهج التـأليف الأدبى، مما يدل على أصالته، وعلى أنه منتزع من « مسوغات» جغرافية وتاريخية، تسمح له بالبقاء والاستمرار.

كتب الحريرى مقامة تحت عنوان « العمانية»، وهى مقـامة تدور وقد ركب القوم البحر، وهاجـت بهم الأمواج، ونزلـوا على جزيرة، وذهبـوا إلى قوم لايعرفـونهم، وشاهدوا عنـدهم عجائب وغرائب، استطاع السروجى بحيله أن يتغلب عليها، فقربه السلطان وأصبح أثيرا عندهم، وغير ذلك ممـا يذكر بمغامرات السندباد فـوق البحار، وعلى أرض الجزر الغريبة، والسندباد يخرج من كل مغامرة غانما، محمولا بالتجربة العميقة والأموال الوفيرة.

والتشابه لايقف عند هذا الحد الخارجى، بـل يتجاوز ذلك إلى الشكل التراثى، سواء فى دلالالته المضمونية، أو رؤاه الفنية.

حكاية السندباد، وردت فى الجزء الثالث من « ألف ليلة وليلة» . وقد بدأت بمقدمة عن الحكايات ككل، وانتهت بمقدمة عامة عن الحكايات ككل أيضا. وبين المقدمة والخاتمة، تـرد سبع حكـايات ويسمـى كل حكـاية بـاسم « السَّفـرة»، أى السفرة الأولى، والسفـرة الثانية، والثالثة، وحتى السفرة الأخيرة.

تبدأ شهر زاد تروى حكايـة السندباد أمام شهريار، ولكنها لاتبدأ روايتهـا بـالحديث عن السندباد ، بطل المغامرات ،ولكنهاتبدأ فتقـدم رجلا فقيرا يعمل حمالا، ويسمى بالسندباد أيضـا، وتصفه الليـالى بأنـه السنـدباد الحمال. أو السنـدبـاد البرى، فى مقابـل السندبـاد البحرى، الذى يقوم بدور البطل الرئيس فى الحكاية .

جلس السنـدباد الحمال بجانـب قصر جميل ، وشاهـد النعيم الـذى يقيم فيه صـاحب القصر، من غلمان وبساتين، وفاكهـة وأطعمة، وغناء وشراب، فحدثته نفسه بـالمقارنة بين

حاله وحال صاحب القصر، وأنشد فى ذلك شعرا قال فيه :

وأصبحت فى تعب زائد	وأمرى عجيب وقد زاد حملى
وغيرى سعيد بلا شقوة	وما حمل الدهر يوما كحملى
يُنعّم فى عيشة دائما	ببسط وعز وشرب وأكل
وكل الخلائق من نطفة	أنا مثل هذا، وهذا كمثلى
ولكن شتان مابيننا	وشتان بين خمر وخل
ولست أقول عليك افتراء	فأنت حكيم حكمت بعدل

تنتهى هذه الأبيات والحمال يعلن أنه لا اعتراض على حكم الله . وهو لم يقدم على هذه الأبيات إلا بعد تردد شديد، وبعد مقدمة طويلة تزيد على سبعة أسطر، بينما الأبيات الشعرية لاتتجاوز سبعة أبيات . والحمال فى هذه المقدمة الطويلة، يستغفر الله من هذه الوسوسة، فيقول :

« سبحانك يارب ياخالق يارازق، ترزق من تشاء بغير حساب . اللهم إنى أستغفرك من جميع الذنوب، وأتوب إليك من العيوب، يارب ، لا اعتراض عليك فى حكمك وقدرتك، فأنت لاتسأل عما تفعل، وأنت على كل شىء قدير. سبحانك تغنى من تشاء، وتفقر من تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، لا إله إلا أنت . ما أعظم شانك، وما أقوى سلطانك، وما أحسن تدبيرك، قد أنعمت على من تشاء من عبادك . . . » .

وتمضى هذه المقدمة الطويلة لتخفف من نبرة التمرد فى شعر الحمّال، ولكن الأمر لايقف عند هذا الحد، فالسندباد يسمع بهذه الأبيات، ويستدعى الحمال، فيسأله عنها، ويعتذر الحمال عن هذه الأبيات ويقول « بالله عليك لاتؤاخذنى ، فإن التعب والمشقة وقلة مافى اليد، تعلم الإنسان قلة الأدب والسفه» .

ويهدئ السندباد من روعه ، ويقربه إليه ، ويريد أن يلقنه درسا حتى لايخدع بالظاهر، ويحكم على الأشياء دون أن يدرك حكمة الله . إن السندباد هنا يتحول إلى معلم، ويأخذ فى قص مغامراته على الحمال، ويقول له :

« ياحمال، اعلم أن لى قصة عجيبة، وسوف أخبرك بجميع ماصار وما جرى لى، من قبل أن أصير فى هذه السعادة، وأجلس فى هذا المكان الذى ترانى فيه . فإنى ما وصلت إلى هذه السعادة، وإلى هذا المكان، إلا بعد تعب شديد، ومشقة عظيمة، وأهوال كثيرة. وكم قاسيت فى الزمن الأول من التعب والنصب. وقد سافرت سبع سفرات، وكل سفرة لها

حكاية تحير الفكر. وكل ذلك بالقضاء والقدر، وليس من المكتوب مفر ولا مهرب» .

وهنا تفسح شهر زاد المكـان، وتدفع بالسندباد إلى المقدمـة، لكى يروى بضمير المتكلم مغامراته . إن الأمر لم يعد يحتاج إلى هذه الطقوس ، التى تحاور بها شهر زاد الملك السعيد، وتجلس فيها دنيا زاد لكى تقوم بدور « التسخين» وإذكاء الموقف . إنها تختفى ولايبدو دورها إلا فى الجملة المحفـوظة، التى تعلن فقـط عن بداية ليلـة جديدة، وهى جملـة « بلغنى أيها الملك السعيد»، وبعدها ينطلق السندباد فى حكـاياته . إن الجو جو إثارة، والقارئ يلهث مبهورا مـع كل حكـاية، وشهر زاد بـذكائهـا القصصى لاتتدخـل ، ولا تفرض حـوارا مع شهريار، أو مـع دنيا زاد. إنها تختفى لتترك السندباد يثير التشـويق ويرفع مـن درجة حرارة القارئ مع كل مغامرة جديدة .

وتتوالى المغامـرات . وعقب كل مغامرة، يـرحب السندباد بصـديقه الحمال، ويعشيه، ويأمر لـه بمائة مثقال ذهبا، فيأخذهـا الحمال، ويدعو له ، ثم ينصرف وهـو ينتظر متلهفا الحكاية التالية .

وتنعقد الصداقة بينهما، ويصبـح كل منهما ملازما للآخر. . السنـدباد يعطى ويمنح، والحمال يأخذ ويدعو، دون أن يحقد أحدهما على الآخر، أو ينتقم أحدهما من الآخر ، إلى أن تأتى آخر الحكايات، فيدور بين الصديقين الحوار الآتى :

« فانظر يـاسندباد يابـرى ما جرى لى، وما وقع لى، ومـاكان من أمرى . فقـال السندباد البرى للسندباد البحرى : بالله عليك لاتؤاخذنى بما كان منى فى حقك» .

تحمل حكاية السندبـاد ظلالا من قصة موسى مع صاحبه العبد الصـالح؛ فإن موسى كان يحكـم بحسب الظاهـر، فأراد صاحبـه أن يلقنه درسـا ينبهه إلى الحكمة الإلهيـة، التى تتجاوز الأسباب الظـاهرية، ويتلقى مـوسى الدرس مرة وثـانية وثالثة، إلى أن يعيـه تماما . ويقول لصاحبه ﴿ لاتؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا﴾ [1]. ومن هنا، ليس غريبا أن تتكرر جملة « بالله عليك، لاتؤاخذنى بما كان منى» ، فى مقدمة حكاية السندباد، وفى خاتمتها .

وليس هذا هو الشيء الوحيد الذى تحمله حكايـة السندباد من الرؤية الإسلامية؛ فهى إلى جانب ذلـك، أو بسبب ذلك ، تنتهى نهايـة دينية، تهون من شأن الـدنيا ، وتحذر من الاعتراض على قضـاء الله وقـدره ، وتـذكر بـالموت الـذى تصفـه فى جمل كثيرة، تنتهـى بها

---

(١) الكهف : ٧٣ .

الحكاية، فتقول : « ولم يزالوا فى عشرة ومودة، مع بسط زايد وفرح وانشراح، إلى أن أتاهم هادم اللذات، ومفرق الجماعات، ومخرب القصور، ومعمر القبور، وهو كأس المات، فسبحان الله الحى الذى لايموت» .

إن الجمل التى تتحدث عن السعادة فى هذه النهاية، أقل بكثير من الجمل التى تتحدث عن الموت، وكل هذا فى إيماءة قوية للتهوين من شأن الدنيا.

وليس المراد هو مجرد التهوين من شأن الدنيا، أو التذكير بالموت فحسب، أو غير ذلك من تعبيرات يبدو على ظاهرها الجانب الوعظى، ولكن المراد ـ بالدرجة الأولى ـ هو استلفات النظر إلى حل المشكلات بطريقة هينة يسيرة، لاتصل إلى العنف وحد إراقة الدماء. فما دامت الدنيا هينة، وكل إنسان مصيره إلى الموت، وسبحان الله الحى الذى لايموت، مادام كل ذلك واردا ويمثل الحقيقة، فإن كل شىء قابل للحل، ولاتوجد المشكلة التى تستعصى على الحل. . يكفى أن الموت وحده هو حلال العقد.

نحن، إذن، فى لب مشكلة الفروق بين الغنى والفقير، وهى مشكلة فى ظل الرؤية الإسلامية طبعية، ومن سنة الحياة. ومن هنا، لاتضخمها ولاتطلق عليها عبارات عنيفة، من مثل : التناقض الطبقى، أو الصراع الطبقى. إنها تسميها فقط اختلاف الدرجة بين الناس. وهى تجعل هذا الاختلاف من سنة الحياة، ومن لوازم الكون؛ فكل إنسان مسخر لخدمة الآخر، وكل إنسان له موهبته، وكل إنسان محتاج إلى الآخر، فليس هناك داع للتضخيم من هذه المشكلة، واعتبار أن الإنسان فقط يقاس بما عنده من مال. إن هذا حكم بالظاهر. فكم صاحب قصور لايعيش سعيدا، وكم من مال وراءه جهد كبير ومشقة زائدة. إن التضخيم من هذه المشكلة، وترديد تعبيرات من مثل الصراع الطبقى، إنما يعكس رؤية تضخم من أمر الدنيا، وتجعلها هم الإنسان، فلا حياة بعدها، ولا سعادة إلا فيها، وغير ذلك من الفلسفات المادية، التى تقف عند حدود الظاهر، وتحتاج إلى « العبد الصالح» الذى يلقنها درسا لاتنساه .

وقد عكست حكاية السندباد هذا الحل الإسلامى. فالحمال يتلقى درسا، ينصرف بعده عن تلك الوسوسة، ويعتذر مرارا لصاحبه ومعلمه، وتنعقد بينهما صداقة، تذوب خلالها مشكلة الغنى والفقر، وتنعقد بينهما صداقة، ويعيشان معاً صديقين، ليسا كغنى وفقير، بل كإنسان يتعامل مع إنسان، ويختفى الحقد والكراهية، ويتم حل الإشكال دون صراع ولاتمرد ولا إسالة دماء ولا ديكتاتورية طبقة.

تلك هى المضامين الدلالية لحكاية السندباد، وهى مضامين تلتقى مع مضامين الشكل التراثى للرواية العربية، والتى سبق أن أشرنا إليها. ولايقف الأمر عند هذا الحد، فإن

حكاية السندباد تلتقى مع الشكل التراثى فى الملامح الفنية أيضا .

إن صفة « العنقودية» تحرك هذه الحكاية . وأعنى بهذه الصفة مايسميه البعض بتداخل الحكايات ، أو ما سميته بالوحدة التركيبية فى الكتاب الثانى من الوسطية العربية ، وفى فصل الأدب بنوع خاص .

ويمكن أن نتبين صفة « العنقودية» فى حكاية السندباد خلال ثلاث دوائر ، هى .

دائرة كبرى ، تتمثل فى ذلك الإطار الذى تدور خلاله « ألف ليلة وليلة» ، وهى قصة شهر زاد مع الملك السعيد ، وهى تروى له الحكايات ، وتدخله عالم الخيال ، وتخلصه من الشر ومن روح الانتقام ، وبجانبها أختها « دنيا زاد» ، تشجع وتدفع أختها إلى الحديث ، وشهر يار مبهور من الأختين . وينتهى به الأمر إلى حب الراوية ، وتغيير نظرته نحو المرأة والناس بوجه عام . إن هذه الدائرة تدور زمنيا خلال ألف ليلة وليلة ، وتمثل الزمن الخارجى ، الذى يلعب دور الرابط العام ، الذى يربط بين جميع الحكايات ، ويسلكها فى عمل روائى كبير ، يضم جميع الحكايات . إن هذه الدائرة هى أشبه بالعقد الذى يضم جميع الجواهر ، أو بعياب اليمانى ، أو بالخيط الذى يمسك حزمة من العصى ، أو الأزهار ، أو غير ذلك من تشبيهات ، سبق أن رددتها أثناء الحديث عن الوحدة التركيبية .

دائرة كبيرة تتمثل فى حكاية السندباد البحرى مع السندباد البرى ، والتى نكتشفها خلال مقدمة الحكايات وخاتمتها ، وخلال الحوار بين السندبادين ، عقب كل سفرة من السفرات السبع . إن هذه الدائرة تحيل السفرات السبع إلى شىء واحد ، هو صورة للشكل التراثى للرواية العربية . وحتى تتميز حكاية السندباد كرواية مستقلة ، داخل دائرة كبرى هى حكايات الليالى بوجه عام ـ أقول حتى تتميز هذه الحاية كشكل روائى مستقل ، فإنها تتخذ زمنا خارجيا يختلف عن الزمن الخارجى الذى تتخذه شهر زاد فى الدائرة الكبرى . إن شهر زاد تقص حكاياتها بالليل ، وتظل تقص إلى أن يدركها الصباح ، فتسكت عن الكلام المباح . أما السندباد البحرى فإنه يقص فى الصباح ، وينتظر الحمال طيلة ليله ، لكى يقدم الصباح ، ويذهب إلى صديقه ، ويعيش معه فى مغامراته ، إلى أن يتعشى ويأخذ الذهب ، ويعود سعيدا فى انتظار صباح آخر . إن شهر زاد تفسح الطريق ، وتختفى فى هذه الدائرة ، ولا تقوم بدور الراوية . إنها تكتفى بتقديم السندباد ، الذى يقص فى الرواية ، وبضمير المتكلم ، وبإشارة لايقطعها تعليق من شهر يار ، أو شرح من شهر زاد ، أو تدخل من دنيا زاد .

أما الدائرة الأخيرة ، فهى الدائرة الصغيرة ، والتى تتمثل فى السفريات السبع . إن كل سفرة تمثل مغامرة مستقلة ، تتكون كالمقامات ، من مقدمة وخاتمة ثم الموضوع الرئيس .

المقدمة فى كل سفـرة غالبا ماتدور حول داء السفر وهو فى قمـة سعادته، والخاتمة عقب كل سفرة تأتى سعيدة، فهو يعود عقب كـل مغامرة، محملا بالمال مترعا بالخبرة، ولايحبس ذلك على نفسـه، فهو يبنـى القصور ويهب الأموال ، ويقيـم الولائم، ويـدعو الأصـدقاء والأقارب، يقدم لهم الطعام ويقص عليهم النوادر.

ثـم تسلـم الخاتمة إلى المقدمـة التـى تليهـا ، فى حـركـة دائمة، سبـق أن لاحظنـاهـا فى المقامـات، وسميناهـا بالمراوحـة . . عودة ، وسعـادة، وترف . ولكنـه يضيق بكـل هذا، ويعاوده داء السفـر، أو كما يقول عـن نفسه : «فحـدثتنى نفسـى الخبيثة بـالسفر إلى بـلاد الناس، وقد اشتقت إلى مصاحبة الأجناس، والبيع والمكاسب» ثم عودة وسعادة، ثم سفر ومغـامرة، ثـم عودة ثـم سفـر، وهكذا، فى حـركـة تشمل جميـع السفرات، وتضفـى على المغامرات شيئا مشتركـا، وتحيلها إلى رواية كبيرة، تعتمد على حركة شـاملة، وعلى شخصية رئيسة، تقوم بالدورين معًا، دور البطل، ودور الراوى .

أما الموضوع، فهـو يختلف من سفرة إلى سفرة، ولكنـه ـ فى كل السفرات ـــ تسيطر عليه «عنـايـة الله ». فالبطـل ، وهـو السنـدباد، يقـوم بمغـامـرات عجيبة، لاتخطـر على بـال الإنسـان . . يقصها، وهـو يمهد لها منـذ البدايـة، قـائلا للحمال : « وقد سـافرت سبـع سفرات، وكل سفرة لها حكاية تحير الفكر، وكل ذلك بالقضاء والقدر، وليس من المكتوب مفر ولا مهرب» وقد ظل فى سفرته الأخيرة سبعة وعشرين عـاما، يكابد ويعانى ويواجه من الأهوال والمشقـات مالا عين رأت، ولكنه يعـود سالما كما كان يعـود عقب كل مغـامرة. إن البطل، هنـا، محروس بعنايـة الله. وهنا، نجد الأقـدار تتدخل وقـت الأزمة ، فتبـدل من حاله. لقد غرقت سفينته فى إحدى المرات، وألقى به فى عرض البحر، ولكن العناية الإلهية لم تتخل عنه فى ذلك الحين، فيقول : « فيسر الله لى قطعة خشب من ألواح المركب فركبتها» (٣/ ١٠٠). وهكذا ينجو ليعود موفورا بالمال يوزعه على الفقراء والمساكين، ويقيم الولائم، ويمنح الأموال .

ومن هنا ، تكثر المفاجآت والصدف وتدخل الأقدار. إن استخدام « إذ» الفجائية يتوارد بكثرة فى هذه المغامـرات، وإن التهويل فى الوصف يبلغ حده. فهـو يرى طائرا يحجب عين الشمـس، وبيضة كـالقبـة السماوية(٣/ ٨٩)، وهـو يـرى حيـة مثل النخلـة (٣/ ٩٠)، وسمكة مثل البقرة (٣/ ٩٩). إن وصفه للعملاق يتوارد على النحو التالى:

« وقد نـزل علينا من أعلى القصر شخـص عظيم الخلقـة، فى صفة إنسان. وهـو أسود اللون ، طويل القامة، كأنه نخلة عظيمة. وله عينان، كأنهما شعلتان من نار. وله أنياب، مثل أنياب الخنازير. وله فم عظيم الخلقة، مثل البئر وله مشافر، مثل مشافر الجمل مرخية

على صدره . وله أذنان ، مثل الحرامين مرخيتان على أكتافه . وأظافر يديه مثل مخاليب السبع «٣/ ٩٤) .

إن مثل هذا الوصف ، الذى يقوم على المبالغة والتهويل ، يتوارد بكثرة ، فيزيد من هذا الجو الذى يبتعد عن المعقول كثيرا . وقد يضيق بعض النقاد ، من أصحاب الظاهر، ومن أصحاب المقاييس الحديثة ، بمثل هذا الجو، ويجدونه خروجا على مشاكلة الواقع ، وإطاحة بالمنطق الإنسانى ، ولكن حكاية السندباد لاتقف عند حد الظاهر. إنها منذ البداية تتحدث عن القضاء والقدر، وعما هو مكتوب على الجبين. إنها تشير بذلك إلى الجزء الخفى ، الذى يتجاوز الواقع ، والذى يسميه البعض بالمفاجآت والغرائب ، ونحن نسميه هنا « بروح الخضر» أو العبد الصالح ، الذى يرمز إلى الرؤية الإسلامية ، التى لاتقف عند المنطق الظاهر، وتراه قصورا لايدرك ماوراء الحجاب ، ولايتجاوز ما تحت قدميه . ومن هنا نرى السندباد فى مغامراته ، يكتشف تلك الحكمة الكبرى ، التى تدرك مالايدرك ، فكم من موقف يراه خيرا ثم ينقلب شرا ، وكم من موقف يراه شرا ثم ينقلب خيرا : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون﴾[1].

إن هذه الآية الكريمة سبق أن تحدثت عنها فى الكتاب الأول ، كإشارة إلى مفهوم الحكمة فى الحضارة العربية الإسلامية ، وهو مفهوم يختلف كثيرا عن مفهوم الفلسفة فى الحضارة الإغريقية الأوروبية . إن هذا المفهوم يسيطر على حكاية السندباد . ويمكن أن نضرب مثالا على ذلك من السفرة الرابعة . فقد نجا السندباد من مغامراته ، ونزل عند قوم فأكرموه وزوجوه ، وظن أن السعادة قد واتته ، وأن الخير قد أحاط به . ولكن تحدث المفاجأة عندما تموت زوجه ، ويدفنونه معها ، كما هى عادتهم ، ويظل فى مغارته مع الأموات ، ويظن أنه هالك لامحالة . ولكنه يشاهد نورا يأتى من بعيد ، فيتحققه ويمشى نحوه ، ويكتشف ثقبا قد حفرته الوحوش فى المغارة ، لكى تنهش الموتى ، فيخرج من سجنه ويصافح النور، وينجو.

وكل دائرة من تلك الدوائر الثلاث ، تنتهى نهاية سعيدة . ففى الدائرة الكبرى ، يعفو شهر يار عن شهر زاد ، ويتزوج منها ، وتقام الولائم والأفراح . وفى الدائرة الكبيرة ، يكف السندباد عن السفر ، ويبنى القصور، ويقيم الولائم ، ويعيش فى سعادة مع أهله وأصدقائه . وكل سفرة من السفرات فى الدائرة الصغيرة ، تنتهى تلك النهاية السعيدة ، التى يعود فيها السندباد سالما موفورا حاملا المال والكنوز.

---

(١) البقرة : ٢١٦.

ولكن الوقـوف عند تلك النهايات السعيـدة ، يمثل نصف الحقيقة ؛ أمّـا نصفها الآخر والأهم ، فهو يتمثل فى تلك النبرة الحزينة التى تخالط النهاية السعيدة . إن لحظات السعادة هى لحظات قصيرة ، تنتمـى إلى الحياة الفانية . ولكن هنـاك ماهو أهم ، هنـاك حياة أخرى حقيقية ، تمثل البقاء والخلود . ومن هنا ، يأتى التذكير بالموت ، مصاحبا فى وقت واحد تلك النهـايات السعيـدة . إن نهاية ألـف ليلة وليلـة ، تتحـدث عن الموت . وإن نهايـة حكايـة السندباد تتحدث كذلك عن الموت .

إن الحديث عـن الموت ، يذكّر بالحقيقـة كاملة ؛ فـألف ليلة وليلة ، ليسـت مجرد خيال ومتع حسيـة . وكذلـك النوادر العـربية ، ليسـت فكاهـة وغناء وجـوارى وغلمانا وطعـاما وشراباً .

وتلك الحقيقة ينبه لها بعض الأدباء المعاصرين . فعل ذلك نجيب محفوظ ، حين أضاف إلى روايته « ليـالى ألف ليلة» فصلا عـن البكائين . وفعل ذلـك ألفريد فرج فى روايتـه « أيام وليـالى السندبـاد» . فـاكتسبت روايتـاهما بُعدا عميقـا يقـربهما من رؤيـة الحضـارة العربيـة الإسلامية ، فى نظرتها المتكاملة ، التى تجْمع بين الدنيا والدين ، والسعادة والموت .

وقد غابت هـذه الحقيقة عن توفيق الحكيم ، فتحولت روايتـه ، كما ذكرنا ، إلى مكعبات مرصوصة ، وإلى نوادر عن المتعة والتسلية .

وشىء مثل هذا ، يمكن أن نقوله عن باكثير فى روايته «سلامة القس» ، وعن السحار فى روايته « أميرة قرطبة» ، فقد افتقدتا النصف الآخر من الحقيقة ، وتحولتا إلى شىء يشبه الأفلام العربية ، التى تقوم على الحب والبطل والغناء ، وكل ما يحث إلى متعة المشاهد وتسليته .

مازلنا نلف وندور ، لكى نصل إلى نتيجة ، تتلخـص فى أن حكاية السندباد تمثل صورة من الشكل التراثى للرواية العربية . وهى ، فى هذا الاتجاه ، تقترب كثيرًا من المقامات كصورة أخرى للشكل التراثى ، سواء كان ذلك فى الرؤية الدلالية ، أو فى الرؤية الفنية .

فالروايتان (المقامات وحكاية السندبـاد) ، تدوران حول نموذج واحد ، هو صورة ذلك البطل الـذى يعشق الرحـلات ، ويتنقل من مكـان إلى مكان ، ومـن مغامرة إلى مغـامرة . والسندباد يحمل ظلالا من السروجى ؛ فهـو يتحول فى النهاية إلى « عبد صالح » ، يحاول أن يرشـد فتاه « الحمال» وأن ينبهه إلى أسرار الحكمة الإلّهيـة ، تماما كما رأينا السروجى فى النهـاية وقد تحول إلى نوع مـن المحدِّثين ، يخاطب فتاه الراوية ، بعبـارات تذكر بالعبد الصـالح مع موسى .

ولايقف الأمر عنـد هذا الحد فى صورة الشخصية ، بل إن مـوقف حكاية السنـدباد إيزاء

المشكلات ، يتشـابه مع مـوقف المقامـات ، فى معالجة الأمور بـروح خفيفة لاتجرح ولاتثير الأحقاد، ولا تخلق صراعا بين الغنى والفقير.

ومثل هذا، يمكن أن نقوله عن الرؤية الفنية . فكلاهما يخضعان لفكرة العنقودية ، وهى نتيجة الوحدة التركيبية . فـالمقامات تتكون من عدة فقرات ، كل فقـرة تمثل مقامة مستقلة ، وكل مقـامة تخضع لبنيـة فنية ، تتكون من مقـدمة وخاتمة ومـوضوع . ولكن جميـع الفقرات تخضع لشىء عام مشترك ، يتمثل فى وحدة الحركة ووحدة البطل والراوى .

والأمر كذلك فى حكاية السندباد . إنها تتكون من عدة فقرات ، وكل فقرة تمثل سفرة من السفرات ، وكـل سفرة تتكون كـذلك من مقـدمة وخاتمة ومـوضوع ، ولكنها جميعـا تخضع لشىء عام ، يحيلها إلى رواية ، تحرص على وحدة الحركة ووحدة البطل والراوى .

ولسنا نـريد أن نبحث عـن السابق أو الـلاحق ، ولا عن المؤثـر والمتأثر ، لأن مثـل هذا البحث لايفيد ، فكلاهما يخضع لنبع واحد ، وهـو ذلك الشكل التراثى ، الذى تكوّن نتيجة لدواع جغـرافية وتـاريخية وثقـافية ، وتحول بسبب ذلـك إلى قالـب له مبرراتـه من الـواقع ، ويستطيع أن يبرهن على صـلاحيته ، خلال تطبيقات كثيرة ومتنوعـة ، فى الشعر ، وفى منهج التأليف ، وفى القالب القصصى .

ـ ١٣ ـ

إن الشكـل الأصيل ، الـذى يكتسب مبررات وجـوده من البيئـة ، لايعنى الانغـلاق . فهنـاك فـرق كبير بين المحليـة والأصـالة . المحليـة فى صـورتها الضيقـة ، تعنـى الانغـلاق والتعصب ، أما الأصالة ، فهى على العكس من ذلك تماما ، تؤدى إلى الانفتاح على التراث الإنسانى فى شتى منافذه .

ولـن يتاح الانفتـاح لظاهـرة ما ، إلا إذا كـانت لـديها فى أول الأمر خصـوصية . وهـذه الخصوصية ، لاتأتى هبة أو وراثة ، بل لابد لها من الفعل الإنسانى ، وهو فعل مركب نتيجة تعقيدات حضاريـة كثيرة . إن المحلية الضيقة ليست فكـرًا ، ولكنها انفعال أشبه بـانفعال الصغار ، الذين لم تمتحنهم الحياة بعد ، ولم تعلمهـم ضبط الأعصاب ، وتوجيه الأهواء . أما الأصالة فهـى فكر ، قد يجد اعتراضا من الآخـر ، ولكنه ينال احترامه ، ويتأثـر به ، ويصبح جزءا من تكوينه ، وحينئذ ينتشر هذاالفكر ، ويحقق العالمية .

وكل هذا ، يعنى أن الأصـالة تتكون من عنصرين . عنصر محلى ، وآخر إنسـانى ، وهذا الاستنتاج وحده لايكفـى ، بل لابد من التفاعل بين الشقين (المحلى والإنسـانى) فى متنوج يتجاوزهما ، ليشكل شيئا جديدا مميزا ، هو الأصالة .

وهذا هو التقييم الحقيقى للحضارة. فالحضـارة ، لاتستحق هذا الاسم، إلا إذا كانت صادرة عن خصـوصية محلية ، وهى أيضا لـن تصل إلى درجة الحضارة، إلا إذا كـانت هذه الخصوصية تملك من الفكر مايؤهلها إلى الانتقال إلى حضارة أخرى .

ويـدون هذيـن العنصريـن ، لن تكـون حضارة أبـدا . فقـد تجد فى بعض المجتمعـات جـامعات ومـدارس ووزارات للثقـافة والإعـلام والتعليـم ، ولكن كـل هـذا يمثل واجهـة خارجية ، أما المحتوى فهو يفتقد عنصر الخصوصية ، ويردد ماتحكيه جامعات أخرى . وقد تجد فى هذه المجتمعات نفسها شـوارع مرصوفة ، وعمارات شاهقة ، ونـافورات ، وحدائق ، ولكن كل هذا يمثل مظهرّا خارجيا ، يفتقد الفكر البشرى الذى يوجهه .

إن الأصالة إذن بعنصريها السابقين ، هى الدليـل على وجود الحضارة ، فبدونها لن تكون حضارة ؛ ومهما تنتشر الحضارة ، وتنشر قوالبها الفكرية ، التى تتضمن رؤيتها نحو الإنسان والكون .

والحضارة العـربية الإسـلامية ، عبّرت عن نفسهـا خلال قوالبهـا الأصيلة ، التـى نبعت منها ، وعكست ظروفها التاريخية والجغرافية ، ثم انتشرت إلى من حولها ، وفرضت رؤيتها .

وهذا ليس مجرد كلام تجريدى ، ففى مجال التراث القصصى يتحدث علماء الأدب المقارن عن الأشكـال الأدبية ، التى تحمـل بصمة عـربية ، تفرض نفسهـا على الآداب الأخرى . إن أمثلة كثيرة من الأدب العربى ، رحلت عن واقعها بكـل ماتحمله من خصائصها الأصيلة ، وأثرت فى الآداب العـالمية ، مثل : ألـف ليلة وليلة ، قصـص الفروسية والحب ، المقـامات ، رسالة الغفران ، رسالة التوابع والزوابع ، قصة حى بن يقظات ، قصص الحيوان ، وغير ذلك من أمثلة أصبحت خلية فى التراث الإنسانى .

وهذه الأمثلـة وغيرها ، لم تصبـح جزءا مـن التراث الإنسانـى ، إلا بفضل مـاتملكه مـن خصوصيـة . وهذه الخصـوصية التـى تؤدى إلى الأصالـة ، لن تضيـع إذا كانـت تعبيرا عن حضارة مميزة ، فـلا تزال القصة العالميـة المعاصرة ، تجتر بعض المصطلحات التـى يمكن أن نكتشف جذورها فى التراث العربى .

ومـن الغريـب ، أن بعـض هذه المصطلحـات ، التـى لاتـزال تتردد على ألسنة بعـض النقاد ، إنما تجىء فى مجال الثورة على الأشكـال القديمة ، مما يـدل على العنصر الحى فى هذه المصطلحات ، والذى يتجدد كلما تجددت دواعى ظروفه .

ويمكن أن نضرب المثال بمصطلحين معاصرين . المصطلح الأول ، هو Story within a story ، ويمكـن أن نترجمه إلى « تـداخـل الحكـايـات» . أمـا المصطلـح الثـانـى ، فهـو Discontinuiy ويمكن أن تترجمه إلى « التجاورية» .

إن شبلى فى قاموسه يعرف المصطلح الأول ، بأنه يعنى حكاية تتقاطع مع حكاية ثانية ، وقد تقاطعها حكاية ثالثة ، ويحيل إلى ألف ليلة وليلة كشاهد على هذا المصطلح ، ثم يرى أنه انتقل إلى الرواية الأوروبية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، ويسوق الأمثلة الدالة على ذلك[١].

ويظل هذا المصطلح حيا ، عند نقاد الحداثة المعاصرين . فيكتب الناقد « جون بارث» مقالة تحت عنوان « الأدب الذى استنفد أغراضه» The literature of exhaustion ، وهو يعنى ذلك الأدب القديم الذى يجب القضاء عليه . وهو بذلك يمهد للتيارات الجديدة ، التى تحاول أن تثور على هذا الأدب المجهد ، ويضرب مثلا للأدب الجديد .

براوية الكاتب الأرجنتينى « يورجز» ، تحت عنوان « طولون الأكبر» . ويحلل الجديد فى هذه الرواية ، فيراه فى المسحة الخيالية ، التى يضفيها على الواقع ، أو مايسميه « إفساد الواقع عن طريق الحلم» ، ويراه أيضا فى طريقته التى اقتبسها من ألف ليلة وليلة ، والتى تقوم على تداخل الحكايات . وقد استخدم يورجز فى هذه الرواية ، الليلة ٦٠٢ من ليالى شهر زاد ، لكى يضفى هذه المسحة الخيالية ، ولكى يحول شخصيات روايته إلى مؤلفين يعلقون على الأحداث[٢] .

ويكتب الناقد « فيليب ستيل» مقالة تحت عنوان «شهر زاد تتمرد على العقدة[٣]. Scheheragade runs out of plot ، يؤكد فيها الثورة على الشكل التقليدى فى الرواية ، والذى يقوم على فكرة الحبكة القصصية ، والتى تتجه إلى محاكاة الواقع ، وتصويره بطريقة حية . ويتخذ من شهر زاد رمزا إلى هذا التمرد ، فهى تستطيع أن تخلق عالما سحريا ، يتجاوز نظرية المحاكاة للواقع ، ويقوم بالدرجة الأولى على فكرة المتعة والإثارة .

إن هذه الأمثلة التى تتجسد فى أعمال روائيه ، وفى مصطلحات أدبية وآراء نقدية ، توظف ألف ليلة وليلة فى الثورة على الأشكال التقليدية المجهدة ، وتثور على العقدة ، التى شغلت النقاد كثيرا . وهذا يعنى أن الشكل الأصيل ، الذى يحمل بصمة الشرق ، يحمل من «الجينات» الفنية مايتيح له الاستمرار، داخل التراث الإنسانى العام .

أما المصطلح الثانى dis contiuity ، فإن الترجمة الحرفية له تعنى نفى الاستمرار. وهذا هو المعنى الذى أراده الناقد « دافيد لودج» ، حين طرح هذا المصطلح فى كتابه « أطر

---

(١) Dictionary of literary Terms P. 312.

(٢) The Novel Today, P.70 .

(٣) Ibid, P. 186.

الكتابة الحديثة» The Modes of Modern Writings . فهو يهدف من هذا المصطلح إلى الثورة ضد السببية ، التى قامت عليها الروايـة التقليدية ، والتى تتوالى فيها الأحداث برباط منطقى صارم . يقوم على المقدمة والنتيجة ، أو على السبب والمسبب .

ويأتى هذا المصطلـح ، فيطرح فكرة أن تتكون الرواية من مجموعـة فقرات لارابط بينها ، يتنقل فيها الـذهن من شىء إلى شـىء مختلف ، جذلان ، وهو يقفـز ويرتد من مـوضوع إلى موضوع ، كالكـرة الصغيرة فى ماكينة اللعب ، تتحرك خلال أضواء وإشارات تـأتى من هنا ومن هناك .

ويوضح « لـودج» ذلك من خلال كتابـات « لونارد ميشيل» ، فإن قصصـه تتكون من مجموعة Cluster ، أى من فقرات قصيرة (حكاية ـ تعليق ـ قصيدة ـ نكتة ـ اقتباس) ، وكل فقرة تستقل عن الأخرى .

إن واحدة من تلك المجموعة العنقودية عند ميشيل ، تأتى تحت عنوان « سوف أنقذهـم لو استطعت» ، وتدور حول موضوع الموت والحياة ، وتتكون من عدة أقسام هى :

١ ـ ملاحظة مبدئية ، وهى عبارة عن كوميديا تسخر من حياة اليهود فى أمريكا .

٢ ـ مسـائل مشكوك فيهـا ، وهى تـدور حول قصـة بورجـز عن كـاتب يهودى أعـدمه الجستابـو ، وقد منحه الإله وقتـا كافيا ، بين إطلاق النـار وموته ، لكى ينهـى عمله الفنى .

٣ ـ الموضوع فى نقطة صغيرة ، وهو عبارة عن ذكريات جد الراوى .

٤ ـ ظـروف عسكرية ، وهـى عبارة عن لمحـة من حياة مـاركس كتبها أحـد الملاك بروح معادية .

٥ ـ حياة عمل ، وهى قصة عم الراوى ، الذى هو المؤلف .

٦ ـ صخور لاتظللها الأشجار اقتباس من بايرون يدور حول سجين مدان .

٧ ـ أغنية من ثلاثة سطور من الغناء الشعبى الروسى .

٨ ـ النهود : تجربة مبكرة للعم فى أوروبا .

٩ ـ صياح الأطفال عن المسيح وهيلاديك وكافكا والعشاء الأخير .

١٠ ـ هيراقليـدس ، هيجل ، جيـاكومتى ، نيتشـه ، وروسورث ، ستيفين ، وكلهـا تدور حول مسائل فلسفية .

١١ ـ الغربة ، وهى تدور حول صلة مارزكس بالمسيحية .

١٢ ـ خطاب من لورد بيرون يذكر فيه أنه شاهد ثلاث جرائم انتهت بحكم الإعدام .

١٣ ـ المخلوق النوعى : مقالة نقدية عن الأدب .

١٤ ـ قدر قليل من قصة لدستويفسكى عن رجل محكوم عليه بالإعدام، وقد أرجئ تنفيذ الحكم.
١٥ ـ الليلة التى أصبحت فيها ماركسيا، قطعة ساخرة بقلم مرتد عن مذهبه.
١٦ ـ الخاتمة.

حرصت على أن أنقل هذه المجموعة العنقودية كاملة، لأبين أن مصطلح « اللاسببية» يلتقى مع مناهج التأليف الأدبى عند العرب، فهى مناهج تقوم على فكرة التنوع، أو التى يسمونها أحيانا بالإحماض، ينتقل خلالها القارئ من جد إلى هزل، ومن موعظة إلى بيت شعر، ومن سمين إلى غث. وقد صرح المؤلفون القدامى بهذا المنهج، وأكدوا عليه فى مقدمات كتبهم، كما شرحنا ذلك فى فصل الأدب من الكتاب الثانى، وبينوا الهدف من هذا المنهج، وحصروه فى دفع الملالة عن القارئ، ورد السأم، وهو ينتقل من زهرة إلى زهرة، ومن ياقوتة إلى ياقوتة إذا سمح لنا ابن عبد ربه بالتقاط هذه الحبة من حبات عقده الفريد. وهذا الهدف عند القدامى، يلتقون فيه مع « لودج»، وهو يتحدث عن القصة ذات المجموعات العنقودية. فقد رأى أن هذا الإبداع يعبر عن ميكانيكية الذهن البشرى، المتمثلة فى دفعات شعورية مختلفة وغير مترابطة.

ومن أجل هذا السبب، رأيت أن أعدل عن الترجمة الحرفية للمصطلح، والتى تعنى اللاسببية، وأن أوثر ترجمة أخرى، هى « التجاورية»، لأكون بذلك متوافقا مع مفهوم الوحدة التركيبية، كما شرحته من قبل، والذى يقوم على تقدم وحدات مستقلة ومتجاورة، كل وحدة تمثل بناء مستقلا، ولكنها جميعا تتحول إلى مايشبه العقد الفريد، أو عياب اليمانى. إنها وحدة تقوم على التجاور، وليست على السببية، وهى نابعة من مفهوم «الوسطية العربية»، التى تعنى كما قلت فى الكتاب الأول: «تجاور الأشياء مع تمايزها».

إن السببية Continuity تمت إلى الوحدة العضوية عند أرسطو، وتقوم على نظام عقلى صارم، يشبه المنطق أو يشبه الوسط الأرسطى، الذى يحتاج إلى قدرات رياضية، كما سبق أن شرحت. أما اللاسببية، فهى ثورة على هذا النظام العقلى، وثورة على سيطرة الوحدة العضوية، من خلال بديل ينتقل فيه الذهن من شىء إلى شىء، من غير استبداد العقل بمفهومه الأرسطى.

ولكن « التجاورية» عند لودج، تخضع لما سميته من قبل بالتشكيل الحضارى، والذى يعنى أن حضارة ما قد تقتبس شيئا من حضارة أخرى، ولكن الأخيرة إذا كانت قوية تتمتع برؤيتها الخاصة، فإنها تخضع الشىء المقتبس لرؤيتها الخاصة، وتحوله إلى خلية فى بنائها الكلى. والأمر كذلك بخصوص « التجاورية» عند لودج، والتى تقوم على منهج الوحدات

المستقلة، فإن هذا المصطلح قد وقع فى النزعة العبثية، التى تضرب بوضوح فى جذور الحضارة العربية. ويمكن أن نتبين ذلك من خلال مصطلحين آخرين، يمثلان أيضا عند لودج خصائص مابعد الحداثة، وهما مصطلح «العشوائية» randsomnen، ومصطلح «التجاوز» excess.

والعشوائية randsommen تعنى فكرة الانقطاعية متمثلة فى مجموعة الفقرات المستقلة. إنها تتم بطريقة عشوائية، مساوية تماما للذهن البشرى، الذى تتم فيه التغييرات بطريقة ميكانيكية بعيدا عن التنسيق والسببية. وكلما كان العمل الأدبى مكونا من مجموعة فقرات مستقلة. ومتجاورة بطريقة عشوائية، كان أقرب إلى طبيعة الذهن البشرى، فيحس بالتجدد والنشاط. ومن هنا، يجد الكاتب «بوردو» فكرة القص واللصق. فيقص مجموعة من النصوص المختلفة. ومن بينها نصه الخاص به، ثم يلصقها بطريقة عشوائية. ويلجأ جونسون إلى طريقة مشابهة. فيصدر سنة ١٩٦٩ روايته «المنكوبون» فى صفحات سهلة التغيير "Loore leag" والقارئ مطالب بأن يغير ويعدل فى وضع الصفحات حتى ينتج نصه الخاص.

أما التجاوز "excess"، فهو يعنى الخروج على الحدود، والانتقال من ميدان إلى آخر دون صلة، والذى يصل عند كاتب مثل ريتشارد بروتجان إلى نوع غريب من التشبيهات، ينفصل عن المجرى القصصى العام، ويحفر له مجرى خاصا، ولايعود أبدا إلى المجرى الأصلى، مثل: «كانت الشمس مثل قطعة نقود معدنية، ضخمة من فئة الخمسين سنتى، قد صب عليها شخص ماجاز الكيروسين، ثم أشعلها بثقاب، ووضعها فى يدى، وقال: هيا، احملها حتى أذهب إلى الخارج وأشترى الصحيفة. ولكنه لم يعد. وكانت الفصول تحتضن الشواهد الخشبية مثل طباخ وسنان يطقطق بيضا فى وعاء، مواجه لمحطة سكة حديد. وكان جسدى مثل طيور تجلس على سلك تليفون، يهتز بنداءات العالم، وتلمسه السحب فى رفق، وكانت عيناه مثل وتر من أوتار «الهارب». وكان الضوء خلف الأشجار، يبدو كأنه يد لف إلى مخزن للبضائع. والجدول يبدو وكأنه أكشاك التليفونات، ممتدة فى صف واحد، بسقوف عالية، ترجع إلى العصر الفيكتورى، أبوابها مقفلة. وكانت الشوارع بيضاء وجافة، وكأن حادثة تصادم قد وقعت بين مقبرة وسيارة نقل محملة بزكائب الدقيق».

وإذا كانت الوحدة التركيبية قد تخلصت من الرابطة العقلية الصارمة، فإنها لم تقع فى العشوائية أو التجاوز، لأنها التزمت برابطة من نوع جديد ومناسب، تهدف إلى مقاومة الملل والرتابة، وتنشيط القارئ عن طريق الانتقال به من موضوع إلى موضوع. وهى رابطة مرنة تجمع بين الشىء وغيره، كعياب اليمانى، أو كالعقد الفريد، أو كالحبل الذى يضم مجموعة من العصى، مختلفة الأحجام والأنواع والألوان.

هى ــ إذن ــ رابطة ليست عشوائية أو تتجاوز حدودها ، فإن لها نظاماً ولكنه مرن ، ويقوم على فكرة براعة الاستهلال ، وحسن التخلص ، وحسن المقطع ، وغير ذلك من مصطلحات ، شرحناها من قبل فى كتاب « الوسطية العربية » (٢/ ١٦٤)، وتقترب فى عمومها من ميكانيكية الذهن البشرى ، التى تقوم على قفزات غير مترابطة منطقيا ، ولكن دون أن تقع فى الفوضى ، لأن الأدب فى غايته نظام حتى لما يبدو أنه فوضى .

والأمر كذلك بالنسبة لتوظيف « ألف ليلة وليلة » فى الآداب الأوروبية ، فقد رأينا أن هذه الليالى اتُخذت رمزا للثورة على الأشكال التقليدية البالية ، وللتعبير عن الخيال الذى يخلص من صرامة الواقع ؛ ويكون هم الأديب ليس فى محاكاة الواقع ، ولكن فى إضفاء عالم سحرى على هذا الواقع ، يحقق الانبهار ، كما رأينا فى رواية الكاتب الأرجنتينى .

ولكن هذه الوظيفة المتمثلة فى ألف ليلة وليلة ، تخضع أيضا لفكرة « التشكيل الحضارى » ، وتتحول عند الكثيرين إلى نزعة العبثية ، فتفقد بذلك روحها الشرقى القائم على البهجة وعدم الإيغال فى الرؤى الفلسفية .

والأمثلة على ذلك كثيرة . يمكن فقط أن نشير إلى الرواية القصيرة ، التى كتبها « روبرت موسيه » تحت عنوان « جريجيا » Graigia [1] . فالمؤلف ولد سنة ١٨٨٠ ، وتوفى سنة ١٩٤٢ ، وقد كتب قصته هذه سنة ١٩٢٣ ، واستمدها من تجاربه ، وهو يعمل ضابطا فى الجبهة الإيطالية ، خلال الحرب العالمية الأولى .

كان جو الحرب خانقا . البشاعة والقبح فى كل مكان . ومن هنا أتت هذه القصة كمهرب من هذا الواقع الفظيع . إنها تأتى على لسان راوية ، يهرب بخياله إلى الريف ، ويعيش فى الطبيعة ، ويسرف فى تقديم لوحاتها : الأشجار ، والوديان ، الأغنام ، المنازل الريفية ، القش ، التبن . . إنه يتحد بالطبيعة ، ويتغنى بها ، ويقرن الإنسان فى الطبعية حبيبته اسمها جريجيا ، والبقرة أيضا تسمى بهذا الاسم . إنها حياة الخلاص من هذا الواقع الكئيب .

ولكنه لايمضى حتى النهاية ، ولم يتحول الخيال إلى مجاوزة للواقع ، ولم يستطع ، أو لم يرد ، أن يبنى هذا العالم السحرى ، الموازى للواقع . فالنزعة العبثية تتدخل كرؤية يضفيها المؤلف على نهاية القصة . إن الجنس هنا فطرى ، ويمارس بسهولة . ويسحب حبيبته إلى المغارة ، ولكن الزوج يتبعها ، فيسد الباب عليها ، وحينئذ يتغير كل شىء ، وتقع القصة فى النزعة العبثية . فلم يعد يهتم بحبيبته ، ولم يعد الحب يعنيه فى شىء . حتى الرغبة فى الحياة ، قد افتقدها . وحين يلمح من بعيد شقا يأتى منه الضوء ، لم يقم من مكانه ، ولم يهش

---

(١) The Penguin Book of Modern Lurpoan Stort Stories, P.139.

للحياة . إن الزوجة تتركه ، وتخرج من هذا الشق ، لأنها تحمل رغبة فى الحياة . أما هو ، فيفقد كل رغبة للخلاص . إنها دعوة للانتحار والانسحاب ، تأتى على لسان جندى ، يحارب على جبهة القتال . وهى دعوة تلخص مأزق الحضارة الأوروبية ، التى ابتعدت عن الفطرة والطبيعة ، ووقعت فى الحروب والسيطرة ، ولم يبق أمام الإنسان إلا أن يقعد فى مغارته ، ويرحب بالموت .

إن السندباد فى سفرته الرابعة[1] ، يمر بمثل هذا المأزق . فقد ألقى به القوم فى مغارة ، ودفنوه مع زوجه ، ولكنه كان يحمل داخله رغبة عارمة فى الحياة ، فكان يقتل الموتى ، ويستولى على الزاد ، حتى حانت له الفرصة فى النجاة ، فأبصر شقا صغيرا ينفذ منه الضوء ، فتحامل على نفسه ، حتى خرج من مغارته ، وظل يكافح ، والعناية الإلهية تسانده ، حتى عاد إلى أهله موفورا ومحملا بكل الخيرات .

ـ ١٤ ـ

كان لابدمن هذا الاستطراد ، لأصل إلى نقطة تتلخص فى أن الحضارة القوية ، إنما تصل إلى ذلك عن طريق الخصوصية ، وتستطيع بخصوصيتها أن تؤثر فى الآخرين ، وأن تعيد هضم التراث الإنسانى عن طريق ما أسميته بالتشكيل الحضارى .

ووضعية المقامات كحلقة داخل التراث الإنسانى ، تزيد هذه النقطة إيضاحا . فقد رأينا من قبل أن الصورة العامة لبطل الكدية ، كانت شائعة عند الفرس والروم ، وأظنها شائعة عند كل حضارة إنسانية . فمادام المجتمع يحوى الغنى والبخيل والشره والطماع والظالم ، فلابد أن يكون بين نماذجه ، ومن باب رد الفعل ، صورة للفقير المضطهد .

وقد أخذت المقامات ، وخاصة عند الحريرى ، هذا الشيوع ، ومنحته بصمة خاصة ، حولته إلى حلقة بارزة داخل التراث الإنسانى ، أو بمعنى آخر : أصبح له وجود وتميز ، بعد أن كان شائعا ، بلا خصوصية ولا ملامح .

كل ما فى الكون من نماذج بشرية ، كانت فى أول الأمر شيئاشائعا ، يعتمد على الأحاسيس الإنسانية ، التى هى قاسم مشترك بين البشر جميعا . ثم يتهيأ لها شخص موهوب ، فيمنحها خصوصية عن طريق الشكل . وقد يكون لهذا الشخص من العبقرية مايجعله مهيّأ ، للتعبير من خلال نموذجه عن تراث أمته ، فتشيع بصمته ، وتصبح ملكا للجميع ، وتتحول إلى قالب يفرض نفسه خلال تطبيقات عديدة ، وشخصيات كثيرة . وباختصار . إن الشكل ، كما تدل مادتهّ الصرفية ، يعنى التشكل ، أى تحول الشىء الشائع والهلامى ، إلى شكل له وجود وحضور ، وذلك على يد الفنان ، سواء كان أديبا يشكل بالكلمات ، أو تشكيليا يصنع بالحجارة .

---

(١) ألف ليلة وليلة ٣٠/٥ : ١ .

وقد تابعنا من قبل مسيرة البطل المراوغ ، وهو ينتقل من الأدبين الفارسى والتركى ، إلى الأدب العربى . وكانت المتابعة بلا تفصيل ، لأن هناك مؤلفات ورسائل كثيرة ، تهتم ، من منظور الأدب المقارن برحلة هذا البطل ، خلال الآداب الشرقية ، وخاصة الأدب الفارسى والأدب العربى .

إذا كنا من قبل قد أشرنا إلى ذلك ، كدلالة على اللقاء بين الحضارات المختلفة فى العصور القديمة ـ فإننا ، الآن ، نكمل هذه الصورة ، ونتابع رحلة البطل المراوغ مع الآداب الأوروبية .

المنافذ بين الحضارتين العربية والأوروبية كثيرة ، لايمكن حصرها ، وهى تتعدد بتعدد البشر ، الذين يتنقلون من هنا وهناك ، ويحتك بعضهم بالآخر . وكان لابد لها أن تتعدد ، لأننا إزاء حضارتين متنافستين . فمنذ القديم ، تسعى كل منهما لمعرفة الأخرى ، وتحاول كل منهما أن تتغلب على الأخرى . والمرء مولع بتتبع منافسه ، والتعرف على دخائله ، أكثر مما هو مولع بالتعرف على صديقه . وما يصدق على المرء ، يمكن من باب القياس أن يصدق على الحضارة . فما الحضارة فى النهاية ، وبعيدا عن التجريدات ، إلا مجموعة أفراد .

تتعدد هذه المنافذ ، ولا يمكن حصرها . ولكن أقوى المنافذ ، فيما نحن بصدده ، هو ذلك اللقاء المباشر بين الحضارتين على أرض الأندلس ، والذى كان السبب المباشر فى نقل صورة البطل المراوغ إلى الحضارة الأوروبية .

ويتحدث الشريشى ، وهو يعدد مصادره وشيوخه ، عن شهرة مقامات الحريرى ، على أرض الأندلس ، فيقول :

«وكان أول من أخذت عنه روايتها ، وتلقيت منه درايتها ، ببلدى ، الشيخ الفقية المقرئ أبو بكر بن أزهر الحجرى ، حدثنى بها عن صهره الفقيه المحدث الراوية أبى القاسم بن عبد ربه المعروف بابن جهور ، عن منشئها أبى محمد الحريرى . وحدثنى بها أيضا ببلدى الشيخ الفقيه الراوية أبو بكر بن مالك الفهرى ، عن ابن جهود المذكور ، وعن الشيخ الفقيه أبى الحجاج الأُبّذى القضاعى ، كلاهما عن أبى محمد الحريرى . وحدثنى بها أيضا إجازة الشيخ الفقيه المحدث أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله الحجرى عن القضاعى . وحدثنى بها أيضا الكاتب الزاهد أبو الحسين بن جبير ، عن الشيخ الجليل بركات بن إبراهيم ابن طاهر بن بركات القرشى ، المعروف بالخشوعى عن الحريرى . وحدثنى بها أيضا الشيخ الفقيه ، الأستاذ أبو ذر مصعب بن محمد بن مسعود الخشنى بسنده . . . وتلقيتها عن جماعة

أكثر فى العدد ممن ذكرت، لايفيدنى واحد منهم إفادة ضبطية أو لفظية، ولايفقدنى زيادة هزلية أو وعظية [1] ! .

وقد تابع الدكتور محمد غنيمى هلال مسألة انتقال المقامات إلى الآداب الأوروبية فى كتابه « الأدب المقارن»، وتناولها فى أربعة مراحل :

١ ـ بعض الأدباء من كتاب العرب الإسبانيين، قد ألفوا مقامات على غرار مقامات الهمذانى والحريرى، فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى، مثل ابن القصير الفقيه، وأبى طاهر محمد بن يوسف السرقسطى.

٢ ـ بعض الكتاب من العرب الإسبان ، قاموا بشرح مقامات الحريرى ومن أشهرهم عقيل بن عطيه المتوفى سنة ١٢١١هـ ، وأبو العباس أمد الشريشى المتوفى سنة ١٢٢٢م .

٣ ـ ترجمت مقامات الحريرى فى بلاد الأندلس إلى اللغة العبرية، ترجمها سالمون بن زقبيل فى القرن الثانى عشر الميلادى ، ثم ترجمها الحريرى سنة ١٢٠٥هـ.

٤ ـ أثرت المقامات فى القصص الأوروبى. ويستشهد الدكتور غنيمى على ذلك بثلاث روايات : الأولى فى الأدب الإسبانى، وقد ظهرت سنة ١٥٥٤ ، تحت عنوان « حياة لاساريو دى نورمس وحظوظه ومحنه»، وهى لمؤلف مجهول. والثانية فى الأدب الفرنسى، وقد ظهرت سنة ١٦٢٢م تحت عنوان « تاريخ فرانسيون الحقيقى الهازل»، لمؤلفها شارل شورل. أما الثالثة، فهى أيضا فى الأدب الفرنسى، وقد ظهرت سنة ١٦١٦م، تحت عنوان «موت الحب» لجونبيه.

وتهمنا المرحلة الرابعة، ونحن بصدد متابعة مسيرة البطل المراوغ نحو الآداب الأوروبية. حقا، إن الدكتور غنيمى يشير إلى أن هذه المسألة، لم تحقق فى ميدان الأدب المقارن، بمعنى أنه لم توجد من الأدلة المادية، مايبرهن على تأثر هؤلاء الأدباء ببطل المقامات. ولكن شهرة المقامات فى الديار الأندلسية وترجمتها. . أثمرتا المحتوى الذى تدور حوله هذه الروايات؛ فهى عن بطل متسول، يتحرك داخل المجتمع، وينقده، ويحصل على مايريد عن طريق حيله وخداعه. . ثم اعتماد هذه الروايات على الراوى. . إن كل هذا يؤكد تأثير المقامات كجنس أدبى فى الأدب الأوروبى. بل إنها، فيما يرى الدكتور غنيمى، قد ساهمت فى نشأة جنس أدبى فى أوروبا، يسمى بقصص « الشطار» Picarisca ، وهى قصص تعتبر رد فعل لقصص الرعاة. وقد ساهمت فى بلورة الاتجاه الواقعى فى الآداب الأوروبية، الذى يعتبره النقاد السبب الرئيس فى نشأة القصة بمعناها الفنى الحديث.

---

(١) شرح المقامات: ١/ ٦ .

إن هذه النتيجة ، التى تتلخص فى دور المقامات فى ازدهار الفن القصصى فى أوروبا ، تستحق هذا الجهد الكبير الذى بذله الدكتور غنيمى ، ولكنه وقف عند المراحل التاريخية الأولى فقط ، ولم يتجاوز - على أحسن الفروض - أوائل القرن السابع عشر ، حين ظهرت رواية « موت الحب» لجوتييه .

وله العذر فى ذلك ، فإن متابعة مسيرة البطل المراوغ فى الآداب الأوروبية ، تحتاج إلى رسالة جامعية مستقلة . فقد أصبح هذا البطل نموذجا شائعا فى الحضارة الأوروبية ، بعد أن دمغته ببصمتها الخاصة ، عن طريق ما أسميته بالتشكيل الحضارى .

وهى بصمة تنبع من ظروف الحضارة الأوروبية ، وتعكس أزمتها السائدة ، والمتمثلة فى فكرة « العبثية» absurd .

يطلق كثير من الباحثين على الحضارة الأوروبية لقب الحضارة الفاوستيه ، نسبة إلى الدكتور فاوست بطل رواية جيته ، الذى استشعر العبثية ، بعد أن قطع مرحلة كبيرة مع العلم . لقد أحس بفراغ ، ولم يستطع أن يحقق ذاته ، فباع نفسه للشيطان «مفيستوفوليس» .

ولم يطلق الباحثون هذا اللقب اعتباطا ، بل لأنهم وجدوا أن أزمة فاوست ليست هى أزمة فرد ، بقدر ما هى أزمة حضارة ، وأن جيته استطاع أن يرتفع ببطله من حالة الفردية إلى حالة النموذج العام .

استعارت الحضارة الأوروبية ، الكثير من النماذج الشائعة فى الحضارات الإنسانية ، ومنحتها - عن طريق التشكيل الحضارى - خصوصية جعلتها تستطيع أن تدعى ملكيتها ، وربما تستطيع أيضا أن تعمى على دور الحضارات السابقة .

ومن هنا ، نجد البطل المراوغ فى الأدب العربى ، الذى كان يصدر عن تلقائية ، ويتحرك فى ظل من المسامحة والمصالحة ، وخلال جو فكه يصل إلى حد البهجة - نجد هذا البطل قد تحول ، فى ظل الحضارة الأوروبية ، وعن طريق التشكيل الحضارى ، إلى البطل الغريب ، أو اللامنتمى ، أو العبثى ، أو العدمى ، وغير ذلك من مسميات تتناثر فى النقد الأوروبى ، ويمكن أن يضمها مصطلح عام ، وهو اللا بطل " anti hero" .

وتعبير « اللابطل» ، يتناثر فى النقد الأوربى . وهم يستخدمون هذه الأداة "anti" ، ليشيروا بها إلى حالة مضادة لحالة البطل الكلاسيكى . فإذا كان البطل الكلاسيكى يمارس دوره بنبل وفروسية ، فإن البطل الجديد ، أو إن أردنا الدقة « اللابطل » ، يمارس دورا على عكس ذلك تماما ، وعن طريق الخسة والنذالة ، أو إنه لايمارس دورا على الإطلاق ، كما يريد

أصحاب « العدمية »، ممن يجردون البطل من كل هدف .

ولن نستطيع أن نتابع صورة « اللابطل »، الذى يمثل طبعة أوروبية للبطل المراوغ فى الأصل العربى، لأن هذا البطل أصبح ظاهرة عامة فى الآداب الأوروبية، وخصوصا بعد الحرب العالمية، وينسجم مع الظواهر الأخرى فى الفن والموسيقى والرسم والسينما والمسرح، وغير ذلك من ظواهر تشير فى مجموعها إلى الخروج عن المألوف .

وقد حاولت، فى كتابين سابقين، أن أقترب من هذا الموضوع الشائك قدر المستطاع . ففى كتاب « الأدب وتجربة العبث » (سنة ١٩٧٣م)، استعرضت ـ من خلال نماذج مترجمة ـ هذا الموقف العبثى عند كافكا وساروت وسفيفو ومارسيل بروست، وغيرهم ممن يمثلون نماذج مختلفة تغطى القارة الأوروبية .

وفى كتاب « لقطات » (سنة ١٩٨٥م) ، تحدثت من خلال مدرسة الرواية الجديدة ـ عما انتهى إليه الموقف العبثى فى أوروبا من ميكانيكية صارمة، ومن جمود مطلق، ومن طرح للمشاعر. إنهم يعيبون على العبثية السابقة، لأنها تبكى على شىء قد فقدته، أما الحقيقة، عن هذه المدرسة، فهى أنه لايوجد شىء ولامعنى حتى نبكى عليه، وترى التخلص من أمثال هذه الرومانسية، والتسلح بجمود تام .

أما الآن، فإننا نريد أن نستكمل مسيرة الدكتور غنيمى فى متابعة البحث عن تأثير البطل المراوغ فى الآداب الأوروبية، ومن خلال موضوع محدد، هو تأثير المقامات فى رواية «أمريكا» لكافكا، من خلال فكرة التشكيل الحضارى .

يتابع محقق مقامات الحريرى فى مقدمته، ترجماتها إلى اللغات الأوروبية الحية . فقد قام المستشرق الهولندى فانتوردى بارادى بنقل منتخبات من سبع عشرة مقامة إلى اللاتينية ونشرها بين سنتى ١٧٨٦ و١٧٩٥م . وقام دى ساسى « بجمع مخطوطات المقامات وشروحها، وعمل منها شرحا عربيا، نشره فى باريس سنة ١٨٢٢ . أما المستشرق الألمانى « ركرت »، فقد ترجم هذه المقامات سجعا إلى اللغة الألمانية . وقام المستشرق « تشنرى » بترجمتها إلى اللغة الإنجليزية سنة ١٨٦٧، وتبعه « استجاس » فترجمها أيضا إلى الإنجليزية سنة ١٨٩٨م .

وماذكره الدكتور غنيمى هلال من أن تأثير المقامات فى رواية « حياة لاساريو دى ترمس » لما يدخل بعد مجال دراسات الأدب المقارن، يمكن أن نذكره هنا، ونحن بصدد الحديث عن العلاقة بين المقامات ورواية « أمريكا » . فليست هناك أدلة مادية تشير إلى معرفة كافكا بالمقامات، برغم ترجمتها إلى اللغة الألمانية، ولم يثبت أنه تحدث عنها .

إن كافكـا (ت سنة ١٩٢٤م)، يميل فى رواياتـه إلى جو من العبث والإحبـاط . ونغمة الموت، تتردد عنده حتى فى ثنايا الجملة الواحدة. إن قصته « فى مستعمرة العقاب»، والتى ترجمتها سنة ١٩٧٣م، يمكن أن تصلح مثلا على ذلك، وقد قلت عن عالمها بأنه « عالم كله تشوهات وقبح ، فلا جمال ولانظام ولامنطق. عالم يـذكر بلوحة مارك شاجال عن الحرب. فالأشياء متناثرة عفويا، وهناك خط أحمر قان يفرض نفسه» [1]، فكافكا، قد كتب رواياته فى فترة ما بين الحربين، وهـى فترة تتميز بالأدب الأسـود، وبالنـزعة العبثية. وقـد استطاع كافكا أن يمتص تلك الفترة التاريخية، وأن يعكس معالمها فى شعره.

وهو، إذ كـان فى فلسفته متمردا على الأوضـاع الراهنـة، وداعيا إلى رفضها خـلال هذه النزعة العبثيـة، فإن تمرده هذا لم يصل إلى حـد التغيير فى الشكل الفنى، فقد ظلـت رواياته محافظة على هذا الشكل التقليدى، الذى كان مسيطـرا على الرواية الواقعية فى تلك الفترة. وقد قلت عن ذلك فى المرجع السابق:

« وقد عبر كافكا عن غربته بهذا الشكل التقليدى، الذى يعتمد على التسلسل الزمنى، وعلى الحادثة، وعلى بنـاء الشخصيات من أسماء ومهـن وأوضاع اجتماعيـة محددة. ولايزال الإنسان عنده يحتل الدور الرئيس فى أحداث الرواية، وكل ماحوله توابع له، إما موضحة، أو معادية، أو مستخدمة».

ولكن رواية أمريكا Amerika ، التى ظهـرت بعد وفاتـه، تمثل خطا مختلفـا فى مسيرته الفنية والفلسفية. فهى ذات طـابع هزلى وشخصياتها كاريكاتوريـة، وتمس العبث بطريقة خفيفة، غير سوداوية، وخلال مغامرات تتسـم بالبهجة والإثارة والمتعة. وشكلها الفنى، يبتعد عن الشكل التقليدى. فالفصول فيها، لاتتوالى بطريقة تسلسلية، تقوم على الضرورة أو الاحتمال، ولكنها ذات استقلاليـة، وكل فصل يشبه المقامـة فى كونه قائما بـذاته، ولكن جميع الفصـول تدور حول مغـامرات لبطل رئيـس ، تتوالى فى قـاع المجتمع، وكأنـه البطل المراوغ، أو البطل المتسول، أو اللا بطل إن أردنا وصفا معاصرا.

وحين ظهرت هذه الرواية مترجمة إلى العربية سنة ١٩٧٠، تحدثت إلى أصدقائى المقربين عن الطـابع الشرقـى فيها، وعـن اقترابها من تكنيـك « المقامـات» فسخروا منـى، لأنهم لم يعتادوا حـديثا عن تـأثير الأدب العربى فى الآداب الأوروبيـة. هم لم يقرءوا المقـامات، ولم يتابعوا دراسات علماء الأدب المقارن فى الغرب، التى رصدت ظاهرة تأثير المقامات فى أدب الشطار. كان الاقتناع قد بلغ بهم حدا يصـل إلى أن كل مايمت إلى حضارتهم، إنما هو من

---

(١) الأدب وتجربة العبث ص : ٦٣ .

باب التابـع ، الذى يأخذ ولا يستطيـع أن يعطى . ومن غير المألوف فى طبيعـة الأشياء ، أن يتطلع التـابع إلى منـزلة السـادة الكرام ؛ «فلكـل مقام معلـوم» . حينئذ ، كتمـت كل هـذا داخلى ، حتى جـاءت الفرصـة بعد ربـع قرن من الـزمان ، لكـى أفضى بـه على صفحات الورق .

قد لاتكـون هناك أدلة ماديـة ، عن اتصال كافكـا بالمقامـات رأسا ، ولكن هناك مـاهو أقوى من تلك الأدلة ، مما يمكن أن نلخصه فى أمرين :

الأمر الأول ، يتمثـل فى ذلك الجو الشرقى ، الـذي ساد بيئة الأوروبيين عـامة ، والألمان بصفة خاصة ، فى القرن التاسع عشر. وقد أدّى الـرومانتيكيون دورا كبير فى إشاعة مثل هذا الجو، والقيام بـرحلات فى بلاد الشرق ، وتصـوير هذه الرحـلات فى صورة حالمة وغـريبة ، وتعتبر منقذا مما كانت أوروبا تعانى منه ، من سيطرة الروح المادية ، والنزعة العلمية .

وقد سـاهم جوتـه (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢م) ، بكتابـاته فى إشـاعة مثل هـذا الجو، وأصدر ديوانـه الشرقى يتغنـى فيه بأهـل الشرق ، ويشير إلى البهجة الحقيقيـة ، التى يحتـويها القرآن الكريم بين دفتيه .

وربما كان أهم من كل ذلك ، ما أثاره كبار الرسامين فى حب للشرق . فقد رحل الكثير منهم إلى بلاد الشرق ، وصـوروا فى لوحاتهم عاداتهم وتقـاليدهم ، بطريقـة مثيرة ، تعبر عن طموح الأوربيين إلى الخيـال ، وسط عالم خـانق . قد لاتكـون رسومهم قـريبة من الـواقع ، ولكنها صادقة فى التعبير عن حاجتهم إلى عالم مثير.

ونشير هنا ، بنوع خاص ، إلى « بول كلى» (١٨٧٩ ـــ ١٩٤٠م) ، وهو معاصر لكافكا ، وألمانى مثله أيضـا ، فلم يكـن يعرف اللغة العربية ، ولكنه رآها منقوشـة ، خلال رحلاته إلى مصر وتونـس والمغرب ، ثم قلدهـا فى لوحات بهيجة ، تحمـل طابع الشرق وتلقائيتـه . وقد قلت عنه فى الكتاب الثانى من « الوسطية العربية» مانصه :

« إن النـاظر إلى خطـوطه يحس أنها تتحـرك وترقـص . ففـى لوحتيـه « أغنية إلى القمـر» و«تأرجح المراكب الخفيـف» ، تثب الخطوط وترقص حول أشعة القمـر، وتتأرجح المراكب وكـأن البحر يـداعبها فى مـرح . لقد عكـس روح الطفولـة كما يقال ، واستجـاب لتلقائيـة الغريزة ، فبدت خطوطه كأنها مدفوعة بهوى داخلى» .

أما الأمـر الثانى ، فهـو يتمثل فى أدب الشطار، الذى شـاع فى أوروبا بتأثير المقـامات ، وأصبح جـزءا من بنيتهـا الفنية ، وشكلا مـن أشكالها الأدبيـة . وحين أراد كافكـا أن يتخذ موقفا ناقدا وساخرا من أمريكـا ، فعل كما يفعل هذا البطل المراوغ فى قصص الشطار، وقام

بمغامراتـه داخل المجتمع الأمريكى ، فجاءت روايتـه تقليدا ساخرا ، ومعارضـة هزلية لهذا النوع من الأدب .

ولكن عبقـرية كافكا تتبـدى فى أنه تنبه لجوهـر هذا الشكل . وأدرك خصائصـه فى نبعه الأصلى ، فحرك روايته لتجسيد هـذه الخصائص . وهنا عبقرية الفنان الحقيقـى . هو يعمل خلال أشكال ارتضتها الإنسانية والأمة ، ولكنه يعطى لعمله خصوصية ، تجعله مميزا داخل الشكل . حقـا ، يوجد شكـل كلاسيكى أو واقعى أو عبثـى ، ولكن داخل هـذا الشكل ، تـوجـد نماذج متعددة بتعـدد الفنـانين الحقيقيين ، الـذيـن تصبح أعمالهم داخـل الشكـل الواحد ، شيئا مميزا ووجودا خاصا .

لم يقف كافكا عند الشكل الخارجى لقصـص الشطار ، التى تقوم على راو يطوف داخل المجتمع ، ويرصد عيوبه ، ولكنه تنبه إلى جوهر هذا الشكل فى نبعه الأصلى .

ذكرنـا من قبل أن المقـامات ، بجانـب شكلها الخارجى ، تحمـل خصائص جوهـرية ، مثل .

١ ـ روح السفر.

٢ ـ جاذبية البطل .

٣ ـ روح « اللعبة » التى تسيطر على الأحداث .

تبدأ روايـة أمريكـا ، وبطلها كـارل روسمان على سفر. فهـو فى ميناء نيـويورك ، وآلاف الأقدام تتحرك وتتزاحم . وهو يرى نفسه مدفوعا مع الناس ، يجرفه التيار العام .

وتنتهى والبطـل على ظهر قطار ، يحملـه إلى رحلة مجهولة ، داخـل طبيعة شاقـة ، وكتل ضخمة من الحجارة السوداء .

وإيقاع السفر يخيم على هـذه الرواية . فالكل فى حركـة سريعة ، لايهدءون ولايستقرون . والبطل ، منذ أن وطئت قـدماه أرض نيويورك ، وهو فى حركة محمومـة ، ينتقل من عمل إلى عمل ، ومـن صديق إلى صـديق ، ومـن امرأة إلى امرأة ، وكـل شىء يبدو كـأنه يـدار بزر ، ويتحرك بـزر. يظهر الخال يعقوب فجـأة ، ويختفى فجأة . والعطشجـى يظهر بلا تـوقع ، ويدخل فى مشاجرات بلا توقع .

وهنا ندرك ذلك الوصف المسهب للمشـاجرات ، والملاكمات ، والمصارعات . إن كافكا يريد ، بذلـك ، أن يجسد هذا الجو الذى يقوم على الحركة والمطـاردة . إنه فى فصل « المأوى » يصف فى إسهـاب المطاردة بين البطـل والشرطى ، وهو وصـف غير واقعى . فـالمؤلف يبرز خطوطه ، ويحولها إلى شىء «كـاريكاتورى» حاد ، كأننا إزاء مشهد لفيلـم مثير وساخر من

الأفلام الأمريكية ، التى تثير الحركة والضجيج . إنـه يصف كارل وهو يجرى أمام الشرطى ، فيقول : « وكانت ميزة كارل الوحيدة ، التى كان يتفوق بها على الشرطى ، هى خفة ملابسه ، فكان يطير، أو بالأحـرى يختفى فى منحدر الشارع ، الـذى كان يهبط أكثر فـأكثر، لكنه فى اضطرابه لقلة نومه فى الليلة الماضية ، كان يقفز أحيانا قفزات متعثرة ، عالية جدا فى الهواء » . إن هذا الوصف يحيـل البطل إلى شىء مطاطى متحرك ، منتزع من جـو المطاردة الذى يخيم على الرواية من أولها إلى آخرها .

الكل يندمج فى اللعبة ، ويسير مع التيار العام ، ولكن البطل « كارل روسمان » يبدو مميزا بين الجميع . إنه أحيانـا يقف ليتساءل . حقا ، إنه تساؤل خفيـف وقصير، سرعان مايضيع فى الضجيج ، ولكنـه على أى حال يجعل من شخصيـة كارل شخصية لافتة ، تتمتـع بقدر كبير من الجاذبية ، تجعل غيره يتخذ منها موقفا . قد يكون موقف الإعجاب ، كما حدث من مديرة الفندق التى وقفـت بجانبه ، وبحثت له عن عمل . وقد يكـون موقف الكراهية ، كما حدث من برونيلدا التى تقول عنه : إنه ينظر إلى نظرات وقحة .

وكل هذا يتـم بروح اللعبة ، فكأننـا فى مهرجان ، يقف فيـه العم سام بقبعته الطـويلة ، ويلبس مـلابس شارل شـابلن ، ويحرك عصاه ، فيتحـرك الجميع فى خفة ، وكـأنهم يؤدون استعراضـا ، يستغرق فيـه الجميع . إن الفصـل الأخير « مسرح أوكلاهـوما الطبيعـى » هو تلخيص للـروح الهزلية فى الـرواية . فليس المراد هـو المسرح الحقيقى ، بقـدر ماهـو رمز إلى أمريكا كلها . تقول عنه فانى : « إنه أضخم مسرح فى العالم » ، وتقول عنه فى مرة ثانية : «إن هذا المسرح لا حـدود له» ويصف المؤلـف مقصورة الرئيس ، ومـا فيها من ذهـب ونياشين وفخامة ، فكأنه يصف البيت الأبيض .

إن الجميع فى هذا المسرح يقوم بتمثيلية ، ويؤدى دوره المطلوب ، وحسب إرادة المخرج . حتى الخير والشر تمثيل . تقوم إحدى الفتيات بدور الملاك ، وتقوم الأخرى بدور الشيطان ، وحين يتطاير ريشه فى الهواء من أجنحة الملاك ، فإن الأطفال يختطفونها ويلقون بها فى الهواء ، لا شىء يحمل محمل الخير، والإعلانات والمهرجانات والزفة تملأ هذا المسرح ، والاستعراض يتم بمبالغة شديدة .

إن كافكـا يعى تماما جـوهر هذا الشكل فى نبعـه الأصلى ، فيحاول أن يجسد خصـائصه الجوهريـة ، وهو لايكتفى بـذلك ، بل تتنـاثر خـلال الرواية مـواقف تذكـر بهذا الشكل فى مسيرته التاريخية الأولى ، ويمكن أن نشيرّ هنا إلى بعضها ، بسرعة وبلا تفصيل :

الفكاهة فى هـذه الرواية فطريـة ، وتعتمد على أشياء ساذجـة ، منتزعة من طبيعـة هذا الشكل فى منابعـه الأولى ، فبرونيلدا تلقى الماء الساخن على زوجها ، وتحطـم هداياه وتتبرز

فوقها ، والرفاق يقرصون ساق « جياكومو» ، فيرفعها فى الهواء ويرفس برجله .

والمشاجرات تتوالى فى الرواية ، وهى من النوع الهزلى الذى يصل إلى حد الملاكمة بين الرفاق .

وصورة المرأة تبدو مقدسة . كلارا ما إن ترى كارل حتى تطرحه أرضا ، وكأنها نمر مفترس . وبرونيلدا تسيطر على الرجال حولها ، وغير ذلك مما يذكر بقصة فاطمة العرة مع معروف الإسكافى ، وبصورة المرأة فى السير الشعبية .

والمباشرة التى تعتمد على الوصف ، تتوالى فى تلك الرواية ، لأنها تقوم على فكرة البطل ، الذى يروى المؤلف مغامراته ، كما كان يفعل الراوية فى القديم . (انظر بنوع خاص فصل «الطريق إلى رمسيس») .

وتتداخل بعض الحكايات فى الهيكل العام ، وعلى طريقة الاستطراد ، فتقطع فى تسلسل الأحداث . فقصة تبريز وموت أمها فى الشارع ، تأتى عن طريق الاستطراد ، وقصة « رينيل» مع سيدة الفندق تضخم فى الخط العام ، وعن طريق الاستطراد أيضا .

حتى العنوان أيضا ، يثير الانتباه . فعنوان « أمريكا» هو إشارة إلى اسم مكان . وقد رأينا من قبل أن المقامات تؤثر عناوين تعتمد على الأمكنة ، مثل المقامة الحلوانية ، والبصرية ، والدمياطية .

وقد ذكر « ماكس برود» ، فى تعقيبه فى نهاية الرواية ، أن كافكا كان يطلق على روايته عنوان « العطشجى» ، وهو عنوان الفصل الأول الذى نشره مستقلا سنة ١٩١٣م .

إن عنوان العطشجى عنوان دال أكثر من غيره ، وهو مناسب لوظيفة العنوان فى مفهوم الوحدة التركيبية .

إن العنوان فى ظل تلك الوحدة التركيبية ، لايشير إلى بؤرة ارتكاز ، ، لأن العمل الأدبى لايدور حول نقطة رئيسة ، تمثل قطب الرحى كما هو الحال مع الأعمال الأدبية ، التى قامت على مفهوم الوحدة العضوية . إن العمل الأدبى ، فى ظل الوحدة التركيبية ، يتكون من عدة أقسام ، أو مقامات ، أو سفرات ، أو فقرات ، وكل وحدة كيان قائم بنفسه ومسُقل . ومن هنا ، فإن العنوان قد يشير إلى شىء داخل هذا العمل ، وليس بالضرورة أن يكشف نقطة رئيسة محورية ، فليس حتما أن توجد مثل هذه النقطة . وقد رأينا فى فصل الأدب من الكتاب الثانى ، أن القرآن الكريم كان يتخذ عنوان سورة من موضوع واحد داخل السورة ، دون أن يكون هذا العنوان شاملا لجميع دلالاتِ السورة . فسورة البقرة سميت بذلك ، إشارة إلى قصة بنى إسرائيل مع بقرة موسى عليه السلام . وسورة المائدة سميت بذلك إشارة إلى مائدة

عيسى عليه السلام . بل إن بعض السور تتخذ اسمها من كلمة أو حرف وردتا فى السورة، مثل سور « فصلت» و«ق» و«الفلق» و«الناس» .

ومن هنا ، قلنا إن عنوان « العطشجى» ، الذى كـان يؤثره كافكا ، إنما هو عنوان دال ، لأنه نابع مـن التركيبية الفنية للرواية . فهى تتكون من فصـول مستقلة ، وبعض شخصياتها تظهـر لتختفى دون أن يـرتبط مصيرهـا بعد ذلـك بسير الأحداث . ففـى فصل « الفنـدق الغربى» ، تظهـر المديرة ، ثم تختفى بعد ذلـك . وفى فصل « منزل ريفى» ، تظهـر كلارا ثم تختفى . وفى فصل الخال يعقوب ، يظهر الخال ، ثم يختفى بعد ذلك .

إن هـذه التركيبـة الفنيـة ، التـى هـى أقـرب إلى تركيبـة المقـامـات ، تجعـل مـن عنـوان «العطشجـى» عنوانـا مناسبـا . وهو ، فى الـوقت نفسـه ، عنوان دال على مفهـوم الوحـدة التركيبية . فالعطشجى هو عنوان الفصل الأول ، وهو فصل مستقل ، وقد اختفت شخصية العطشجى بعد ذلك ، وابتلعتها الأرض ولم يعد لها تأثير فى سير الأحداث . إن هذا العنوان إنما يناسب الوحدة المستقلة بجانب الـوحدات الأخرى ، التى تشكل العمل الأدبى فى ظل مفهوم الوحدة التركيبية . وهى وحدات متساوية فى الأهمية ، وليس من الحتم أن تدور حول نقطة أساسية ، تمثل محور ارتكاز أو قطب الرحى كما يقولون .

ومن هنا ، نصل إلى الحديث عن الشكل الفنى فى هذه الرواية . إنه شكل لاينمو بطريقة تاريخيـة تطوريـة ، كما هو الحال فى الـرواية التقليـدية ، وكما هـو الشأن مـع روايات كـافكا الأخرى ، مثل القضية والقلعة . إن الشكل فى روايـة أمريكا ، أو فى رواية العطشجى ، ينمو بطريقة تراكمية .

تبدأ هذه الرواية وكارل على سفر ، وتنتهى وهو على سفر أيضا .

فالرواية إذن لاتتقدم نحو الأمام ، ولاتنهج نهج الخط التطورى المتصاعد ، كما هو الحال فى فن الرواية التقليدى ، فى ظل مصطلحات ، مثل البداية والذروة والنهاية .

وكل الفـرق بين البداية والنهـاية فى هذه الـرواية ، أن البطل « كـارل روسمان» ، كان فى البداية قد رحل من أوروبا ، لكى يبدأ حياة جديدة فى الدنيا الجديدة ، يكفر بها عن خطيئة ارتكبها مع خـادمته . وكان يحمل صندوقا يحتـوى على صورة والدته . أما فى النهـاية ، فقد اتخذ اسما مستعارا هو الزنجى ، وضاع منه الصندوق ، وفقد صورة والدته للأبد ، وانضـم إلى المسرح الكبير ، وحمله القطار فى رحلة مجهولة وسط طبيعة جبلية قاسية .

فكأن الروايـة ، إذن ، تتطور إلى الوراء . وتلك هـى وجهة النظر ، التى يحملهـا المؤلف نحو أمريكا . ويعبر عنها خلال شكل ، هو جزء من التجربة .

وبين البداية والنهـاية ، تتناثر فصـول الرواية ، لايتوالى كـل فصل بعد الآخر عـن طريق السببية ، بـل إن كل فصل يبـدو مغامرة جـديدة مستقلـة عن الأخرى . فصـل العطشجى ينتهى دوره ، وفصل الخال يعقـوب كذلك ، ولايجمع بين الفصول سـوى شخصية بطلها ، الذى يظل الشيء الثابت حتى النهاية .

فنحن ، إذن ، إزاء شيء يتشابه مع الشكل العربى ، الذى يعتمد على الزمن التراكمى ، من خـلال وحدات يتراكـم بعضها فـوق بعض ، دون أن يـدفع أحـدها الآخـر. والحركة ، خلال هذا الشكل ، تتم بطريقة جماعية وعنقودية .

ولكن خصوصية كافكا ، لاتقف عند المعالم الجوهـرية لهذا القالب . بل إنه يضيف إليه رؤية خاصة ، تجعـل عمله مثلا فريدًا بين آلاف الأمثلة التى يحتملها هـذا القالب . ورؤيته الخاصة يمكن أن نختصرها فى أمرين :

١ ـ جوهر المكان .

٢ ـ النزعة العبثية .

كان المكـان فى المقامات القـديمة مجرّد اسـم المكان ، يشير فى أحسن وظـائفه إلى عنصر الحركة . فالبطـل حين ينتقل من دمياط إلى البصرة إلى أذربيجـان ، ومن الشرق إلى الغرب ، فإن هذا يشير إلى عنصر الحركة ، الذى يجعل من السروجـى مثلا ، شيئا خارقا ، يبدو فجأة وفى أمكنة متباعدة ، قد تكون فى البحر، أو فى الجزيرة ، أو فى الصحراء ، أو فى القصور.

ولكن كافكـا ، برؤيته العصرية ، يجسد جـوهر المكان . إن روايته جاءت عـن أمريكا ، وهـو يهدف إلى تجسيـد هذا العـالم الجديـد ، الـذى يشغـل الأذهان ، ويتطلـع إليـه آلاف المهاجرين . وتتوالى الرحلات نحوه وبلا تـوقف . ومن هنا ، وقع اختياره على هذا الشكل ، الذى يـدور حول رحلـة البطل ، يتحـدث فيها عن مشـاهداتـه ، أو يروى غيره عنـه تلك المشاهـدات . إن التجربـة هى التـى خلقت شكلها ، وجعلـت كافكـا يبتعد عـن المفهوم التقليدى للـرواية ، ويختـار هذا الشكـل لكى يفيـد من ثقلـه التاريخى مـن ناحيـة ، ولكى يضيف إلى هذا الثقل رؤيته الخاصة من الناحية الأخرى .

كافكا لم يكتف بمنهـج واقعى ، يقدم صورة لأمريكا فى مظاهـرها الخارجية ، أو يصف شخصياتـه من خلال مـلامحها المادية أو النفسية ، ولكنـه تجاوز كل ذلك ليجسـد لنا روح المكان . وتحولت أمريكـا عنده إلى صورة هزلية ، أقرب إلى عالم الإعلانـات ، والمهرجانات ، والملاكمات ، والمشاجرات ، وروح الإثارة ، إن ماذكره ماركيوز فى كتابه : « الإنسان ذو البعد الواحد» ، سبق لهذه الرواية أن جسّدته فى رؤية فنية .

فالإنسان يندمج فى تلك اللعبة فى ميكانيكية تـامة تفتقد المعنى . وماذكره روبنسون عن عمال المصاعد بـأنهم مثل آلات مطاطة تقفـز بلا معنى (ص ٢١٨)، يكاد ينطبـق على كل الشخصيات . إنهم لايفكرون، بل يتصرفون خلال فكرة رد الفعل. فمنذ الفصل الأول عن العطشجي . ومنـذ أن وطئت قدما كـارل ميناء نيويـورك، يبدأ الطوفان ليجـرف الجميع فى تياره . فالعطشجى، يدفع كارل إلى القمرة فى حركة خاطفة، وكارل يجد نفسه داخل القمرة مع العطشجـى . دون أن يقف لحظـة ليفكر فيما عسـاه يفعل، والعطشجـى يشكو لـه أنه لايحتمل نظرات الناس الذين يعبرون ممر الباخرة . وحين يجيبه كارل بأن الممر خال « الآن»، يجيبه، « نعم ، هو يخلـو، نعم الآن » إن الجميع يعيشون فى ميكانيكية تـامة، ويعيشون فى «الآن» ومحرومون من التفكير فى « الغد». وحين يفكر كارل مرة بأنه « غدا» سوف يخبر خاله بمارآه فى المنزل الريفى، فإن الغد يأتى ليعاقبه على هذا التفكير. ففى منتصف الليل، يبلغه « جريـن» بقرار خالـه بأن يغـادره للأبد . وفى ظـل هذا الجو، لا تكون هنـاك فرصـة لنمو العواطف . ففى الفصل الأول تبدأ عاطفـة صداقة بين كارل والعطشجى، ولكنهما يفترقان للأبد ولايلتقيان . وفى الفصـل الأخير يبدأ حديث مودة بين كارل والفتاة فـانيا . وحين يأتى ليخبرها بـأنه قد قبل ليعمـل مثلها ممثلا فى المسرح، يجدها قـد سافرت مع مجمـوعة، ويجد نفسه مطالبا بأن يسافر مع مجموعة أخرى .

إن هذا الشكل، كما رأينا فى منبعه الأصلى، يقـف عند سطح الأشياء دون أن يتعمقها . وقد سحـب هذا المفهـوم ظلالـه على رواية كافكـا، فجاءت شخصيـاته صـورة للحياة فى أمريكـا . شخصيات تعيش على السطـح، وبلا أعماق . لاغد، ولاتفكير، ولا عـواطف . الكل ينـدمج فى اللعبة، ويعيـش فى جو المهرجـانات والانتخـابات والإعلانـات، وكأنهم أوراق « كارتونية» تخلو من الأعماق، وتعيش فى بعد واحد على حد تعبير ماركيوز.

أما النزعة العبثية (الفاوستية)، فهى تبدو خلال هذا الجو العبثى. فقد ألقى بالبطل فى عالم لا يـرحم. الخال يتخلى عنـه فجأة، والبـواب يبادلـه الكراهيـة ، وفتاة المنـزل الريفـى تصرعه، وعمال المصعد يتلا كمون، وتسيل الدماء على ملابس كارل. وتلقى به الصدفة إلى صديقين شريـرين، لايستطيع أن يتخلى عنهما، وكـأنهما قدره الذى لا يـرحم. وحين يخبره أحد الصديقين بأنه لايستطيع الإفلات منهما، فـإن هذه الحملة تمثل قدره الأعمى . وتنتهى الروايـة وقد فقد الصندوق بما فيـه، وحمله القطار وسط طبيعـة عنيفة ، يقول عنا كـافكا فى الأسطر الأخيرة التى ينهى بها روايته :

« وقد كـانت تلك الأمواج قـريبة غاية القـرب منهما، حتى إن الرذاذ البارد، الـذى كان يتناثر منها، كان يصفع وجهيهما» .

ويأتى الجو « الكافكـاوى»، فيجسد فى هذه النزعة العبثية . وقد شرحـت من قبل هذا الجو فى كتاب « الأدب وتجربة العبـث»، وهو يقوم على تصور هذا العالم فى صـورة خانقة، محبطة، غير مفهومة، تثير الرعب، وكأننا فى كوابيس، وهذا الجو قد ألقى بظلاله على رواية أمريكا .

إن قول ديلامارش لكـارل: « إن الناس لو عاملوك كأنك كلـب ، فإنك حتما ستتحول إلى صورة كلب»، يذكر بقصة التحول عند كافكا، والتى افتقد فيها الإنسان آدميته، وتحول إلى صرصار. وإن وصف مـرض دوبنسون وصف ملئ بالدم والقـىء الاشمئزاز. وإن صورة برونيلـدا البدينة، فى مكان ملىء بـالكراكيب والمرض والـروائح العفنة، إن كل ذلك يـذكر بروايات كافكا .

ولكن هناك فرقا فى منظـور التناول، يكشف عن خصوصية هذه الروايـة . إن جو كافكا فى رواياتـه الأخرى جو سوداوى، يثير الانقبـاض والكآبة . أما جـوه فى هذه الرواية، فـإنه يصوره بطريقة هزلية « وكاريكاتورية»، وكأننا فى تمثيلية ، تحول المأساة إلى كوميديا ساخرة . وكل هذا من إسقـاطات فى الشكل ، الذى يقوم على معاملة الأشيـاء من السطح، وبخفة ودون عنف .

نحن إذن أمام طبعتين لهذا البطل المراوغ :

طبعة عربية، تصفه بأنه زئبقى، وتحركه داخل خليتها الحضارية .

وطبعة أوروبية، تصفه بأنه فاوستى، وتحركه داخل خلفيتها الحضارية .

وإذا كان ذلك كذلك، فما موقف الروائى العربى المعاصر، إزاء تلكما الطبعتين؟!

بـاختصار: انصرف الأديـب العربـى عن البطـل فى صورتـه العربيـة، وبحث عنـه فى صورته الأوروبية .

وكان هذا منطقيا مـع موقف الأدب العربى الحديث، الـذى انصرف فى مختلف أجناسه الأدبية، إلى البحث عن « النموذج» الذى يجىء من أوروبا، حتى لوكان ذلك على حساب التراث فى تقاليده التاريخية .

ولكن هناك سببا آخر، نضيفه إلى هـذا السبب العام، ويتلخص فى سيطرة الجو العبثى على أدباء الستينيات . وقد سبق لى أن رصـدت هذه الظاهرة فى كتاب « القصة القصيرة فى الستينيات»، وقلـت جملة قصيرة : «والظاهـرة العامة التـى تضم الحركـة التجديديـة، عند كتاب تلك الفترة، هـى إحساسهم بالفجيعة والقلق» (ص ٣٦) ، وهـى جملة تصدق على كتاب الرواية، بقدر ما هى صادقة على كتاب القصة القصيرة .

ومن هنـا، سيطر على أدبـاء الستينيات جـو من العبـث والشعور بـالإحباط . وأصبـح «موضة» شائعة، أن يتحول كل أديب إلى عبثى، وأن يلبس ثياب العبثية، وأن يبدو ـ حتى فى ملامـح وجهه ـ متوتـرا قلقا، لأنه فى ظنه يعكـس القلق الحضارى، الذى يعيشـه العالم المعاصر. وهو قد أخذ بطالـع هذا القلق، فى السينما، وفى الفن، وفى الكتب المترجمة . وقد شاعـت فى تلك الفترة، بنـوع خاص، مؤلفـات كولن ويلسـون، وترجمت أعمال كـافكا، وبيكيت، ويونسكو، وسارتـر، وكامى، وفولكنر، ومارسيل بروسـت ، وجيمس جويس، وفرجينيا وولف، وغيرهم كثيرون من كتاب العبث .

وفى ظل هـذا الجو العبثى، قـام « الدسـوقى فهمـى» بترجمة رواية « أمـريكا» إلى اللغـة العربية .

ويبـدو أن هذه الترجمة، تمثـل التجربـة الأولى لصـاحبها، فقـد جاءت غير دقيقـة، لم يتحقق فيها الركنان الأساسيان للترجمة وهما : وضوح المعنى كما تريده اللغة المنقولة منها، ثم أداء هذا المعنى بأسلوب اللغة المنقولة إليها، وهذا مالم يلتزمه المؤلف فى حالات فى كثيرة .

فالمعنى قد يأتى غامضا، لايعين على فهم مـايريده كافكا ، ففى ص ٩٧ من الرواية فى طبعتها باللغة الإنجليزية، يقول كافكا :

"In that case, it was no great honour, certainly, to sleap in theier room , but it was less risky. yet, he must not fall·asleap on any a ccount , until he was certain of this beyoncl all doubt(1)" .

إن كافكـا فى هذه الفقـرة، يتحدث عـن كارل وقـد ذهب إلى فنـدق صغير ورخيص، ليبيت فيه، ودخـل حجرة تخلو من الأثـاث، ووجد فيها شابين ظنهما مـن خدم الفندق، وانتظر أن يغـادرا الفراش ، حتـى يستطيع أن يبيت مكـانهما، ومن هنـا يمكن تـرجمة هذه العبارة على النحو الآتى :

« ليـس شرفا كبيرا أن أبيـت مكانهما . ولكـن هـذا على أى حال أفضـل من غيره وأقـل مجازفة . ومع ذلك فينبغى أن أكون حذرا حتى لا أستغرق فى النوم كلية، وقبل أن أتأكد من أن جميع شكوكى قد ولت» .

ولكن المترجم يتمسك بالأصل حرفيا، فيترجم العبارة السابقة ، من باب المثال ، ترجمة غامضة، لاتستطيع من خلالها أن تفهم المعنى، حتى تستشير الأصل ، إن المترجم يقول :

(١) Amerika , p. 97.

« فلم يكن أمامه مايدعو إلى الفخر فى هذه الحالة أيضا دون شك ، إن كان عليه أن ينام فى حجرتها بعد أن يغـادرها ، لكنه على أية حال أمـر يقل فيه عنصر المجازفـة ، ومع ذلك فليس له أن يستغـرق فى النوم استغراقا تاما ، مهما كـانت الأحوال ، حتى يتأكـد من صحة افتراضاته هذه بصورة لاتقبل الشك» (ص٩٢) .

أما مراعاة مقتضيـات اللغة المنقولة إليها ، فإن هـذا يفلت كثيرا من المترجم . إن الاهتمام بالترجمة الحرفيـة ، التى تعتمد على نقـل المفردات ، جعلـه لايهتم بأداء المعنـى المراد فى اللغة المنقولـة منها ، حسب روح اللغة المنقـولة إليها ، وهى اللغـة العربية فى مثل تلـك الحالة ، ويمكن أن نكتفى بمثالين من باب التدليل ، وليس من باب الاستقصاء .

المثال الأول ، يتمثل فى العبارة "here you" ، وهى عبارة شائعة ، حتـى فى الحياة اليومية فى لندن ، وتعنى « اتفضل» فى اللغة العربية ، ولكن المترجم ينقلها هنا حرفيا ، ويقول «هنا أنت» (انظر ص ٢٢٩) .

أما المثال الثانى ، فهو يتعلق بترجمة الأعلام الشائعة تـاريخيا ، وتملك مقابلا عربيا سائغا أيضا . إن أعلاما مثل أبرام ، وإيزاك ، وجيكوب ، وجوزيف ، ودافيد ، ومارى ، وجيزس ، لها مايقابلهـا فى اللغة العربية ، وهـو : إبراهيم وإسحاق ، ويعقـوب ، ويوسف ، وداود ، ومريـم ، وعيسى . فالمترجـم لاينبغى أن يتحدث عـن هذه الأعـلام ، وكأنه يترجـم لقارئ إنجليزى ، ولكـن يجب أن يترجمها إلى اللغة العـربية ، لأنه يتـوجه بها إلى القارئ العـربى . ولكننا نجد « الدسوقى فهمى» يترجـم عنوان الفصل الثانى : إلى « الخال جيكوب» ، بدلا من أن يترجمه إلى الخال يعقوب .

ولكن الترجمة غير الدقيقة ، قد تكون لها دلالات فى ميدان الأدب المقارن ، أكثر مما يكون للترجمة الدقيقـة . إن ترجمات المنفلوطـى ليست هى من بـاب الترجمة الدقيقة ، ولكنهـا من باب التمصير أو التعـريب ، ولكنهـا قد فعلـت الكثير فى مسيرة الأدب العربـى الحديث ، أكثـر مما فعلتـه أو تفعله تـرجمات جامعيـة دقيقة . وذلـك ، لأن المنفلوطـى اتخذ من هـذا التعريب سلما للتعبير عن النزعة الرومانسية ، التى كانت سائدة فى عصره ، وإشباعا للحظة تاريخية معينة . ومـن هنا ، أقبل عليها الشباب إقبالا كبيرا ، ممـا جعلها تلعب دورا خطيرا فى ازدهار الفن القصصى الحديث .

والأمر كذلك بالنسبة لترجمة رواية « أمريكا» فقد جاءت تعبيرا عن لحظة تاريخية معينة ، سادت فيها نزعة العبث . ومن هنا ، أقبل أدباء الستينيات على هذه الترجمة ، التى أدت دورا كبيرا تداخل مع عوامل أخر، فأدى إلى سيادة النزعة الفاوستية ، واستيحاء أدباء الستينيات لهذه النزعة فى أعمالهم الروائية .

ولعلى بذلك أكون قـد اقتربت من إجابة السؤال المطروح سابقـا ، عن المصدر الأساس للبطـل المراوغ عند أدبـاء الستينات ، وهـل هذا المصـدر يتمثل فى صـورة البطل فى طبعتـه العربية ، أو هو يتمثل فى صورة البطل فى طبعته الفاوستية؟

وظاهـر ، أن النزعـة العبثية قد سيطـرت على أدباء الستينيات ، لأسبـاب عديـدة ، فلم يلتفتوا إلى مافى رواية كافكا من حـس شرقى ، يتمثل فى تناول الشخصيات بخفة ، وفى الجو المرح الذى يشبه الاستعراضـات ، وفى طابع الرحلة والمطاردة ، وأهم مـن كل ذلك الشكل الذى لايـدور فى نطاق التقليديـة ، ولكنه يتخذ شكـلا يقوم على مغـامرات ساخـرة داخل المجتمع ، ويعارض فيه كافكا ذلك الشكـل المتمثل فى قصص الشطار. ولكنهم التفتوا إلى مافى هـذه الروايـة من نـزعة فـاوستية ، نتيجـة للتشكيل الحضـارى الذى أضفتـه الحضارة الأوروبية على هذا النوع من الأدب .

ومن هنا مالت معظم الروايات عند أدباء الستينيات إلى هذه النزعة العبثية . ويمكـن أن نضرب مثـلا على ذلك مـن واقع روايتين : إحـداهما ، لعبده جبير، تحت عنـوان : « ثلاثيـة سبيل الشخص» . والأخرى ، لمحمد مستجاب ، تحت عنوان : « نعمات عبد الحافظ» . مع احتراز لابد من التنبيه إليه ، وهو أننى لا أتنـاول هاتين الروايتين من حيث القيمة الفنية ، أو من حيث تأثيرهما الـواضح فى مسيرة الرواية المصرية ، فقد سبق لى ذلـك فى الجزء الرابع من كتاب « مقالات فى النقـد الأدبى» . أما هنا ، فإننـى أتعرض لهما من منظور النـزعة العبثية ، ودلالتهـا على فكرة التشكيـل الحضارى ، ونحـن نتابـع مسيرة البطل المراوغ مـن الشرق إلى الغرب ، أو من الغرب إلى الشرق .

أما « ثلاثية سبيل الشخص » ، فهى عن شخص يركب عجلة ويجوب دروب القاهرة ، بحثا عـن شخص اسمه على ، وعـن سبيل اسمـه « سبيل الشخص» . إن عبـده جبير هنا يعارض رحلات السندباد ، وقد نجح فى الإيهام بالمعارضة ؛ فجاء الشكل ، وجاءت اللغة ، وجاءت كل إشارة فى الرواية ، تخدم هذه المعارضة .

ولكنها معـارضة من نـوع فاوستى ، تتميز بـالكآبة ، وبعبثيـة المحاولة . وقـد سبق لى أن أوضحت ذلك بالتفصيل ، فى مقالة تحت عنوان : « سندباد على عجلة»[1] ، وقلت :

« نحن هنا إزاء نموذج سندباد ، ولكنه سندباد من نوع جديد ، ويختلف تمام الاختلاف . فإن السنـدباد البحـرى خرج يطلب الغنـى ، ودخل فى مغـامرات أثبت فيهـا تفوقـه وسعة حيلته ، ثم عـاد محملا بالكنوز ، ليستمتـع بالدنيا ، وليجلس كـل ليلة مع صحابـه ، يأكل

(١) مجلة إبداع (يونية ١٩٨٤م) .

معهم أطايب الطعام، ويقص عليهم مغامرات البحار. أما سندباد عبده جبير، فهو يبدأ الفصل الأول محبطا، لايجد من يمد له يد العون، ويدخل في الفصل الثاني السجن عن طريق الصدفة، وينتهي في الفصل الثالث في جو المطاردة والهلوسة، حتى ينفض يده عن الأمر، ويأخذ فيما يأخذ فيه، من صبر على لقمة العيش، وسعى وراء الزوجة والأولاد، وأخذ بطقوس الحياة، « فهكذا هي الدنيا»، وتلك هي آخر جملة تنتهي بها الرواية، جملة صابرة مستسلمة، قد نفضت يدها عن الأمر كله».

أما رواية « نعمان عبد الحافظ»، فهي عن بطل مجرد من كل شيء، لاثقافة، لا تاريخ، ولا انتماء، ولكن المؤلف يحركه خلال أحداث جادة، ويعامله معاملة أبطال التاريخ. إن المعارضة هنا تأتي من باب التهكم اللاذع، الذي يحيل خصلة الشعر في رأس نعمان، إلى حدث كبير تهتز له الطبيعة، وتشيب الولدان. ومستجاب يرمي من خلال هذا التهكم اللاذع، إلى نوع من العبثية، يتساوى فيها التافه من الأمور مع الجاد، وتتساوى أحداث نعمان مع أحداث أبطال التاريخ، وهي عبثية مغلفة بشيء من العنف جارح، يجعل من كلمة الدم كلمة أثيرة في قاموس هذه الرواية. وهذا مارصدته بالتفصيل في مقالة تحت عنوان « الرواية المصرية والبطل الوغد»[1]، وقلت:

« فإذا كانت الطبيعة تهتاج في مسرحيات شيكسبير، لأن هناك شيئا ما قد مس نبل الأشياء، فإنها هنا تهتاج من أجل قرن شعر. وإذا كانت خطيئة البطل التراجيدي في أنه يتحدى نبل الأشياء، فإن خطيئة البطل الوغد هنا في أنه « مش متظاهر». وهذا الاكتشاف الخطير الذي يثير الحس العبثي يتغلغل في بنية الرواية. إنه لايرد في هذا الفصل ثم ينتهي، بل يمتد إلى بقية الرواية، وكأن العبث شيء أصيل في عالم نعمان عبد الحافظ... ومنظر الدم يتكرر في هذه الرواية، فيزيد نغمة العنف توهجا. ينبثق الدم قانيا في فصل الختان، بين الزغاريد والرقص وفرحة الأم. وينبثق الدم في فصل العرس « معلنا انتهاء الجزء الأول من حياة نعمان، ومؤذنا للقوم المنتظرين بإطلاق أعيرتهم النارية، والمنديل الدموي يلقى فوق رءوس الحشد. وبتلك الصورة الدامية تنتهي الرواية».

فإذا كانت رواية عبده جبير قد جاءت خلال الشكل الشعبي، فإن رواية مستجاب قد جاءت خلال الشكل التاريخي. وغيرهما كثيرون كتبوا خلال الشكل الأصيل، سواء في صورته الشعبية أو التاريخية، ولكنهم لم يستوحوا رؤية هذا الشكل، كتعبير عن حضارتهم الشرقية، بل ارتموا في أحضان النزعة الفاوستية، التي ألقت بظلال لها عن طريق التشكيل

(١) مجلة إبداع (يناير ١٩٨٥).

الحضارى، على مختلف المظاهر الفكرية والفنيـة، لأنها تصدر عن حضارة غالبة، تستطيع أن تلوى عنق المغلوبين .

.

ـ ١٥ ـ

كانت هذه الرحلة التاريخية مع البطل المراوغ، وهو يتنقل من الأدب الفصيح إلى الأدب الشعبى، ومن الأدب العربى إلى الأدب الإنجليزى، ثم أخيرا وهو يعود إلى مكانه منكسرا، يدارى سوءتـه كما هو الحال عند مستجاب، أو ينفـض يديه عن الأمـر كله، كما هو الحال عند عبده جبير.

لقد عاد سندباد الليالى ظافرا محملا بـالكنوز، قد وجد نفسه، ووجد أصحابه، وجلس بينهم يستمتع بحياة تلقائية، سعيدة وراضية. وحق له ذلك، لأنه مرتبط بقومه، يعبر عن أحلامهـم، ويعكس رؤيتهـم. إنهم أعطوه فأعطـاهم. أعطوه رؤيـة تحميه مـن الضياع، فأعطاهـم فنا، يعبر عن وجدانهم، ويعكس أحلامهم، ويجسد خيالهم .

وتلك هى العبرة من هذا العرض التاريخى .

إنها عبرة تعنى فى المقام الأول، أن التراث القصصى عند العـرب هو نتيجة حضارة، لها خصـوصيتهـا، التى تنعكـس فى رؤيـة وفى تطبيـق. ومـن هنا، كتـب لهذا التراث الحيـاة والاستمرار، ينتقـل فى ثقة مـن جنس إلى جنـس، ومن حضـارة إلى أخرى. يعبر البحـار، ويصعد الجبـال، دون أن يفقد نفسه، كهـذا الفارس العـربى، الذى يقتحـم الصحراء، ويصارع الظباء، ثم يعود منتشيا يحمل صيده، ويتغنى بشعره.

وهى عبرة تعنى أيضـا، فى المقام الثانى، أهميـة البحث عن الخصوصيـة، ونحن نتكلم عـن حضارة لنـا معاصرة، فبـدون هذه الخصـوصيـة، نخضع للقـانون التـاريخى، قانـون «التشكيل الحضارى» ونصير كالماء نتلون بلون الإنـاء، ويتحول السندباد، أو على الزيبق، أو السروجى. إلى شخصية تـائهة ممزقة، تمامـا مثل شخصية « مصطفى السعيـد» فى رواية «موسـم الهجرة إلى الشمال» ؛ فقـد مسته جرثـومة الحضـارة الأوروبية، كما يقـول المؤلف، فأفسدته، حتى أسلمته إلى الانتحار، وسط دوامـات النيل المتداخلة، والتى أفقدته القدرة على التمييز، واتخاذ الموقـف، فلا يـدرى إن كانـت ستتجه بـه إلى الجنوب، أو تحملـه إلى الشمال.

المصادر والمراجع باللغة العربية

مرتبة هجائيا حسب العنوان

١ ـ الأدب المقارن : محمد غنيمى هلال . (القاهرة ـ مكتبة الأنجلو ـ ١٩٦٢) .

٢ ـ أشبنجلر : عبد الرحمن بدوى (القاهرة ـ النهضة المصرية ـ ١٩٤٥م) .

٣ ـ الأغانى : أبو الفرج الأصبهانى . (القاهرة ـ طبعة دار الكتب) .

٤ ـ ألف ليلة وليلة (٤ أجزاء) . (القاهرة ـ مكتبة صبيح ـ د . ت) .

٥ ـ أمريكا : فرانز كافكا . ترجمة : الدسوقى فهمى . (القاهرة ـ روايات الهلال ـ أغسطس ١٩٧٠م) .

٦ ـ أيام وليالى السندباد : ألفريد فرج . (القاهرة ـ كتاب الهلال ـ ١٩٨٧م) .

٧ ـ ثلاثية سبيل الشخص : عبده جبير . (القاهرة ـ دار التنوير ـ ١٩٨٣م) .

٨ ـ حديث عيسى بن هشام : محمد المويلحى . (القاهرة ـ دار المعارف ـ د . ت) .

٩ ـ الحوات والقصر : الطاهر وطار . (القاهرة ـ روايات الهلال ـ يونيو ١٩٨٧م) .

١٠ ـ رحلة ابن فطومة : نجيب محفوظ . (القاهرة ـ مكتبة مصر ـ ١٩٨٣م) .

١١ ـ رسالة الغفران : أبو العلاء المعرى . (القاهرة ـ دار صادر ـ د . ت) .

١٢ ـ شرح مقامات الحريرى : الشريشى . (القاهرة ـ المؤسسة العربية الحديثة ـ د . ت) .

١٣ ـ ظاهرة الكدية فى الأدب العربى : د . حسن إسماعيل (القاهرة ـ مكتبة الزهراء ـ ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م) .

١٤ ـ العقد الفريد : ابن عبد ربه . (القاهرة ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ د . ت) .

١٥ ـ على الزيبق : فاروق خورشيد . (القاهرة ـ روايات الهلال ـ ١٩٦٧م) .

١٦ ـ قصص العشاق النثرية : عبد الحميد إبراهيم . (القاهرة ـ دار المعارف ـ ١٩٨٧م) .

١٧ ـ القضية : كافكا . (القاهرة ـ دار الكاتب العربى ـ د . ت) .

١٨ ـ ليالى ألف ليلة وليلة : نجيب محفوظ . (القاهرة ـ مكتبة مصر ـ ١٩٨١م) .

١٩ ـ مقالات فى النقد الأدبى : عبد الحميد إبراهيم . (القاهرة ـ دار الهداية ـ ١٥ جزءا) .

٢٠ ـ المقامات الأدبية : الحريرى . (القاهرة ـ الحلبى ـ ١٩٥٠م) .
٢١ ـ نعمان عبد الحافظ : محمد مستجاب . (القاهرة ـ مكتبة النيل ـ ١٩٨٢م) .
٢٢ ـ النقد الأدبى الحديث : محمد غنيمى هلال . (القاهرة ـ نهضة مصر ـ ١٩٧٣م) .
٢٣ ـ الوسطية العربية : عبد الحميد إبراهيم . (القاهرة ـ دار المعارف ـ ٥ أجزاء) .

المصادر والمراجع باللغة الإنجليزية

مرتبة هجائيا حسب المؤلف

1- David, Cecile, Poets and Story Tellers, London, N.D.

2 - Fawler, Roger (ed) A Dictionary of Critical Terms, London 1973.

3 - I.A. Gudden (ed) A.Dictionary of Literary Terms, Penguin Book. 1979.

4 - Kafka, Franz, Amerika, New York, 1964.

5 - Malcolm Bradbury (ed), The Novel Today, London 1978.

6 - Roleit Taubman , (ed), the Penguin Book to European Short Stories, London, 1969.

7 - Shipley, A Dictionary of L iterary Terms, London 1970.

8 - Tresk, Georgiann and Burkhart (Eds.) Storytellers and their Arts, New York 1973.

الفصل الثانى

البنائية

بين الحريرى ورولان بارت

دراسة مقارنة حول المناهج الأدبية

-١-

أقرأ للواحد من نقاد الحداثة ، فكأننى قد قرأت للجميع . وأقرأ كتاب الواحد منهم ، فكأننى قد قرأت جميع كتبه .

وما أظن أن ذلك بسبب ذكاء نادر عندى ، وإنما لأن المصادر واحدة . واللغة واحدة . بل إن المصطلحات والأعلام تكاد تتكرر من ناقد إلى ناقد ، ومن كتاب إلى آخر .

-٢-

وليس من الصعب متابعة المصادر عند نقاد الحداثة ؛ فهم يذكرونها ، ويكررونها ، ويتباهون بها . ونظرة إلى ثبت المصادر فى مؤلفاتهم ، أو إلى فهارس الأعلام عندهم ، تدل على المباهاة الشديدة بالمصادر الأجنبية ، وعلى الولع بترديد الأعلام الإفرنجية .

وهم ، بذلك ، يريدون أن يظهروا بمظهر المتعالى على القارئ ؛ يعرفون مالايعرف ، ويرددون من المصطلحات مالايردد ، ويلوكون ألسنتهم بالأعلام الأعجمية بمالاتستطيعه ألسنة الآخرين ، ويضعون الكثير من الكلمات الأجنبية فى مقابل الكلمات العربية ، وتبدو الصفحة الواحدة عند بعضهم خليطا عجيبا من الحروف العربية والأجنبية ، تربك القارئين العربى والأجنبى معاً ؛ فكأنها لم تكتب بلغة واحدة ، ولكن كتبت بلغات عديدة .

-٣-

وتبلغ العزلة ببعضهم أن يتعشق كاتبا أجنبيا ، ويتوحد بأفكاره . فهو يردد اسمه فى كل مناسبة ، ويشير إليه فى كل مرجع ، ويصبح فى النهاية صدى له ، يود حتى أن يتسمى باسمه لو استطاع .

وهكذا ، عرفت ثقافتنا العربية المعاصرة من يتعصبون لسوسير، حتى أصبح سوسير عربيا ، ومن يتعصبون لبوشلار حتى أصبح بوشلار عربيا ، ومن يتعصبون لرولان بارت ، حتى تحول إلى رولان فى طبعة عربية .

- ٤ -

وتبدو المصطلحات عند نقاد الحداثة فى صورة مربكة. فمصطلح مثل « النقد الجديد» يختلط مع مصطلح مثل « الحداثة». ومصطلح مثل « الرواية الجديدة»، يختلط مع مصطلح مثل « الرواية الضد». ومصطلح مثل « تيار الشعور »، يختلط مع مصطلح «الرواية النفسية». ومصطلح مثل « العبثية» ، يختلط مع مصطلح مثل « العدمية» و«اللاشيئية» أو حتى « الوجودية».

- ٥ -

والأعلام، أيضا ، تتداخل. إن كتابا من القرن التاسع عشر يوضعون فى سلة واحدة مع كتاب من القرن العشرين، مع الفارقين التاريخى والمنهجى بين كل منهم. وإن كاتبا، مثل كافكا، يوضع فى التيار العبثى مع صمويل بيكيت، دون تبين للفارق. وكاتب، مثل سارتر، ينظر إليه ككاتب طليعى لايختلف عن يونسكو.

- ٦ -

وتكون النتيجة أن القارئ لايعرف شيئا. وأتحدى أى قارئ أن يخرج من مؤلفات نقاد الحداثة فى العالم العربى، بالفارق بين البنيوية ومابعد البنيوية، والحداثة وما بعد الحداثة، والسيميولجية والتشريحية، والأسلوبية والألسنية. أو يعرف الفروق الدقيقة بين مناهج كل من: كافكا، وبيكيت، وسارتر، ويونسكو، وفولكنر وألان روب جرييه.

إن القارئ لايعرف ذلك لسبب بسيط، وهو أن المؤلف نفسه لايفهم مايقرأ. هو فقط مأخوذ بالحداثة. يسرع إلى تقديم المصطلحات الأعجمية، والأعلام الأجنبية. ويكتسب بذلك منزلة عند القارئ، وتتسابق الصحف وأجهزة الإعلام إلى التقاط همهمته؛ فهو يعرف مالا يعرفه غيره، وهو يجيد ثقافة العالم الغربى أكثر مما يجيدها الآخرون، وهو يرطن بلغاتهم، ويتحمس لأفكارهم أكثر مما هم يتحمسون.

- ٧ -

ومن الصعب جدا أن تصنف أقوال الحداثة فى العالم العربى، أو وصفها فى سياق منظم ومفهوم؛ فهى كثيرة، متداخلة ومتضاربة.

ولكن ، وعن طريق الاستعانة بالمصادر الأصلية التى نقلوا منها ، يمكن تصنيف أفكارهم فى ثلاث قضايا ، وكل قضية تترتب على الأخرى ، وذلك على النحو الآتى :

١ ـ موت المؤلف .

٢ ـ النصية ، أو ما يمكن أن نسميه بالتركيز على الشكل ، كنتيجة للقضية الأولى .

٣ ـ مشاركة القارئ كنتيجة للنتيجة .

وهى قضايا مقتطعة برمتها من سياقها الغربى ، ودون أن تجد لها سياقا مناسبا فى العالم العربى ، لأنها فى الأساس مرتبطة بلحظة تاريخية معينة ، وبظروف بيئية خاصة . فتجريدها من هذا السياق التاريخى والبيئى يعنى تجريدها من معانيها الحقيقية ، وتحويلها إلى قضايا باردة . تفتقد المبرر، وتقال للمباهاة أو للتدريب الذهنى .

موت المؤلف

ـ ٨ ـ

إن فكرة موت المؤلف ترتد فى مصدرها الغربى ، إلى جذور فلسفية ، تمتد إلى بنية الحضارة الأوروبية نفسها .

فقد أعلن «نيتشة» مقولة « موت الإله» ، ولاقت هذه الفكرة ترحيبا شديدا فى الأوساط الأدبية والفكرية ، لأنها كانت تعبيرا عن اللحظة التاريخية ، التى تمر بها أوروبا فى ذلك الحين .

فهذه المقولة ، تعنى زحزحة الغيبيات والميتافيزيقيات بعيدا ، لتفسح الطريق أمام ظهور الإنسان . فالحقيقة هى مايستطيعه الإنسان ، وما يمكن أن يكون فى متناوله ، وماعدا ذلك فهو ميت ، أو ينبغى أن يعد ميتا .

وهذا المفهوم ، يعنى صياغة جديدة للمذهب الإنسانى "Humanism" ، الذى تأسست عليه الحضارة الأوروبية ، منذ نشأتها فى عصر النهضة ، وهو مذهب يجعل التفكير دائما محصورا فيما هو من إمكانية الإنسان ، ويبعد عن المسرح كل ماهو وراء ذلك ، ويعتبره نوعا من الميتافيزيقيات ، أى ماوراء الطبيعة ، كما تفيد الترجمة الحرفية لهذه الكلمة .

وقد انتقلت مقولة « موت الإله» إلى الأدب ونقده ، تحت مسميات متشابهة . فأعلن الأدباء موت الشخصية فى مجال الأدب ، وأعلن النقاد موت المؤلف فى مجال النقد ، وغير ذلك من مسميات ، ترتد فى جملتها إلى مقولة « نيتشة» الفلسفية ، وتعكس بنية الحضارة الأوروبية .

كانت الشخصية فى العصر الواقعى ، وخاصة فى روايات « بلزاك » و«ديكنز» ، هى محور العمل الأدبى ، تعكس ــ فى حالة البطولة الفردية ـ موقف المؤلف من المسائل المطروحة ، وتعكس ـ فى حالة التعدد ـ وجهات النظر المختلفة التى تمثلها كل شخصية من شخصيات العمل الأدبى .

ومن هنا ، كان المؤلف يحرص على رسم الشخصية فى صدق فنى . فهو يقدم أوصافها الحسية ، وهو يتسلل إلى نفسيتها الداخلية ، وهو فى كل ذلك يحاول أن يبعث الشخصية حية وتضاهى الواقع .

ومن هنا ، فإن بعض الشخصيات الأدبية ، تكتسب شهرة أكثر مما تكتسبه الشخصيات التاريخية أو الواقعية . إن شخصيات ديستويفسكى وتولستوى وبلزاك وشيكسبير لها من الشهرة والوجود مايفوق الكثير من الشخصيات الحقيقية .

وكان هذا الدور للشخصية يعكس تركيبية المجتمع البورجوازى فى أوروبا ؛ فهو مجتمع يقوم على الصراع والغلبة . وينتهى الصراع فى نهاية الأمر إلى بروز إحدى الشخصيات التى تمثل دور البطولة ، وتكون محور ارتكاز ، تدور حولها بقية الشخصيات .

وتغير هذا الموقف مع التغيرات السياسية ، ومع التقليل من البطولة الفردية ، والتهوين من الضغوط الاجتماعية ، والتقاليد الموروثة ، وإفساح الطريق للإنسان لكى يعبر عن ذاته ، ويصنع نفسه .

ومن هنا ، أصدر كلود أولبير مسرحية ، تحت عنوان «موت الشخصية» [١] ، اعتبرت نقطة تحول ، لأنها قامت على مفترق طرق بين الشخصية بالمعنى البلزاكى ، دين الشخصية بمعناها الجديد .

ومن هنا ، تعمد الفنان أن يشوه معالم الشخصية ، وأن يجردها حتى من الاسم . «فجيد Gide ابتعد عن اسم الأسرة بشخصياته حتى لايضعهم فى عالم شبيه بعالم القارئ . وبطل كافكا سمى بالحرف الأول K ، والذى ربما يرمز إلى كافكا نفسه . وجويس استخدم أيضا بعض الحروف مثل H.C.E . وفولكنر فى روايته الصخب والعنف ، كان يستخدم الاسم الواحد لشخصيتين مختلفتين ، فكان يطلق اسم كونتين على الخال وبنت أخته ، ويطلق اسم كادى على الأم والبنت معًا . وكان الاسم ينتقل من شخصية إلى أخرى أمام عين

---

(١) Surfiction , P. 1012.

القارئ ، مثل قطعة السكر أمام أنف الكلب. إن القارئ ، بذلك ، يظل دائما فى حالة استنفار، وبدلا من أن يترك نفسه للأعمدة التقليدية تهديه طريقه ، أو إلى العادة تتملق كسله ، يضطر إلى التعرف على شخصياته دون بطاقة »[١] . وبيكيت غير اسم وشكل بطله فى رواية واحدة[٢] .

والشخصية فى إحدى روايات جرييه ترفض أن تكون لها وظيفة محددة . مرة تكون كاتبا ، وثانية رساما ، وثالثة ممثلا ، ورابعة مرابيا ، وخامسة دكتورا ، وسادسة عميلا لإحدى المخابرات . حتى جنسيتها لاتعرفها ، إن كانت فرنسية ، أو هولندية ، أو بريطانية[٣] .

إن الهدف هو إخفاء الشخصية ، التى ترفض كل بعد نفسى أو جسدى يقربها إلى القارئ ؛ فلا اسم ، ولاوظيفة ، ولا انتماء . إن شخصيات سارتر غير شرعية ، وشخصيات ديورا تميل إلى الضديات ، وشخصيات ساروت غير حقيقية .

ومن ثم ، نفر الأديب المبدع من علم النفس التحليلى ، الذى يتبطن داخل الشخصية ، ويقدم أبعادها النفسية . وقد رفض المبدع كل « تكنيك » فنى ، يقوم على هذا التحليل النفسى ، وفضل علم النفس الوصفى Descriptive Psychology ، تأثرا بآراء هو سرل وسارتر حول الاهتمام بالظاهريات .

إن الشخصية الجديدة صورة « للغريب » ، الذى لايستجيب للمتغيرات الاجتماعية ، مثل روكانتان عند سارتر ، ومير سول عند كامى ؛ فكلاهما إنسان متوحد لاطموح ، ولاقيم متعالية .

وكذلك الشخصية عند « جرييه » ، دائما فى حالة بحث ، وهو بحث يخلق بنفسه دلالات نفسه : « هل للواقع معنى؟ لايستطيع الفنان الآن أن يجيب عن هذا ، وكل مايستطيعه بعد أن يفرغ من عمله ، أن يدعى أن العالم قد أصبح له معنى . إننا لانستطيع أن نؤمن بالنظام المتعالى ، الذى كان يفرضه القرن التاسع عشر؛ فنحن نؤمن بالإنسان الذى يستطيع أن يمنح العالم دلالته ، ومن خلال الأشكال التى يخلقها . إن البطل الجديد أكثر فردية من بطل بلزاك . فالمؤلف فى الرواية التقليدية ، حاضر فى كل شىء ، وعالم بكل شىء إنه يعلم ماضى الشخصية وحاضرها ومستقبلها ، ويعرف بواعثها الشخصية ، ويستطيع أن يتنبأ بردود أفعالها . إنه باختصار إله يحرك شخوص رواياته . والعكس تماما فى الرواية

---

(١) Towards a New Novel, P.58.

(٢) Surfi ction, P. 106.

(٣) Towards a New Novel, P.140.

الجديدة، فالإنسان، وليس المؤلف ، هو الذى يرى ويحس ويتخيل، إنسان محدود فى زمان ومكان، وله عواطف وانفعالات خاصة، إنسان مثل كل إنسان، والرواية لاتقدم شيئا سوى تجربة هذا الإنسان»[1] .

وتؤكد ساروت هذه المعانى. فتجربة الشخصية تتحول إلى مغامرة خاصة، وهى نقطة انطلاق للمؤلف والقارئ معًا، يمارسان تجربتيهما الخاصتين. « إن الشخصية هجرت المعنى البلزاكى، الذى كانت تحاول فيه أن تقبض على الحقيقة. إن هذا المعنى يفترض فى القارئ حالة كسل وخوف من الجديد، إن القارئ اليوم يعرف أن الشخصية ليست سوى بطاقة، يستخدمها لتصنيف مشاعره الخاصة. هو قارئ ناضج، عرف جيمس جويس وبروست وفرويد، وأدرك المعانى الدقيقة، التى تميز بين شخصية وأخرى، وتعطى لكل شخصية مسارها الخاص. إن الشخصية ذات وجود احتياطى ومحدود، مجرد وجود اقتطع من النسيج العام، الذى يضمنا جميعًا. لقد أمسك داخل الشبكة، أى داخل الكون العام. والقارئ مثل الجراح الذى يركز على نقطة صغيرة، وينسى بقية أجزاء الجسم. إنه يركز على حالته النفسية الجديدة، وينسى بقية الحقائق العامة، ومنذ أن ألحت المدرسة الموضوعية، على أنه لاجدوى من محاكاة الحياة، أو إعادة خلقها، لأنها تحتوى على تعقيدات كثيرة، منذ ذلك الحين فضل القارئ أن يحصر طاقته، فى الافتراضات التى تبحث عن الحقيقة، وأن يستخدم وسائله الخاصة، لكى ينتزع الأسرار من المغاليق التى أمامه، لقد بدأ يشك فى المؤلف، وفيما إذا كانت مقترحاته تستطيع أن تجعله يدرك الموضوع. إن الشخصية بدأت عصر الشك، رافضة كل الحلول الجاهزة»[2].

النصية

- ١٠ -

ويأتى النقد فى العالم الغربى فيبارك هذا الوضع، ويعلن « موت المؤلف » . إنه لايأتى من فراغ، فهو امتداد لفلسفة تضرب فى بنية الحضارة الأوروبية. وهو يستخلص أحكامه من نماذج أدبية، عند جيمس وبروست وجرييه وساروت. لقد حرصت فى الفقرة السابقة أن أكثر من أقوال الأدباء، وأن أشير إلى أعلام الرواية، لكى يدرك القارئ أن أحكام النقاد فى العالم الغربى، إنما تتأسس على فلسفة ونماذج، ليست مستوردة من باب المباهاة، والتلاعب اللفظى.

---

(١) Towards a New Novel, P.140.

(٢) The Age of Suspicion, P.87.

إن جرييه فى النص السابق، حين يشبه المؤلف بـإله، إنما يريد أن يشير إلى مقولةنيتشة، وهى مقولة تعبر عن لحظة تاريخية قديمة، وعن حالة تاريخية جديدة.

وساروت، حين تتحـدث فى النص السابـق، عن القـارئ الذى يخلق الشخصيـة من جديـد، ولايتعامل مـع شخصية جاهـزة تفرض عليـه الموقف، إنها بذلـك تشير إلى قارئ معين، أو على حد تعبيرهـا إلى قارئ نـاضج، عـرف جيمس وبـروست، وفهـم الفرق بين الواقعية التى تحاكـى الواقع، والموضوعية التى تتحدث عـن واقعها الخاص، الذى يقتطعه من السياق العام.

إن موت الشخصية، يعنى اختفاء القيمة فى الأدب. ويـأتى النقد عقب ذلك، فيقعد لهذا المعنى، ويطـرح مقولة « مـوت المؤلف»، ويعنى بها اختفـاء كل القيم التـاريخية، أو الاجتماعية، أو النفسية، أو حتى « الفنية».

وأقول حتى « الفنية» لأشير بذلك إلى جماعة « الفن للفن» art for art sake، التى ظهرت فى القـرن التاسـع عشر، وهى جماعـة تحارب الخطـابة والمبـاشرة والعظة فى الأدب، ولكنهـا تحتفى بـالقيمة الفنية، التى تجعـل من الأدب رسالة، تطهـر القارئ، وتخفف من نـوازعه الشريرة.

إن موت المؤلف يعنى انتهاء عالم الميتافيزيقيات، أى ماوراء النص، وطرح النص كعالم مستقل بنفسه، لايعتمد على شىء خارجه.

وتكتب سوزان سونتاج Susan Sontag كتابا، تحت عنوان « منـع التأويل» Against Interpretation تهاجـم فيـه فكـرة القيمة فى الأدب تحت أى مسمـى، وتنظـر إلى النـص كشىء قائم بنفسه لايحتاج إلى تأويل من خارجه.

إن التأويل هو لعنة الثقافة على الأدب، كما تقول سونتاج، فهو ينتهك النص ويحوله إلى مقالة.

إن التأويل نشأ قـديما، بعد أن فقدت الأسطورة معناها. وأراد العلـم أن يمنحها معنى جديدا فأولها. إنـه لم يستطع أن يلغى النص، فقد كان فى القديم نصـا مقدسا، فحوره إلى معان أخر.

أما التأويل فى العصر الحديث فهو أشد لعنة، إنه لم يحترم النص، ولم يبق على قداسته، بل انتهكه وفرض عليه معانى عقلية بعيـدة عنه. إن ماركس يؤول النص لأغراض اجتماعية وصراعات طبقية، وإن فرويد يؤول النص مـن أجل تحليلات نفسية، وكل منهما يبتعد عن النص ليتحدث عما وراءه.

وتضرب سونتاج مثالا على لعنة التأويل من أعمال كـافكا. فقد تعرض لعدة تأويلات، كل منها تضعه فى جانب قد يختلف عن الآخر، ويُظهر كافكا بمظهر غريب.

فعلماء الاجتماع يرون فى كافكا صورة للإحبـاط فى عصر البيروقراطية التى تسلب الذات حرمتها. وعلماء النفس يرون فى أعماله عقدة بسبب الأب أو بسبب العجز الجنسى. وعلماء الدين يرون فى رواية « القضية» صورة للعدالة الإلهية التى تتدخل فى الوقت المناسب. ويرون فى رواية « القلعة» محاولة للحصول على إذن لدخول السماء من جديد.

-١١-

إن اختفاء القيمة فى العمل الأدبى، يفسح الطريق للاحتفاء بـالنص كما هو، أى كعالم مكتف بذاته؛ قيمته فيه، وليست فيما يشير إليه من تلميحات خارجية.

وسونتـاج فى كتابها السـابق تستخـدم مصطلح "Trensparence" وتعنى به معـاملة النص من الخارج، ودون الغوص فى الأعماق.

والتركيز على النص كبنيـة أو نسيج، لم يأت عند نقـاد الحداثة فى الغرب من فـراغ، بل سبقته أعمال أدبيـة، تخلصت مـن الشخصية بمعناهـا البلزاكـى، وحلت محلهـا شخصية أخرى، شفافة Transparen ce لاتشير إلى شىء خـارج عالمها، ومـرنة كلدائن الـزجاج المحمَّى، تستنفر القارئ ليشكلها كما يريد، وفى الآن نفسه.

وحين أقول « فى الآن نفسـه» فإن هـذا يعنى أنها لاتخضـع لقوالـب قد أعـدت فى لحظة سابقة، بل هـى تتهيأ للقالب الذى يصنعه القارئ. وهنـا يتضخـم دور القارئ، ويتحول إلى منتـج وليـس إلى مستهلـك، كما سنذكـر حينما نصـل إلى النتيجـة الأخيرة تحت عنـوان «مشاركة القارئ».

وتضرب سونتاج أمثلة لهذا النوع من الأدب الأملس من واقع روايات ساروت.

إن رواية Marlereau هى عن شاب لايحمـل أسما، يعيش مع خاله وخالتـه، ومع آخر يسمى Martereau. إن الشاب مشغـول بعملية بحث حـول الظروف Surrouned التى تحيط بـه وبتلك المجموعـة التى يرتبـط بها لأسباب لايعرفهـا. والرواية تخلـو من الحدث، سوى حدث وحيد، وهو مشروع الخال بأن يشترى له بيتنافى الريف. ويخيل للقارئ فى أول الأمر أن مارتيريو قد خدع الخال فى هذا المشروع، ولكنه يكتشف فى نهاية الأمر أن هذه مجرد شكوك لاتستنـد على أساس. إن شخصيات الـرواية لايرتكبـون حدثا على الإطـلاق. هم يتحركـون ويخفقون، ويـرتجفون، وبـدافع مـن التفصيلات التـافهة، التـى تمتلئ بها الحياة اليومية.

ويلتمس كولر Culler أمثلته لهذا النوع من الأدب الأملس ، والذى يخلو، على حد تعبيره، من القصدية indetermented Meaning يلتمسه فى روايات فلوبير Flaubert فهى تخلو من الحقائق الثابتة ، وتختلف اختلافا جذريا عن روايات بلزاك ، فيقول ، «لا توجد عند فلوبير فقرات كثيرة لاتخضع للغرض الموضوعى ، ولاتجدى معها العمليات التفسيرية»(١). ثم يورد مجموعة من هذه الفقرات اللغوية ، التى تخلو من المعنى ، حتى المعانى التى يشير إليها فلوبير فى بعض الأحيان ، كأن يوردها بطريقة عارضة وعشوائية ، وبصيغة المحاكاة الساخرة للعمليات التفسيرية فى روايات بلزاك .

ويمكن أن نضيف إلى ذلك ماسبق أن ذكرته عن رواية « المحاوات» لألان روب جرييه ، والتى صدرت سنة ١٩٥٣م(٢) .

فالرواية ، على المستوى الظاهرى ، تقليد ساخر لقصة « أوديب» . هى عن شاب يدعى « دلاس» أرسلته الحكومة كمبعوث للتحقيق فى جريمة قتل ، وتنتهى الرواية وقد اعترف الشاب بالجريمة ، وبأن القتيل هو أبوه .

وتتناثر فى الرواية إشارات إلى أوديب ، وإلى الألغاز التى يطرحها أبو الهول ، وهناك صلات بين مدينة طيبة ومنزل الضحية .

وقد تعرضت هذه الرواية لتفسيرات كثيرة ، نفسية وتاريخية وعقائدية ورمزية ، ووجد فيها البعض ظلالا لجيمس جويس فى روايته « يوليوس» ، وظلالا لسارتر فى روايته «الغثيان»(٣) .

ولكن كل ذلك فهم قاصر للرواية ، وتمزيق لعالم جرييه ، وهو عالم يتميز بالتحولات ، والتمزقات ، وإنهاك التسلسل التاريخى ، واستخدام الوصف فى ذاته دون دلالة . « إن هذه الإشارات إلى القصص القديمة ، تختلط بإشارات إلى الرواية البوليسية ، فتعطى جوا مرعبا لمأساة قدرية ، دون أن تحمل مغزى خلقيا ، أو تضمينا فلسفيا ، مما نجده فى الأسطورة القديمة . إن جرييه يستخدم أسطورة أوديب كإطار فقط ، يصبح من العبث أن تستنتج منه مفهوما عن القدر أو غيره»(٤) .

والوصف عند جرييه يأخذ مفهوما مغايرا للوصف عند سارتر. فليس هناك صلة بين وصف دلاس لقطعة الطماطم ، ووصف روكانتان لجذع الشجرة . فسارتر، لايزال حريصا على الرمز وعلى التضمينات الثقافية ، أما جرييه فهو يهتم للوصف بذاته دون أى

---

(١) literatwre against itself, p. 158.

(٢) انظر : « لقطات» (المقدمة) ص ٥٤ .

(٣) Alain Robbe- Grillet P.16.

(٤) The French Nem Novel, P. 120.

تضمينـات . إن موضـوعه قـائم هناك يتحـدى ، ويرفـض أى معنى يعطيـه له الإنسـان . «وجرييه نفســه كان واعيا بهذا الفـرق المنهجى ، حين تحدث عـن أخطار النظـر ، فهو قـد يجلب الشيء إلى المقدمة ، ولايعيـده إلى مكانه من جـديد ، كما فى رواية الغثيان ، فيستـأثر بالأهمية . وكان روكانتان يحس بذلك حين يمس مقبض الباب أو حين تقع عينه على قطعة حجر. أما النظر فى الرواية الجديدة ، فيقتصر على وصف الأبعاد ، ويقف عند مد الخطوط ، ويدع كل شيء فى مكانه»(١) .

وكان حلـم فلوبير هو « بناء شيء مـن لاشيء . يقف وحده دون الاستناد إلى شيء » كما ذكر « كولر» فى كتابه عن فلوبير.

وجرييه أيضا يطمـح إلى أن يتحول الأدب إلى بناء منه فيه ، لاتعتمد قيمتـه على الإحالة إلى شيء خارجه .

وهنا ، تأخذ قضية الالتزام عند جرييه مفهـوما جديدا ، إنها وعى من المؤلف بمشكلات لغته ، ومحاولته للتغلب على هذه المشكلات . إن الالتزام الوحيد هو بالأدب . لايوجد شيء آخر. قبلى أو خارجى . وسواء كان سياسيا أو اجتماعيا أو نفسيا . كل شيء يأتى من داخل الأدب ، لاشيء فوقه ، لايقين ، وليس لـدى الكاتب مايقوله ، ولكن لديـه طريقة للقول ، هى مشروعه ، وهى عمله ، وهى التى قد أصبحت مضمونه .

وهنا يمكن أن تحل إشكاليـة المضمون والشكل كما يرى جرييه ، وهى ثنـائية حدثت فى عهد الرأسمالية التى تؤمن بالحقائق الثـابتة ، وفى المعسكر الشرقى الذى يوجه الأدب لخدمة المادة والمصنع . وحين سئـل أحد الروس عن الشكليـة ، أشار ساخرًا إلى الحمار الـوحشى ، وقـال : هذه هـى الشكليـة» . وتلك سخـرية لامبرر لها ، وتـدل على سـوء فهم . فـالحمار الوحشى شيء قـائم بذاته . إنه موجود وكفـى . وكذلك العمل الفنى هو شكـل حى قائم بذاته ، لايحتاج إلى تعليل . إنه كالحمار الوحشى لايحتاج إلى انشطار ، وإلا فقد وجوده .

إن العمل الفنى إنما يقـاس بشكله فيما يؤكد جـرييه . فلو لجأت إلى رواية « الغـريب» ، وحولتها من ضمير المتكلـم إلى ضمير الغائب ، لفسدت الرواية ، واختفى عـالم كامى . إن الفن ليس ورقـة مذهبة تلف بها قطعة بسكويـت ، إن المقولة القديمة : « فلان لـديه شيء يقوله ، وقد قـاله بطريقة جيدة» ، هى مقـولة خاطئة ، وأفضل منها أن تقـول : « كيف قال ذلك؟» .

إن هـدف جرييـه أن يؤسـس روايته على السطـح . فـالأشياء فى أمـاكنها ، والنـاس فى أماكنهم هو موضوع روايته . إنها عبارة عن تجربة الإنسان المباشرة مع ماحوله ، دون أن يتستر خلـف الطرق التحليليـة أو الميتافيـزيقية أو النفسيـة . إن الـرواية ، فى ظنـه ، لم تعد وحيـا

---

(١) Towards a New Novel, P. 120.

سماويـا ، بل هـى مرتبطـة بالأرض ، ولم نعـد ننظر إلى العـالم بعين الكاهـن أو العالم ، بـل أصبحنا ننظر بعين الرجل الذى يمشى فى مدينتـه ، لايهتم بأى شىء آخر ، عدا المنظر الذى أمامه .

حرصـت على إبراز كثير مـن المسائل التطبيقية ، لشرح فكـرة العمل الأدبـى كنسيج ، وهى فكرة تتخذ عناوين من كاتب إلى كاتب ، ولكن الجميع يتفقون على معاملة النص كما هو (it is) ، أى كوجود منه فيه ، وليس كوسيلة إلى أهداف خارجية .

وهذه الفكرة قد استنتجها النقد الغربى ، كما رأينـا ، من تطبيقات عديدة ، تمتد لتشمل ساروت ، وفلوبير ، وجـرييه ، وكامى ، وسـارتر ، وغيرهـم ، وهى تطبيقـات مثيرة للجدل ، الذى ينبه للفروق الدقيقة بين كل عمل وعمل ، وكاتب وكاتب ، ومذهـب ومذهـب ، كهذا الفرق فى الوصف بين رواية « المحاولات » ورواية « الغثيان » .

ـ ١٢ ـ

إن التركيز على الشكل يعتبر أمرا لافتا للنظر فى مسيرة النقد الغـربى ، لأنه نقد يركز على المضمون بالدرجة الأولى .

ولست أسوق هذا الحكـم العام تخمينا من عندى ، ولا ادعاء بـأننى أحيط بمسيرة النقد الغربى فى سيـاقها التاريخى العام . ولكنـه حكم أستنتجه من واقـع اعترافات الحداثيين فى العالم الغـربى ، الذيـن يرون فى فكرة الحداثـة ثورة ، تفصل بين مـرحلتين تاريخيتين ، أو كما يطلقون عليها ، نقلة جذرية break through تقع فى مفترق طريق ، يفصـل بين عهد يركز على المضمون ، وآخر يركز على الشكل .

سونتاج مثلا فى كتـابها السابق ، (P. 3) ، ترى أن نظرية المحـاكاة التى سيطرت على الفكر الإغريقى ، وانتقلـت إلى الفكر الأوروبى هى المسئولة عـن توجيه الأنظار إلى الاهتمام بالمضمون على حساب الشكـل . وعلى الرغم من أن هذه النظرية لقيـت المراجعة من بعض النقاد فى العصر الحديث ، ممن كانوا يرون أن الفن ليس محاكاة ولكنه تعبير ذاتى ، على الرغم من ذلك فقـد ظلت هذه النظرية تفـرض سطوتها ، وظل الاهتمام بالمحتوى يفـرض سطوته أيضا ، وخاصة عند من يعنون بالإجابة عن سؤال ماذا يقول المؤلف .

ومن هنا ، فإن سـونتاج ترى (P.12) أن مصطلحات النقـد القديم مستمدة مـن فكرة المحاكـاة ، وبفكرة المكـان Spotial عنـد الإغـريـق ، وهذا هـو السبـب فى أننـا نملـك مصطلحات حول الفنـون المحددة بالمكان ، أكثـر من المصطلحات حول الفنـون المحددة بالزمان .

وهي تدعو إلى لغة جديدة للنقد تتحرر من المكان والمحاكاة، وتتوجه إلى مخاطبة الحواس دون الغوص فى الأعماق، لغة لاتركز على المضمون، ولاتخضع للمحتوى الثقافى، لغة تخاطب الحواس وتدربها على الاستمتاع المباشر بالنص، فتقول (P. 13) .

« إن أول شيء نحتاج إليه هو أن نركز على الشكل . لأن التركيز على المضمون يثير الرغبة فى التفسير. ومن هنا، فنحن نحتاج إلى قاموس لغوى يركز على الشكل، ويصف أكثر مما يحكم . . . إن حواسنا مرتبطة كثيرا بالثقافة، والنتيجة خسارة فادحة للتجربة، التى تصافح فيها الحواس الأشياء وجها لوجه . إن الحياة المعاصرة تسيء إلى قدراتنا الحسية . والواجب أن نسترد منذ الآن حواسنا (وعلى النقد أن يساعدنا فى ذلك)، يجب أن نتعلم كيف نرى أكثر، ونسمع أكثر، ونحس أكثر. إن واجبنا لن يكون فى أن نقبض على المحتوى ونستخلصه من الشيء، بل فى أن ننظر إلى الأشياء كما هى قائمة . واجبنا ألا نركز على المحتوى، حتى لايصرفنا عن رؤية الشيء فى حد ذاته . إن لغة النقد المعاصر ينبغى أن ترينا كيف يكون ماهو كائن، بدلا من أن تهتم بالكشف عما يعنيه هذا الكائن . نحن نحتاج إلى « حسية » الفن ، أكثر مما نحتاج إلى تفسيره» .

فالتركيز على الشكل ، إذن، هو فكرة لافتة للنظر، وتستحق التحليل فى مسيرة الحضارة الغربية ، التى صرفت جل اهتمامها إلى التركيز على المضمون والمحاكاة والمكان .

ومن هنا ، نجد الغربيين يحتفون كثيرا بتلك الحركات التى تركز على الشكل ، من أمثال الفن للفن، والشكلية الروسية ، والنقاد الجدد، والحداثة، ومابعد الحداثة، والبنائية، والأسلوبية، وغير ذلك من حركات مشابهة، تهتم بها كتب النقد، ويعتبرونها فتحا جديدا فى مسيرة الحركة الأدبية .

مشاركة القارئ

ـ ١٣ ـ

إن التركيز على العمل الأدبى كمادة غفل تقدم لقارئ ، لكى يخط عليها مشروعه، يفتح الطريق نحو النتيجة الأخيرة فى المقولة الثلاثية، التى يؤدى بعضها إلى بعض (موت المؤلف ← إحياء النص ← مشاركة القارئ) .

إن مشاركة القارئ مقياس نقدى حديث، يختلف عن المقياس التقليدى، الذى يتحدث عن استجابة القارئ، أو اندماجه فى العمل الفنى .

وسواء كان المقياس يعنى مشاركة القارئ أو استجابته، فإنه فى كلتا الحالتين منتزع من أعمال أدبية سابقة ، تفرضها لحظتها التاريخية المعقدة، ويأتى النقد بعد ذلك كله فيستخلص قضاياه بصورة مبررة، وتعتمد على تطبيقات أدبية .

فقد كان العمل الأدبى الكلاسيكى يقدم جاهزا، تبدو عليه بصمات المؤلف صاحب الحق، الذى يحاول أن يعرض أفكاره مسلسلة ، وأن يقنع القارئ بهذه الأفكار، ويلجأ إلى عناصر الخداع المختلفة والتى يسميها الحيل الفنية ، التى تهدف إلى « دمج» القارئ فى الجو العام، وتحويله إلى متلق يحسن الدرس تماما .

ثم برزت أعماله مخالفة تهدف إلى مشاركة القارئ. وبث الوعى داخله ، وتغيرت أساليبها الفنية . فلم تعد تعتمد على رسم الموقف الخادع الذى يدفع إلى الاستنامة والتلقى، وتوقع الانتقال من السبب إلى المسبب ، أو من الشبيه إلى شبيهه .

وأخذت هذه الأعمال الطليعية تبث فى طريق القارئ ألغاما كثيرة ، تجعله يسير فى طريقه وهو دائم التنبه ، يحاول أن يتبين موضع قدميه ، وأن يكتشف الألغام ، وأن يكتشف طرقه الخاصة للإفلات من شراكها .

قد يقطع المؤلف السرد، وقد يستطرد إلى موضع آخر، وقد ينتقل انتقالا عشوائيا، وقد يظهر غير مايبطن ، وقد يخلط الحقيقة بالخيال ، والتقرير بالتصوير. وقد يقدم جملا متقطعة ، أو أماكن بيضاء ، أو نقطا ، أو علامات تعجب . ولكنه ، فى كل ذلك وغيره ، يحاول أن يقاوم فكرة « التوقع» عند القارئ ، والانتقال من السبب إلى المسبب ، أو من النظير إلى نظيره .

إن المجموعة القصصية « لقطات» Snapshots لآلان روب جرييه ، يمكن أن تقدم لنا صورة لهذا النوع من الأدب، الذى يعرض نفسه أمام القارئ ، ويغريه لكى يشكله من جديد .

لقد قلت عن هذه المجموعة بالحرف الواحد مايلى :

« تقدم لنا هذه القصص العالم، وكأنه فى بداية تكوينه : طبيعة ، وأرض بكر، وبرك، ومستنقعات، وغابات ، وحياة لم تمتد إليها يد إنسان ، كل المفاهيم ، وكل الإنجازات، وكل الصناعات قد سقطت ، وعادت الحياة إلى بدء التكوين ، تستحث الإنسان على معرفة الأسماء، وكأننا إزاء آدم من جديد، يبحث، ويستكشف، ويعطى المسميات رموزها.

قصة « الطريق الخاطئ» وصف لمنطقة طبيعية بكر، أمطار، ونباتات، وظلال. كل شيء يغرى بالاكتشاف . وفجأة يظهر إنسان، وكأنه يأتى إلى الدنيا أول مرة ، يتقى أشعة

الشمس، يفحص المكان، يكتشف أنه أخطأ الطريق، فيعود إلى الغابة من جديد.

وقصة « طريق العودة» وصف لصخور، وبرك، وطحالب، ومزالق، وأحجار. إنهم ثلاثة يودون العودة إلى الجزيرة فلا يستطيعون، لاتواصل بينهم، يلقى أحدهم بالجملة سريعة، إنه لايسأل ولاينتظر الجواب، ولايدور بينهم حوار. إنها مجرد جمل، تنبئ عن عالم مستقل، أكثر مما تدعو إلى الاتصال. كل جملة جزيرة قائمة بنفسها. يظهر لهم شخص على قارب، يركبون معه، يكتشفون أنه أصم يجدف بهم فى الطريق الخاطئ.

ماذا يعنى عنوان « الطريق الخاطئ »، هل يعنى حكما تقويميا من المؤلف؟ وهل تمثل الجزيرة هدفا مقصودا؟ وهل يرمز الرجل الأصم إلى فقدان التواصل، أو جحيم الآخر؟

أسئلة ليس من السهل الإجابة عنها، لأن جرييه نظريا يرفض أية تضمينات لقصصه. إنه يقدمها كعالم مستقل قائم بنفسه »[١].

وأخذ النقد يساير هذه الأعمال الأدبية، ويقنن لطريقتها الجديدة، التى تدفع القارئ إلى اكتشاف المجهول، وبناء مشروعه الخاص، الذى قد يختلف عن مشروع غيره، بل قد يختلف عن مشروع المؤلف نفسه، لأن مبدأ موت المؤلف قد أفسح الطريق أمام اجتهادات أخرى.

يذكر « فيش» أن النقد الفعال «هو الذى يخلصنى من فكرة أن أكون على صواب، ويتطلب منى فقط أن أكون مهتما interesting »[٢]. وهو يعنى بذلك أن النقد القديم الذى يتطلب معنى تفسيريا، يحتمل الصدق أو الكذب قد انتهى دوره. لم يعد الناقد مهتما بالبحث عن معنى جاهز، ولكن يكفيه أن يثير اهتمام القارئ، ويدفعه إلى البحث عن « إستراتيجيته» الخاصة. وقد تختلف هذه الإستراتيجية عن نية المؤلف، وقد تتعدد الإستراتيجيات، فالأمر متروك لنا بأن نختار مايثيرنا من بين هذه الإستراتيجيات.

ويؤكد « كولر» هذه الفكرة، ويرى أن السؤال عما يحمله الأدب من دلالات سؤال قد انتهى دوره، ولم يعد مبررا منذ أن فقدت نظرية « المحاكاة» سيطرتها على العقل الغربى. وحلت محلها نظرية « اللاتمثيل» التى نمت على يد الشكليين. وبدلا من الرواية التى تقوم على المحاكاة، أصبحت هناك الرواية، التى تقدم بناء Structure، يحتوى على مستويات عديدة، وتدفع القارئ إلى أن يتبنى مستواه الخاص.

---

(١) لقطات: ص ٦٣ (المقدمة).

(٢) The Novel Today, P.48.

وأصبح النقد الجديد يضخم من دور القارئ، ويجعله لايقل أهمية عن دور المؤلف نفسه، لأن القارئ يصنع عالمه بنفسه، ويتحول إلى مشارك ينطلق من موقع المسئولية والمشاركة فى صنع العوالم الفنية. إنه لايكتفى بدور المتلقى، فلا يترك نفسه لكى تندمج فى عالم المؤلف، وفى خدر لذيذ.

ـ ١٤ ـ

ولكن فكرة « مشاركة القارئ» توغل إلى أبعد حد، فيتحول العمل الفنى إلى معميات، بحجة أن القارئ هو المسئول وحده عن كشف هذه المعميات. أما المؤلف، فلا يقدم شيئا، بل هو يضلل القارئ بعيدا عن نيته.

قد نتفهم فكرة موت المؤلف، على أساس إلغاء المفاهيم الاجتماعية والنفسية، وكل ما هو داخل تحت كلمة « القيمة»، وهى فكرة ليست مرادة فى حد ذاتها، بل لأنها تفتح الطريق لعالم النص كوجود مستقل.

إن النص له وجود، وإلا فقد مبرره، وهو وجود يقدم كاقتراح متواضع من المؤلف، أى كلبنة أولى، تقدم أرضية ينطلق منها المؤلف والقارئ معاً. وللقارئ أن يقبل هذا الوجود، وله أن يرفضه. فحريته متاحة، شريطة ألا تؤدى هذه الحرية إلى إلغاء النص كوجود.

وهذا ماحدث فعلا فى بعض الأعمال الفنية، التى اندفعت مع فكرة مشاركة القارئ إلى أقصى الحدود، حتى تحولت حريته إلى فوضى.

ويمكن أن نضرب مثالا على ذلك بما يسميه « لودج» « بالنهاية الخادعة False ending »[١]، والتى لاتساهم فى كشف المعميات كما هو الحال فى النهاية المقفولة close، أو تشير إلى طريق من عدة طرق كما هو الحال فى النهاية المفتوحة open ، بل إنها تعمى القارئ وتبعده عن وجود العمل الفنى كنص مقترح.

فالكاتب « سبارك» Murial Spark فى روايته « لا إزعاج» Not to Disturb (عام ١٩٧١م)، يحاكى الرواية البوليسية بطريقة ساخرة (mock). إن الصحافة تتحرك من أجل جريمة قتل، والإعلام يستعد، والتقارير تعقد، فى الوقت الذى نجد فيه الزوج والزوجة وعشيقها، لايزالون يتناقشون فى حجرة المكتب. وفى النهاية، يكتشف الخادم أن سادته لايزالون يعيشون فى عصر الغيبيات، فيعدم اثنين منهم لأنهما غير مناسبين لأحداث القصة، والطبيعة فى الخارج تهدر بصواعقها الناقمة.

---

(١) The Modes of Modern Writings, P.226.

وفاولز John Fouwes فى روايته « عشيقـة الضابط الفـرنسى» The French Lieute-nonts Woman (عام ١٩٦٩م)، يقدم لنا نهايات عدة، ويطلب منا أن نختار واحدة.

وبارث Iohn Barth، يثير سلسلة مـن النهايات فى روايتـه « ضياع فى مدينـة الملاهى» Lost in the Funhouse (عام ١٩٦٨م). ثم يختار واحدة مـن النهايات، تبدو سخيفة وغير معقولة، بل إنه فى روايته « العنوان» Title لايحاول أن يبتكر أية نهايـة على الإطلاق. «إنها توشك أن تنتهى. دع الحل يأتى بلا تـوقع، بلا ألم إن كان ممكنا، سريعا على الأقل، ولكنه حاسم. دعه يأتى الآن، الآن».

أما بروتيجـان، فإن الفصل قبل الأخير فى روايتـه « صيد السمك فى أمريكـا»، يضعه تحت عنوان «مدخل لفصل المايونيز»، ويقول عنه: «إنه يعبر عن حاجة ملحة لكى يكتب كتابا ينتهى بالكلمة مايونيز Mayonnaise ». وفعلا أنجز هذا الفصل تلك الرغبة. ولكن المؤلف يضيف فصلا أخيرا، عبـارة عن نسخة طبق الأصل من خطـاب « من الأم ونانسى إلى فلورانس وهارف». وهذا الخطاب ينتهى بمـلاحظة: « نأسف، فقد نسيت أن أعطيك Mayonaise (هكذا بخطـأ هجائى) ». إن الفصل قبل الأخير قـد حقق حاجـةالمؤلف، ولم يكن فى حقيقة أمره سـوى طريقة تعسفية لكى ينهى الفصـل بهذه الكلمة. أما الفصل الأخير (الخطاب) فلا صلة له على الإطلاق بأحـداث الرواية. حقا، إن الملاحظة تخطئ فى حروف الكلمة، ولكن المؤلف كان قد نقلها من نسخة طبق الأصل.

ـ ١٥ ـ

إن المقولة الثـلاثية تكاد تلخص آراء الحداثيين. التـى يتداخل بعضها فى بعـض. وهى مقولة تبدأ مـن موت المؤلف (كمرسل)، لتنتهى إلى مشاركة القـارئ (كمرسل إليه)، عبر وسيط مشترك وهو النص (كوسيلة).

وارتبطت هذه المقولـة فى مجتمعها الغربى بظروف تاريخية، وعوامـل اقتصادية واجتماعية وسياسية. وقد أفاضت كتب النقد الغربية فى الكشف عن هذه الظروف، حين تحدثت عن الرواية الامريكية، أو عن الرواية الجديدة فى فرنسا، أو عن الحداثة، ومابعد الحداثة، وغير ذلك من ظواهر أدبية وفكرية، لم تأت طارئة كـالنبات الشيطانى، بل جاءت نتيجة عوامل كثيرة، تفاعلت عبر ظروف زمنية، فانتجت تلك الظواهر.

والباحثـون قد يختلفون فى كميـة هذه الظـروف، ولكنهم جميعا يتفقـون على أنها تعود فى مجملها إلى بنية المجتمع الغربى، وترتبط برؤيتة الفلسفية، وحركته الاجتماعية والتاريخية.

وقد رأى ريتشارد بالمر Richard Palmer أن الحداثة هي انعكاس للمجتمع التكنولوجي ، وتعبير عن ميله للسيطرة . إن النص يصبح عند الناقد موضوعا ، يقتضي تجربة ذهنية يعمل فيها بمفرده . وخلال الشيء المعطى له . فهو ينتهك النص ، ويمثل شكلا من أشكال الاستبداد ، وانعكاسا لإرادة السيطرة ، التي تبدو عند التكنوقراطيين والشراح العلميين ذوى النظرات المتعصبة ، فضلا عن أنه يعامل النص بمحدودية تفرضها الروح العلمية ، التي تعالج الأشياء بحيادوبرود ، وتوقف الحياة فيها .

وتأثر النقد الجديد بالروح العلمية السائدة شيء ردده كثير من النقاد من أمثال لويس كامبف Louis Kompf وريتشارد بويرية Richard Poirier وجفرى هارتمان Geoffrey Hartman وكذلك كثير من نقاد الوجودية التي رأت فيه انعكاسا للعقلية التكنولوجية التي سادت المجتمعات الغربية ، ورأت فيه تبسيطا للتجربة الإنسانية ، وانعكاسا للثنائية الديكارتية (الموضوع والذات) ، تماما كما فعلت الشكلية الروسية Formalism والبنائية Structure . ثم رأت أن تنظر إلى الأدب كتجربة وليس كموضوع ، تماما كما ننظر إلى الكائن البشرى كإنسان وليس كشيء .

أما إيريس ميردوك Iris Murdoch ، فهي تركز على صورة الإنسان في العالم الغربي ، والتي أدت إلى هذا الاتجاه الجديد في الأدب والفن ، فإن فلسفة هيوم وراسل والمنطق الوضعي قد جعلته عقلانيا وحرا ، وسيدا لكل ماحوله ، ومسئولا عن كل مايفعله . لاشيء يعلوه ويتجاوزه . وأصبحت لغته أداة لاختياره ، ودالة على مايفضله ، ومؤشرا إلى اتجاهاته العملية ، وذابت حياته الداخلية في أفعاله واختياره وعقائده ، والتي هي نتيجة أفعاله . أما قضاياه الخلقية ، فهي تعود إلى مواقف عملية ، تكونت نتيجة قراراته هو ، وليست من إملاء سلطة خارجية . إن الكلمة التي تتردد هي « هذا حسن » Good ، أو هذا صواب right . وهي كلمة منتزعة من قراراته ، وليست من إملاء سلطة لاهوتية . وصورة الإنسان في فرنسا لاتختلف عنه في إنجلترا . فالذات عند سارتر تبدو حرة ، وقائمة بنفسها Solitary ، فلا يوجد واقع متجاوز . فعلى جانب ، توجد الرغبات والأهواء والعادات الاجتماعية ، وعلى الجانب الآخر ، توجد الإرادة . إن كثيرا من الماركسيين يرون أن فلسفة سارتر تمثل نظرية العالم الحر حول الذات .

إن مثل هذه التعليلات تمثل الخلفية الحضارية لنقد الحداثة ، ويجب أن تؤخذ في الاعتبار ، عند مناقشة هذا النقد . فالأفكار ليست كتلة حديدية يمكن نقلها من بيئة إلى بيئة . إنها نتيجة تفاعل وظروف متداخلة ودون إدراك هذه الخلفية الحضارية ، لايمكن فهم هذا النقد حق الفهم ، لأنها تبدو حينئذ مقتطعة من سياقها العام .

تناقض مصطلح الموضوعية

-١٦-

ولم تقبل أفكار الحداثة على علاتها فى العالم الغربى، خاصة بعد أن تعالت أصوات تنتقد مسيرة الحضارة الأوروبية، وتخفف من النزعة « الفاوستية » المسيطرة على تلك الحضارة، وهى نزعة تضخم من دور العلم على حساب المطالب الأخرى، وتوقع فى قدر من الإحساس بالعبث، دفع الدكتور فاوست فى النهاية إلى أن يضيق بعلمه، ويبيع نفسه للشيطان عن أن يسترد ذاته المفقوده.

إن فكرة الطبيعة الموضوعية للأدب، وتحوله إلى علم يشبه علوم الطبيعة، تعرضت لانتقادات كثيرة من مختلف التيارات.

فهى تنتهى عند بروس فرانكلين إلى شكلية جافة، ويصبح النقد على حد قوله، مثل النعامة تخفى رأسها فى الرمال، وتعجب بالصلات الشكلية بين الذرات.

والوجودية ترى فى هذه الفكرة امتدادا للثنائية الديكارتية التى تفصل بين الذات والموضوع، فالقول بموضوعية النص يشطر الأديب إلى شطرين : الذات والنص، وهذه الثنائية عند ديكارت هى التى أفسدت تقاليد الفلسفة التجريبية.

وريتشارد بالمار يرى أن فكرة الموضوعية تحول الأدب إلى شىء بارد، وأن استعارة المناهج الطبيعية لاتصلح لعالم الأدب. فالعلم يقتطع الجزئية من سياقها العام ويوقف الحياة فيها، والأمر كذلك مع فكرة الموضوعية فى عالم الأدب تحول النص إلى شىء بارد، وتنسى أن النص فى حقيقته هو صوت إنسانى يأتى من الماضى، ولا يمكن اقتطاعه من سياقه. إن الحوار، وليس التشريح، هو الذى يستطيع أن يجعل عالم الأدب يفضى بأسراره.

وجوفرى هارتمان يرى أن هذه الموضوعية، تجمد اللغة المتغيرة والعصية، وتحولها إلى إطار ثقافى جامد. وهو يتفق مع بالمار، فى أن هذه الفكرة تمثل شكلا من أشكال الاستبداد، وتعكس رغبة التكنولوجيين فى السيطرة، ويؤدى هذا بالناقد إلى أن يخسر الصلة الحميمة مع الأشياء فى لغتها الحقيقية.

أما النقاد المسيحيون، فقد رفضوا هذه الموضوعية، من منطلق المبدأ المسيحى « الخطيئة الكبرى» Original Sim، ووجدوها عرضا من أعراض الغرور البشرى، الذى يشق ثقة كبيرة فى العنصر الإنسانى، ولايمكن الحد من هذا الغرور إلا بالعودة إلى ما يسميه « هالم» I.E.Hulme بالموقف الدينى، واستعادة الفردوس المفقود.

وبعد أن يناقش « جراف» هذه الآراء السابقة، يرى أن الجميع يتفقون على أن هذه

الموضوعية هـى انعكاس للذهنية التكنولوجيـة فى عالم الغرب، مع حاجتها الملحـةلتحويل العالم إلى موضوع . ثم يربط بينها وبين فكرة إليوت « اللاشخصايته». Impersonality فى القصيدة، وهى تؤدى إلى سقوط الحس الإنسانى أمام تحديات العلم والتكنولوجيا[1] .

-١٧-

ويذكر « جـراف» أن مصطلح « الموضوعية»، يختلـف من موقف إلى مـوقف، وأن هذا الاختلاف قد يصل إلى حد التناقض، بما يلقى ظلالا من الغموض على هذا المصطلح .

ففى مقابـل هؤلاء الذين يحولون الأدب إلى مجرد حـامل رسالة ، فإن الموضـوعية تفيد أن الأدب لايرتبط بالمضمون، ولايعتمد على الماهية، وأن قيمته فيه . فهو لا يعنى ولكن يوجد، وهـو لايقرأ كشرح للعـالم الخارجى ، وإنما يقـرأ كبناء معنـاه ملتبس فيـه، لا بما يحيله مـن إشارات إلى العالم الخارجى .

وفى مقابل هؤلاء الذين يجردون الأدب من أيـة قيمة جادة، فإن هذا المصطلح يتحول إلى الضد، وتصبـح الموضوعية مطـابقة لما يسميه « بـروكس» Brooks ـ متبعا آراء إليـوت ـ بحقائق التجربة ، وهى حقائق لاتلتمس إلا فى الواقع الخارجى .

فالموضوعية، إذن، شىء غامض ومتناقض، مرة تقطع صلتها بالعالم الخارجى ، وتحول الأدب إلى عـالم مستقل، وأخـرى تبحـث عن حقـائق فى العـالم الخارجـى ، تعيد لـلأدب احترامه .

-١٨-

ويحاول « جراف» أن يخفف من سطوة « الموضوعيـة» ، فيطرح معها مصطلحا آخر وهو « التجربة» experilmce، وهو مصطلح ينظر إلى الأدب كعملية متحـركة، كحدث درامى ، كتجربة، وغير ذلك من كلمات تحتوى على حركـة، ولا تقل فى الأهمية عن كلمات ساكنة مثل البنائية أو التشريحية أو السياق اللفظى . ومن هنا ، فإن الناقد البنائى بروكس Brooks يتحدث عن الشعر باعتباره تجربة حية، أكثر مما هو تجريد ساكن لهذه التجربة .

إن الأفكار والمصطلحات يجب أن توضع فى صورتها الكلية وفى لحظتها التاريخية، فينظر إلى المصطلح مـع ما يماثله أو يخالفه، بـدلا من اقتطاعه مـن السياق العام، وتركيـز الضوء عليه، فيضخم من دوره .

إن التركيز على فكـرة الموضوعيـة وحدهـا، يحيلها إلى سرطـان البحر الـذى يفترس حتى

(١) literature against itself, P. 129 .

نفسه. وإن وضع هـذه الفكرة مع توازن لفكرة أخـرى، وهى التجربة، يقترب بالنـاقد من الطبيعة الخاصة للأدب، ويخفف من الاعتراضات التى رأينا نماذج لها فى الفقرة رقم / ١٦ .

إن هذا العصر هـو عصر الأنماط الثقافية، كما يقـول لودج [١]، فلا نستطيـع أن نصفه بالعصر الكـلاسيكى، أو الرومـانتيكى، أو الواقعـى، أو حتى عصر الحداثة. فـالمذاهب والأشكال والأنماط تتـداخل فيه وتتعايـش، وليس من المطلـوب أن يتبنى الناقد كـل هذه المذاهب، بـل المطلوب حتـى لو تبنى إحـداها، أن يدرك السيـاق العام، حتـى لايختلط الشىء ونقيضه.

-١٩-

ذلك هو الإطار الذى يمكن أن نقدم من خلالـه أفكار الحداثة، وهو إطار يؤخذ ككل فى ظروفه التاريخية والحضارية، ونتائجه الفكرية والفنية.

فهى أفكـار تضرب إلى بنية الحضارة الأوروبيـة، وهى حضارة تـرتد إلى جذور إغـريقية وثنية، تتمرد على صورة الإله فى تراثها، وتراه يحد من انطلاقة الإنسان، وتفترض صراعا أو تعارضـا بين الإله والإنسـان، ولايمكن للإنسـان أن يواصـل مسيرته، إلا إذا فـك قيوده، وأعلن موت الإله.

إن فكرة « موت المؤلف» ليسـت هى مجرد جملة تلقى للمباهاة، ولكنهـا جملة تجر وراءها تداعيات فلسفية، وتـرتد إلى جذور الحادية، وتؤدى فى النهايـة إلى اختفاء القيمة، وتحويل النصر إلى شكلية ميتة.

وفكرة الاحتفاء بالشكل تلاقى اهتماما شـديدا فى هذه الحضارة، لأنها تعتبر نقلة جديدة فى مسيرة الحضـارة، التى أنهكتهـا الفلسفة، وحـولت الأدب إلى جـدال حول المضمـون، ودفعته إلى أن يحاكـى نماذجه، ويتحول إلى صورة مـن أصل، مثل تلك الظـلال فى كهف أفلاطون، قيمتها بما تشير إليه من حقائق خالدة خارج الكهف.

أما مشـاركة القارئ فقد تضخمـت، وتحول القارئ إلى إله مستبد، إذا سمحنـا لأنفسنا باقتبـاس التعبيرات الإلحادية، ومن بـاب المشاكلـة على أساس أن التمرد على الإلـه فى فكرة «موت المؤلـف»، قد أدت إلى إله جديد، يتمثـل هذه المرة فى صورة القارئ، استجابة لتلك التركيبة الوثنيـة التى تبحث دائما عن إلـه من صنع نفسها، إن لم تجده فى المؤلـف وجدته فى القارئ

---

(١) The novel Toduy, P.99.

النقد العربى والنصية

ـ ٢٠ ـ

وليس الأمر كـذلك فى الحضارة العربية الإسـلامية ، فالإنسان هـو خليفة الله فى أرضه . يمشى فى مناكبها ، ويعطى الأشياء مسمياتها ، ويعيش تحت رعاية الله دون صراع أوعداء .

وفكرة المحاكاة لم تلعب دورها الكبير فى تاريـخ الأدب العربى ، حتى يمكن أن تضخم المضمون ، وتحول الأدب إلى جدل وفلسفة وبحث عن نموذج وأصل .

وظلت هذه الفكرة بعد الترجمة من الإغريقية ، محصورة فى مجموعة من الفلاسفة ، يفكون أسرار أفلاطون وأرسطو ، وينقلون مصطلحاتها دون فهم ولاتطبيق ، ويعيشون فى عزلة عن الأدب والجماهير.

ـ ٢١ ـ

وبقى الأدب العربى أدب شكل بالدرجة الأولى .

كان الشـاعر الجاهلى يوغـل فى الصحراء ، ويقتحـم الطبيعة . لا لكى يضيـع فيها ، أو يلتمس عندها نموذجه ، بل لكى يتغلب عليها ، وينتصر على حمرها وأتنها وذئابها ، ويعود فى النهاية منتصرا بنفسه ، مفتخرا بقدراته ، حاملا معه صيده .

وكان للشعر قوانينـه الخاصة ، وطبيعته الخاصة ، لايلتمس صدقه مـن الواقع ، ولاطبقا لنموذج فى الخارج ، ولكن صدقه يلتمس من داخل القصيدة ، ومن قوانينها الخاصة .

وجاء النقد فبارك هـذا الجانب الشكلى الذى يركز على عالم النـص ، دون أن يربطه بعالم الواقع . وحين دارت معركة بين أنصار اللفظ وأنصار المعنى ، مال النقد إلى كفة اللفظ .

إن الصفوة الممتازة فى تـاريخ النقد العربـى ، يؤثرون جانـب اللفظ . فالمعانـى ملقاة فى الطريـق ، والألفاظ سبيلها سبيل الصيـغ والتصوير، تنقل المعـانى من كونها مـادة « خام» يلتمسهـا كـل إنسـان ، إلى عالم الشعـر والتخييـل . قـال بـذلـك ، بطريقـة أو بـأخـرى ، الجاحظ[١] . وقدامة بن جعفر[٢] ، وابن خلدون[٣] ، وابن سنان الخفاجى[٤] .

---

(١) الحيوان : ٢/ ١٣٢ .
(٢) نقد الشعر: ص ١٠١ .
(٣) المقدمة : ص ٥٢٨ .
(٤) سر الفصاحة : ص ٦٣ .

والنقاد العرب حين يركزون على النص ، لايبحثون عما وراءه من دلالات اجتماعية أو نفسية ، ولكنهم يدرسونه كنسيج أو صنيغ أو تصوير أو نقوش أو رسوم ، أو غير ذلك من مفردات وردت فى كتبهم ، وكلها تركز على جانب المتعة فى النص ، دون أن يشارك هذه المتعة إسقاطات فلسفية أو نفسية أو اجتماعية ، مما يعد انتهاكا للنص بالتعبير الحديث .

وتحت عنوان « الأهداف الإنسانية للأدب فى النقد العربى[1] » ، يؤكد الدكتور غنيمى هلال هذه الحقيقة ، ويرى أن النقد العربى لايتطلب من الشاعر التزامه بالحقائق الخارجية ، فقط يتطلب منه التزامه بمقتضيات الصناعة والصياغة . ويستشهد الدكتور غنيمى على ذلك بقول قدامه بن جعفر. « إن مناقضة الشاعر نفسه فى قصيدتين أو كلمتين ، بأن يصف شيئا وصفا حسنا ، ثم يذمه بعد ذلك ذما حسنا بينا ، غير منكر عليه . ولا يعيب من فعله ، إذا أحسن المدح أو الذم ، بل ذلك عندى يدل على قوة الشاعر فى صناعته واقتداره عليها » .

ولكن الدكتور غنيمى يرى فى ذلك تقصيرا من النقاد العرب ، ويقول فى نبرة لوم : «وأصبح مقياس البراعة فى الشعر لدى هؤلاء النقاد ، هو جودة الكلام ، وحسن الصياغة ، وفى الفصل بين العمل الفنى والصدق ـ صدق الواقع والصدق الفنى ــ مساس خطير بأسس الفن الجوهرية . إذ لايستطيع فنان أداء رسالته إلا بالالتزام بالصدق الواقعى ، على حسب مايراه هو، أو يفكر فيه كما يعتقده ، أو ما يشعر به ، ثم بالتزام الصدق الفنى بالتعبير عن حقيقة أصيلة يرجع فى تصويرها إلى ذات نفسه ، لا إلى حفظ من عبارات ، وسرقة من جمل . وقد يتطلب هذا الصدق من الفنان أن يتحرر فى فنه وأدبه من عقائد سائدة ، أو مزاعم أخلاقية واجتماعية قائمة ، ولكن لا وجود لفلسفة فنية ذات قيمة ، تفصل ما بين العمل الفنى والصدق» .

إن الدكتور غنيمى هلال متأثر هنا بالمصادر الأوروبية فى عصره ، التى كانت تؤكد على القيمة الإنسانية ، وتبحث عما فى الأدب من أهداف وفلسفة .

وحين تغير ميزان النقد فى العالم الأوروبى ، ورأى النقاد فى هذه الأهداف الإنسانية انتهاكا للنص . بدأ نقاد الحداثة يرددون ذلك ، دون أن يدروا أن إمكانات هذا الاتجاه كانت مختمرة عند النقاد العرب . وقد رصدها الدكتور غنيمى هلال ، ولكن فى نبرة إدانة .

---

(١) النقد الأدبى الحديث : ص ٢١٩ .

نقــاد الحـداثـة

فى العالم العربى

- ٢٢ -

كان أمام نقاد الحداثة فى العالم العربى خياران :

أولهما وأولاهما : أن يبدءوا من هذا التراث العربى ، الذى يحمـل من الإمكانات مايمكن أن ينطلقوا منها لتأسيس حداثة ذات جذور.

والآخر والأخير: أن ينقلوا الحداثة الغربية بكل فلسفتها ونتائجها ، ويزرعوها فى كتبهم ، تحت عناوين الحداثة والخبرة وماشابه ذلك .

ولم يكـن بنيـانهم مهيأ لتقبـل الخيـار الأول ، فهـو يحتـاج إلى صبر وضبط ، وبعـد عـن الأضواء ، وعمل دون انتظار جزاء ، بل ربما يقابل بفتور.

أمـا الحل الآخر، فهـو يثير البريـق ، ويغرى أجهـزة الإعـلام ، ويحتل صـاحبـه مكانـة خاصة ، لأنه يرطن بلغة الغالبين ، وبين قوم أرهقتهم عقد المغلوبين .

فاختـاروا الحل الأخير، ونقلوا الإطار الغـربى الـذى سبق أن تحدثنا عنـه ، دون أن يعوا مـلابساتـه التاريخيـة ، وفلسفتـه الحضـاريـة ، وأخـذوا يرددون الأعـلام دون تنبه للفـروق ، والمصطلحات ودون تبين للظلال .

ونقطة البداية بلاشك تلقى بنتائجها على طبيعة الاختيار، فلو أنهم بدءوا من جذورهم ، وطـوروا الإمكانـات المتاحـة لهم ، لأمكنهم أن يصلـوا إلى نظـرية فى الحداثـة خاصـة بهم ، وملتمسة مـن واقعهم ، ولها تطبيقـاتها ، وتحمل ظلالا مـن فلسفة حضـارتهم . نظريـة هم أصحابها ، منتجوها ومستهلكوها ، ومن حقهم أن يتيهوا بها ، وأن تتيه الأمة بهم .

ولكنهم بـدءوا من حيـث انتهى الآخـرون ، ورددوا ماقـاله الآخـرون ، وظلوا فى مـوقف المراهق ، يعجب بـأبيه ، ويردد كلامه ، ويخيل إليـه أنه مثل أبيه ، فله شارب مثـل شاربه ، وصوتـه خشن مثـل صوتـه تماما ، ومـا دروا أن موقفهـم شبيه بمـوقف « الممثـل كيف» فى مسرحيـة سارتـر، يـؤدى أدوار الأباطـرة والملـوك ، وأبطـال شيكسبير، ولكنه لايستطيـع أن يتجاوز بذلك خشبة المسرح ، وإلا استحق الاستهزاء والعقاب ، كما حدث له تماما فى نهاية تلك المسرحية .

إن الإطار الغربى نابع من فلسفة بيئته وملتمس من تطبيقات فنية . وهو، فى الوقت نفسه ، يؤثر فى أعمال أدبيه ، ولايعيش منعزلا عن الحركة الفكرية والأدبية . وكان أصحابه يقدمونه داخل بدائل أخرى ، فتضع بجانبه الشبيه والمغاير، حتى لايستبد وحده بالمساحة ، ويعربد فى الميدان .

أما هنا ، فكل شىء يأتى من وراء البحر، نقيم له الطقوس ، ونتلو فى معبده الأناشيد ، ونحرق البخور. وباختصار: نحوله إلى شىء يشبه اليقين الدينى .

الحداثة فى عالمها الغربى هى منهج للاقتراب من النصوص ، ويتحاور مع مناهج أخر. أما هنا ، فقد تحول من منهج إلى مذهب ، لأن التركيبة الشرقية تتدخل ، فتحول ماهو قابل للحوار، إلى يقين لايقبل الحوار.

وقد سبق لى أن قلت شيئا من هذا ، حول رسالة الدكتوراه « التقابل والتماثل فى القرآن الكريم » :

« البنائية منهج ، شأنه شأن المنطق ، يهدف إلى سلامة الفكر.

هكذا يراه أصحابه ، وهكذا يتعاملون معه ، وهكذا يعرفون متى يستخدمونه ، ومتى يطرحونه .

ولكنه ، عندما تحول إلى يقين دينى ، واندفع السيل العرمرم ، أخذوا يتلون الأدعية ، ويحرقون البخور فى محراب البنائية ، فتحولت من منهج إلى مذهب ، ومن أداة إلى فلسفة . وأصبح المؤلفون ، حتى فى الرسائل الجامعية ، لايبغون الوصول إلى الحقيقة من خلال استخدام البنائية والجداول والإحصاء ، حتى لو لم يكن كل ذلك مفهوما ، وعمدوا إلى الموضوعات البحثية ، حتى ما كان منها تقليديا ، وحتى ماقتل بحثا ، أعادوا بحثه من خلال منهج البنائية ، وأصبحنا نقرأ امرأ القيس والمتنبى وأبا نواس ومحمود حسن إسماعيل ، من خلال الجداول والإحصائيات والأشكال الرياضية ، فبدوا غرباء عن وجداننا ، لايمتون بصلة إلى امرئ القيس والمتنبى ، وغيرهما ممن كنا نقرؤهم ، ونستمتع بشعرهم ، ونهتز طربا لإيقاعاتهم »[1] .

اختاروا إذن الحل الآخر والأخير، وزرعوا هذا الإطار الغربى فى كتبهم . وأعيد « فى كتبهم » لأن هذا الإطار ظل بعيدا عن الواقع الأدبى ، لايستند إلى تطبيق ، ولايرشد إلى خطأ ، ولايعدل من نص .

---

(١) دليل الرسائل الجامعية : ص ٢٥١ .

ومن هنـا نجد الكثيريـن من نقاد الحداثـة عندنا، يتجنبـون التطبيق ويـدورون فى تلك النظريـات، وكأنها فلسفـة مقصودة لذاتها، أو كـأنهم يريدون أن يستعـرضوا أمـام القارئ قدراتهم العقلية، ومعرفتهـم بعلوم الأوائل والأواخر. هم بذلك يـريدون أن يستصغروا من شأن القارئ، وأن يحولوه إلى ذرة تدور فى فلكهم.

هم يتحـدثون نظـريا عن مـوت المؤلف العالم الخبير الـذى يحيط بكـل شىء علما، وفى كتبهم يتحـولون إلى مؤلف محيـط . وهم يتحدثـون نظريا عـن مشاركة القارئ، وأنـه منتج للنـص، وأن قراءتـه اكتشاف وإبـداع، وفى كتبهم يتحـولون إلى حـواة وسحرة، يخدعـون القارئ عن نفسه، هم باختصار يقولون مالايفعلون.

وقد نجـد بعضا مـن هؤلاء النقـاد يبحثون عـن تطبيق لأفكـارهم، فيخضعـون الشعر الجاهلى، أو عبـد القاهـر الجرجـانـى؛ أو حتى القـرآن الكـريـم. لهذا الإطار النظـرى، ونكتشف فى النهايـة، أن النص يضيع، فى زحمة الجداول والإحصائيـات والأشكال، وغير ذلـك من زخـارف تصرف القـارئ عن النـص، وتجعله مبهـورا بـاستعراض العضـلات، والتشقيقات الجدليـة والتلاعب اللفظـى. تقرأ عند أحدهـم تحليلا لمعلقة امـرئ القيس، وتضيع المعلقـة ويبقى حديثه عـن الشبق الجنسى. وتقرأ عنـد الآخر تحليلا لفكرة التقـابل والتماثل فى القـرآن الكريم، ويضيـع منك النص، وتبقـى فى مواجهة زحمة مـن الأشكال، التى يمكن أن تقـرأ مقلوبة ومعدولة. إن الفكرة النظـرية عند نقاد الحداثة تعنـى طرح كل شىء ماعدا النص، ولكنها عند التطبيق، تتحول إلى الاهتمام بكل شىء ماعدا النص.

الغـذّامـى

فى « الخطيئة والتكفير »

ـ ٢٣ ـ

ولن نقـف عند كل واحـد من نقاد الحداثـة بالتفصيـل ، فكلهم عجينة واحـدة . اللغة واحدة ، والمصـادر واحدة ، والنتيجـة فى النهايـة واحدة ، وهـى اغتراب عن القـارئ وعن النص معا .

ولكننا سنختار واحدا من هؤلاء النقاد ، هو الدكتور عبد الله الغذّامى ، لأنه من أكثرهـم اجتهادا . فهو يسوق أفكاره فى قالب مشوق تبدو فيه الخصوصية إلى حدما ، وهو يبحث فى التراث عن سند لأفكاره ، ويـردد أعلاما مثل الغزالى وابن سينا والقرطـاجنى وابن خلدون . وهو ، بعد ذلك كلـه ، يقدم نموذجا تطبيقيا ، يلتمسه فى أشعار حمزة شحـاته ، ويمتحن به صدق نظرياته .

ولن نقف عند كل كتـب الغذامى ، بل سنختار من بينها واحدا ، وهـو كتابه « الخطيئة والتكفير» (الطبعة الأولى سنـة ١٤٠٥هــ ١٩٨٥م) ، لأنه أهـم كتبه فيها يتعلـق بنظريـة الحداثـة ، وبقية كتبـه عيـال على هذا الكتـاب ، فهـى مجرد محاضرات عـامة ، أو مقـالات صحفية ، تعتمد فى مادتها الرئيسة على ماجاء فى كتاب « الخطيئة والتكفير» .

ـ ٢٤ ـ

ويصدِّر الغذامـى كتابه باقتبـاسات لشتراوس وبارت ، تؤكـد على أهمية اقتراب الأدب كعلم من ميدان العلوم الطبيعية . وهذه الاقتباسات التى اختارها الغذامى وتعبر عن رأيه ، تنظر إلى هذا الاقتراب كفتح جديـد فى ميدان الأدب ، أو على حد تعبير شتراوس فى إحدى هذه الاقتباسات :

« روضت العلوم الإنسانية نفسها منذ قرون ، على النظر إلى العلوم الطبيعية على أنها نوع من الفـردوس الذى لـن يتاح لها دخولـه أبدا . ولكن فجـأة ظهر منفـذ صغير ، انفتح بين هذين الحقلين ، والفاتح لهذا المنفذ هو علم اللغة الألسنية» .

وقد تعرضنا لفكرة الموضوعية فى الأدب رقم / ١٦ . فإذا كان هناك من يراها كشفا وفتحا وفردوسا ، فغيره كثيرون ممن يرونها شكلية فارغة ، تكشف عن سيطرة العلم ، وتعكس رغبة

التكنولوجيين فى تحويل كل شىء إنسانـى إلى موضوع . فليست هى إذن الفردوس المفقود ، وليست هى المخلص لعالم الأدب ، بل هى تجمد هذا العالم الحى ، وتحوله إلى شىء بارد .

ورأينا أيضا أن هذه الفكرة يصيبها كثير من الغمـوض ، الذى قد يصل إلى حد التناقض بين موضـوعية تلغـى الإسقاطـات إلى الخارج ، وموضوعيـة تبحث عـن الحقائق الثـابتة فى الخارج (انظر الفقرة رقم ١٧) .

ونضيف إلى ماقلناه : إن فكرة موضوعيـة الأدب ، واقترابه من مناهج العلوم الطبيعية ، لم تكن واضحـة فى ثنايـا كتاب الغـذامى ، الذى قـد تحول إلى مجموعـة آراء يقتبسها مـن هنا وهناك ، تختلط فيها مدارس الألسنية عامة دون تفريق .

وقد انتهـى الكتاب بـدعوة مفتوحـة من النـص ، لكى يشكله القـارئ حسب قـراءته الخاصة . ومـن الطبعى أن تتعدد القراءات ، وأن تختلـف حتى عما هو فى نية المؤلـف . وقد يكون هذا متفقا مع طبيعة الأدب ، ولكنه لايتفق مع العلوم الطبيعية ، التى لاتقبل إلا ماهو يقين ، والتـى تعزل الظـاهرة عـن الاستجابـات الذاتيـة (القراءات الخاصـة) ، وتحولها إلى موضوع محايد ، لايختلف حوله اثنان .

ـ٢٥ـ

وقد وصف الغذامـى كتابه على الغلاف ، ضمن أوصاف ثلاثة أطلقهـا على صدر كتابه بانتشاء ، وصفه بأنه « مقدمة نظرية ودراسة تطبيقية » ، ومن هنا يمكن أن نقسم الكتاب إلى قسمين :

١ ـ قسم نظرى .

٢ ـ قسم تطبيقى .

ـ٢٦ـ

والقسم النظرى يطغى على الكتاب . فمنذ الصفحات الأولى حتى ص ١٠٩ . والمؤلف مشغول بتقديم البنيوية والسيميولوجية والتشريحية وغير ذلك من مدارس الألسنية ، وهو فى هذا التقديـم يخلط المدارس بعضها ببعض ، ومايقـوله عن إحداها ينقلـه إلى الأخرى ، وقد يقتبس من كـلام بارت عناصر السيميولوجيـا وهو بصدد الحديث عـن البنيوية (ص ٢٨) ويخرج القارئ فى النهاية دون تعريف محدد للمـدارس . والمؤلف يثنى على الجميع ، ولايفرق

بين واحـد منها . وكـل كاتـب يصبح مـدرسة ، وكـل مدرسـة تعتبر فتحا فى مسيرة النقـد العـالمى ، أو كما قال (ص ٤١) عـن البنـائية : « وبـذلـك تبرز كـأكبر تحول أدبى فى هـذا القرن ، من كل وجوه الفكر الإنسانى ، وربط الإنسانيات بمناهج العلوم التجريبية » .

ويبـدأ الحديث عـن النمـوذج التطبيقى مـن ص ١٠٩ ، ولكنـه يظل حتـى ص ٢٥٩ حديثا فلسفيا ومضمونيا ، وهو حديث يشغل الفصلين الثانى والثالث من هذا الكتاب .

ففى الفصل الثـانى ، وتحت عنوان « فلسفة النموذج » ، يتحدث عـن فلسفة النموذج ، والتى تدور حـول القصة الأزلية بين آدم وحواء ، التـى بدأت بالخطيئة ، وانتهـت بالتكفير. ومن هنا ، كان عنوان كتابه « الخطيئة والتكفير » .

إن الغـذامى لم ينطلـق فى هـذا الفصل مـن سمـة فنية نصيـة ، ولكنـه انطلق مـن محور عقائدى وجدانى تاريخى ، يضرب إلى تراث دينى مقدس ، سماه « الخطيئة والتكفير » ، وأخذ يتبع عناصر هذا المحور التى حددها فى ستة هى .

١ ـ آدم (الرجل ـ البطل) البراءة .
٢ ـ حواء (المرأة ـ الوسيلة) الإغراء .
٣ ـ الفردوس (المثال ـ الحلم) .
٤ ـ الأرض (الانحدار ـ العقاب) .
٥ ـ التفاحة (الإغراء ـ الخطيئة) .
٦ ـ إبليس (العدو ـ الشر) .

وقد حرصت أن أنقل مدلولات هذه العناصر بالطريقة التى ذكرها الغذامى ووضعها بين الأقـواس ، لأبين أن هـذا الفصل قـد تحول إلى البحـث عـن هـذه العناصر داخـل العمـل الأدبى .

وأصبحت العنـاصر مطاطة بعد أن حـولها إلى رموز ، وهى رموز واسعـة ، تشمل البراءة والإغراء والمثـال والحلم والانحدار والعقاب والخطيئـة والعدو والشر ، أو بعبارة أخـرى هى تشمل كل مافى الكون ، وكل مايدور داخل الإنسان من مشاعر الخير أو الشر .

ولم أجد فى كـل ماقدمه الغـذامى من قصائد ، بـل فى كل قصائد حمزة شجاتـة ، إشارة صريحة إلى قصة الخطيئـة والتكفير بعناصرهـا الستة ، وكل مـا وجدتـه هو تفسير دلالى لهذه العناصر ، وهو تفسير مطاط شامل ، راح المؤلف يتابعه فى القصائد بلا كلل ولا ملل .

والمؤلف يتكلف فى شرحه للقصائد حتى تستجيب لهذه الرموز . فالقارئ يقرأ الشعر ، ثم يقرأ شرحا مخالفا . إنها أفكار مسبقة عن نموذج عقائدى وجدانى ، يحاول المؤلف أن يفرضه على واقع القصيدة .

نحن إذن إزاء دراسة نفسية تحليلية فلسفية، يكثر فيها المؤلف من الإشارة إلى يانج ومصطفى سويف، وإلى تعبيرات مثل : جماعية اللغة، واللاشعور الجمعى وحالة النحن؛ وهى تعبيرات ثلاثة ترتد إلى قاموس التحليل النفسى.

فهى إذن دراسة نفسية من نوع الدراسة التى كان العقاد يستخدمها ويبحث فيها عن مفتاح الشخصية. والغذامى لاينكر ذلك. يستخدم التعبير العقادى فيقول : « وحسبنا أن قدمنا نموذجا فى مانراه «مفتاحا» لأدب شحاته، وحسب أمثلة موجزة عنه مؤشرا إليه ودالا عليه، والعمل هو مفتاح نفسه، والقارئ هو الفاعل». (ص ١٨٠) .

لا لوم على العقاد، فهذا هو منهجه وهو لايخفيه، وهو يخلص له نظريا ونصيا، وهو يطبقه على شخصيات أدبية وغير أدبية. وهو يستخلصه من واقع شخصياته، دون إسقاطات مسبقة. وهو، حين يشير مثلا إلى صفة « النرجسية» كمفتاح لشخصية الحسن ابن هانى، فإنه يستقرئ هذه الصفة فى أشعاره، وهو يستشهد بأقوال علماء النفس، الذين يدعمون من منهجه النفسى.

ولكن الغذامى غير ذلك، المقدمات تختلف عن النتائج. وأول الكتاب حديث عن المضوعية العلمية، وهتاف بسقوط التحليلات النفسية، وآخره تجسس على شخصية الشاعر، وبحث عن دوافعه، وتحليل لعقده واتجاهاته، ونبش لحياته الخاصة، وحديث عن فلسفة الرفض عنده، وكشف لعقدة الناقص الذى يبحث عن الكامل على حد تعبيره (ص ٢٠٢) .

أما الفصل الثالث، فعنوانه (آدم حيا . . آدم خطاء) ، وهو عنوان فى تركيبه يقترب من إيقاع الجملة فى الكتاب المقدس، ومازال المؤلف يلح على ذلك الجواللاهوتى المتمثل فى القصة المقدسة بين آدم وحواء، والتى يسميها المؤلف قصة الخطيئة والتكفير.

وإذا كان المؤلف قد تحدث فى الفصل السابق عن عناصر هذه القصة، وحددها فى ستة، فإنه فى هذا الفصل يتحدث عن محاور هذه القصة، ويحددها فى ثلاثة ، هى :

١ ـ محور (التحول ـ الثبات) .

٢ ـ محور (الشعر ـ الصمت) .

٣ ـ محور (الحب ـ الجسد) .

وغرض هذا الفصل دلالى، وليس جماليا، كما يقر المؤلف (ص ٢٢٠). ومن هنا، تحول هذا الفصل إلى دراسة فلسفية ، تتابع فى شعر شحاتة المضامين الآتية :

١ ـ روح التجديد .

٢ ـ فلسفة الرفض .

٣ ـ صورة المرأة .

فالفصل إذن دراسة موضوعية ، لا بالمعنى البنائى الذى يتحول فيه النص إلى موضوع مكتف بنفسه Self suffi cience ، ولكن بمعنى أن النص هنا يحيل إلى موضوع olj ective خارجى ، ويصبح النص دالا يبحث عن مدلول .

ويبقى الحديث عن العناصر الجمالية فى شعر حمزة ، متمثلا فى الفصلين الأخيرين ، ويبدأ من ص ٢٥٩ ، لينتهى آخر الكتاب ص ٣٤٣ ، أى أقل من مائة صفحة على أحسن تقدير .

ولم تخلص هذه الصفحات المائة للناحية الجمالية وحدها ، بل إن ولع المؤلف بالتجريديات والنظريات ومايدور حول النص ، استغرق أكثر من نصف هذه الصفحات ، ولم يبق ـ عند أحسن تقدير ـ سوى مايقل عن ٥٠ صفحة للناحية الجمالية من جملة هذا الكتاب الطويل .

وسوف نتحدث بالتفصيل عن هذه الصفحات فى الفقرة رقم / ٣٩ .

ـ ٢٧ ـ

وليس الغذامى مؤلفا للجزء النظرى ، الذى يحتل مساحة كبيرة من هذا الكتاب ، بالمعنى الدقيق لكلمة التأليف . بل هو عارض جيد لآراء الألسنيين فى العالم الغربى .

وهو لاينفى ذلك . فقد بلغ قدرا من الشجاعة والأمانة ، ما جعله يشير إلى مصادره ، وينسب كل شىء إلى صاحبه . ولم يبلغ من القحة حدا لكثيرين فى عالمنا العربى ممن يترجمون هذه الآراء ، ثم ينسبونها إلى أنفسهم ، يسيئون الظن بإمكانية القارئ على كشف الدخيل من الأصيل ، ويسىء القارئ بهم الظن مرتين : مرة لأنه دعى سارق مخادع ، وأخرى لأنه يجهل إمكانات القارئ ويشكك فى نضجه .

الغذامى إذن يجاهر بمصادره ، وهو يذكر ثبتا لهذه المصادر فى نهاية كتابه ، وهو يحيل إليها فى الهوامش فى ثنايا كتابه .

وهى مصادر أجنبية بالدرجة الأولى ، لأن الغذامى ، كما قلت ، عارض جيد للمدارس

الألسنية فى الغرب . وحين يورد فى نهاية كتابه كشفا بمواد الكتاب، فإننا نلاحظ أن الأعلام الأجنبية تطغى بدرجة كبيرة، وتتكرر بصورة لافتـة، فدى سوسيير مثلا يرد فى الكتاب نحوا من ١٨ مرة، وديريدا ١٣ مرة، وشتراوس ١١ مرة، وياكوبسون ١٠ ، وكولر ٦ .

-٢٨-

والشخصية الأولى، التى تمثل غرام المؤلف، هى شخصية رلان بارت . فإذا كان بارت، كما يقولون ، قد توحد بالنص وأصبح عشقه الأول والأخير، فإن الغذامى قد توحد ببارت، وأصبح همه الأول والأخير. فهو يكرر اسمه فى ثنايا الكتـاب نحوا من ٤٥ مرة . وهو يقدمه بحديث الوهان، وكأننا إزاء فارس من فرسان العصور الوسطى. فيقول تحت عنوان « فارس النص» .

« لم يحظ أحد بـالتربع فوق سنـام نظريات النقـد، مثلما حظى رولان بارت، الـذى قاد طلائع النقد الأدبى لمدة ربع قرن، وماتزحزح عن الصدارة قط » (ص٦٤) .

وهو ينهى الحديث عنه تحت عنوان « عشق النص»، فيقول :

« هذه بعض مـن أفكار بارت ، أفردتها هنـا بحديث يخصها ، ومـاذلك بحاو إلا لجزء يسير من إنجـاز هذا النـاقد العظيم، وغير مـاذكرت الكثير، ومنه شـىء تناولتـه فى عرض الكتاب، رأى القارئ بعضه فيما سبق، وسيرى كثيرا فيما يلحق من فصول » (ص٧٤) .

وهو بين البداية والنهاية، يقول : « ويبرز من خلال كتابـاته كاتبا متميزا ماهو بالناقد، وماهو بالفيلسوف، ولا هو بالشاعر والفنان، وماهو بالروائى. ولكنه كل هؤلاء مجتمعين» . (ص٦٧) . ويقول : « ومن هذا المنطلق، تحررت كل كتابات بارت، حتى فترة السبعينيات حيـث ، يقفز جـواد فـارسنا قفـزات واسعـة المدى لتحريـر النـص مثلما حرر الكلمـة» . (ص٧١) .

وهو، بعد ذلـك كله ، يدورمع فـارسه حيث دار ، ومع ذلـك، يحس إزاءه بتقصير تنم عنه الأسطر الأخيرة (ص ٧٤) كما يحس دون سانتشو إزاء صديقه وفارسه دون كيشوت .

النصية ورولان بارت

ـ ٢٩ ـ

ويمكن أن نصنف كل ماقاله الغذامى من آراء نظرية ، تحت مصطلحين :

١ ـ النصية Textuality

٢ ـ التناصية intertextuality

وأعنى بالنصية كل مـا شرحته من قبل فى المقولة الثلاثية (مـوت المؤلف ـ إحياء النص ـ مشاركة القـارئ) ، والذى يتلخص فى معاملة النص كقماش أو نسيـج أو تصوير ، أو غير ذلك من مفردات تركز على النص كبنية فنية ، دون أن تهتك هذه البنية بالبحث عما وراءها ، من معلومات ثقافية ، سواء كانت اجتماعية أو نفسية أو تاريخية أو حضارية .

وقد وجهت تحفظـات كثيرة حول هذه الفكرة ، ألمحنا إلى بعضها فيما قبـل ، وتكاد تتفق على أن هـذه الفكرة يمكـن أن تـؤدى إلى شكلية فـارغة ، تجرد الأدب مـن كـونه « تجربـة » axperience زاخرة بالحياة والظلال والإيحاءات .

ومـن أجل ذلـك ، بـرز على السطـح المصطلح الثـانـى « التنـاصية » ، ليكمـل مفهـوم « النصية » ، ويتلافى الكثير من التحفظات . إن النصيـة تعنى الآنية ، والنظر إلى النص دون امتداد تاريخى . أمـا التناصية ، فهى تعنـى « تداخل النصوص » ، وتكشـف عما وراء البنية من عمق تـاريخى ، يتمثل فى ثقل النصوص ، أو حضور نصوص أخـرى وراء هذا النص . فالنـص ، حينئذ ، ليس هو ابـن لحظته ، بل هو نتيجـة حوار مع أرواح سابقـة تفضى إلى النص الحالى بالسر ، وتجعله جديراً بأمانة الكلمـة ؛ وهومايعبر عنه مرة بجماعية اللغة ، ومرة بالسياف التاريخى ، ومرة بسياق الجنس الأدبـى ، ومرة بسياق النص نفسه ، وغير ذلك من تعبيرات يمكن أن تجمعها كلمة واحدة وهى « التراث » .

ـ ٣٠ ـ

وكل ماذكره الغذامى عن ياكوبسـون وغيره ، وكل ماذكره عن التشريحية وغيرها ، يمكن أن يرتد إلى مفهوم النصية والتناصية .

ولن نعيد مـاذكره بالتفصيل ، فقـط سنقف عند غرامـه الأول والأخير رولان بارت ، وفى

صورة موجزة يمكن أن تعطى فكرة عن موقف الغذامى نفسه، وعن موقف نقاد الحداثة بصورة عامة.

إن ماذكرناه من قبل عن المقولة الثلاثية (موت المؤلف - التركيز على الشكل - مشاركة القارئ) ، يمكن أن يعد مصدرا أساسيا لكل ماقاله الغذامى عن فكرة النصية نقلا عن رولان . فهو يلخص مقالة رولان «موت المؤلف»، وهو فى هذه المقالة لايخرج عن المقولة الثلاثية، التى تبدأ بنقض فكرة المحاكاة بمعناها الإغريقى، وإعلان موت المؤلف بكل مايحمله من سيرة ذاتية، ومعارف عامة، وتضمينات نفسية أو اجتماعية. وكل هذا يفسح المجال أمام النص، لكى يكون عالما مكتفيا بنفسه، متضمنا إشاراته داخل بنيته النصية، ثم يقدم القارئ بعد ذلك بكل تبجيل وسلطة، لكى يفك إشارات هذا العالم المغلق، ويمنحه الحياة، وحول كل هذه المعانى، يقول الغذامى :

« لو كتب لقيس بن الملوح أن يصل إلى ليلاه، فما هو طريقه إليها؟

لاطريق له سوى أن يموت زوجها الذى حال بينه وبينها. وهذا تماما هو طريق رولان بارت إلى معشوقه، إلى النص. ولذا يكتب مقالة فى عام ١٩٦٨ ، يعلن فيها « موت المؤلف»، وكان هذا هو عنوان المقالة . وفيها يناقش بارت مفهومات مؤلف وقارئ، مؤكدا على أن الكتابة هى فى واقعها نقض لكل صوت ، كما أنها نقض لكل نقطة بداية، (أصل). وبذا يدفع بارت المؤلف نحو الموت، بأن يقطع الصلة بين النص وبين صوت بدايته . ومن ذلك تبدأ الكتابة التى أصبح بارت يسميها بالنصوصية (Textuality)، بناء على مبدأ أن اللغة هى التى تتكلم وليس المؤلف، والمؤلف لم يعد هو الصوت الذى خلف العمل أو المالك للغة أو مصدر الإنتاج. ووحدة النص لاتأتى من أصله ومصدره، ولكنها تأتى من مصيره ومستقبله. ولذا، يعلن بارت بأننا نقف الآن على مشارف عصر القارئ. ولاغرابة أن نقول إن ولادة القارئ لابد أن تكون على حساب موت المؤلف. وبذا يحسم بارت الصراع بين العاشقين المتنافسين على محبوب واحد، فينقل رولان بارت منافسه، ليستأثر هو بحب معشوقه (النص)، وينتصر القارئ على المؤلف، ويخلو الجو للعاشق، كى يمارس حبه مع محبوبه الذى لايشاركه فيه مشارك » . (ص ٧١) .

التناصية ورولان بارت

- ٣١ -

أما فكرة التناصية عند الغذامى ، فهو يشير إليهـا فى مواقع متعددة من كتابه ، نقلا عن رولان بارت أيضا . وهـو ، مرة ، يسميها جماعية اللغـة (ص ١٤٠) ، أو كما يقول بارت فى كتابه (S/Z) ، والذى يصفه الغذامى بأنه فريد .

« أنا ، أقـرأ النص . هـذه المقولـة بتناغمهـا مع عبقـرية اللغـة ليست دائما صحيحـة . فالنص كلما زادت جماعيته ، تضاءلت فيه صفة النص المكتوب قبل القراءة . وأنا لا أخضعه لعملية تحويل ، يترتب عليها عملية أخرى ، تعـرف بأنها القراءة ، لأن هذه الأنا ليست ذاتا بريئـة وأجنبية على النـص تتعامـل معه كنتيجـة لذلـك ، وكأنـه مادة للتحليـل أو منتجع للسكنى . إن هذه الأنا التـى تتقدم نحو النص هى نفسها (جماعية) تكـونت من نصوص أخـرى ، ومن شفـرات غير متناهيـة ، أو بقـول أدق . من شفـرات منسية (أى أن أصـولها منطمسة) . . » .

وهـو ، ثانيـة ، يسميهـا المخزون المعجمـى ، ليشير بذلـك إلى فكـرة رولان بارت عـن «المعجـم المتبايـن العناصر للنصـوص المتداخلـة» . heterog eneous dictionory of intertes ctuality وهو يعنى أن هـذا المخزون قد تكون « من خلال نصـوص متعاقبة على ذهن القارئ . . . فالنص يصنع من نصوص متضاعفة التعاقب على الذهن ، منسحبة من ثقافـات متعددة ، ومتداخلـة فى علاقات متشـابكة مـن المحاورة والتعارض والتنـافس» . (ص٣٢٣) .

وهـو ، ثالثـة ، يسميهـا بالبعـد التاريخى ، على أسـاس أن لكـل كلمة لغـويـة بعديـن أساسيين تتحرك خـلالها « بعد آنى» sonchronic ، وآخر تـاريخى dia chroinic . وفى الخطاب العادى يبرز بعدها الآنى (وهو استعمالها العصرى) لأن الهدف منه مباشر ونفعى . أما فى النص الأدبى ، فإن الموروث الفنى للجنس الأدبى الذى يتقمصه النص ، يعلى جانب البعد التاريخى للكلمـة ، لكنه لايسجنها فيه . فهى بقـدر ماتترفع عن البعـد المباشر ، فإنها أيضا تتجاوزه منفتحـة على المستقبل ، ورصيدها الموروث يمكنها مـن منح إيحاءات متعددة المضـامين . وهذا يفتـح مجالها لتكون قـادرة للدلالـة على أى شىء يتخيلـه متلقيها ، حتـى لكأنها تدل على كل شىء ، أولا تدل على شىء أبدا» . (ص ٣٢٤) .

وهو ، رابعة ، يسميها بالشفرة الثقافيـة ، مشيرا أيضا إلى منهج رولان بارت فى نقد النص الأدبى خلال شفرات خمس ، يهمنا منها هنا شفرتان :

١ ـ الشفرة الثقافية . « وتشمل الإرجاعات المعرفية التى تشير إلى ثقافة ما تتسرب خلال النص، وهـذا ليس معناه أن بـارت يسعى إلى رصد المعـرفة النفسية للنـص ، ولكنه يهدف فقط إلى مجرد الإشارة إلى نوعية هذه المعرفة» . (ص٦٦) .

٢ ـ الشفرة الرمـزية . ويشرحها الغذامى بما سبق أن تحدث عنـه حول المنهج البنيوى فى اكتشاف عالم النـص دون إسقاطات خارجيـة ، وخاصة خلال فكـرة التقابل بين الشيئين ، والتى تعود فيما يرى إلى الفكرة البلاغية عن الطباق (انظر ص ٦٦) .

وهو، خامسة ، يعيدها إلى الموروث التراثى ، ويذكر هنا صراحة أن هذا « إعادة للوحدة بين المنشـئ والمتلقى فى استقبـال النـص وفى تفسيره ، أى العرف الأدبـى الـذى تنشأ عنـه مقومات الأدب» . ويستشهد هنا بما قاله كولـر « إنه من التضليل أن تتحدث عن القصيدة على أنها كل متجـانس أو وحـدة عضوية مستقلـة ، تامـة فى نفسها . وتحمل معـانى ثـرية فائضة . إن التناول السيميـولوجى يقترح نقيض ذلك . بأن نفكـر فى القصيدة على أنها قول لادلالة له إلا ضمن الأنظمة العرفية التى اكتسبهـا القارئ ولو أطلقنا أنظمة أخرى غيرها ، فإن إمكانات الدلالة عندئذ ستتغير» . (ص ٣٢٢) .

وهو ، سـادسة ، يشير إلى التراث الثقـافى للجنس الأدبـى ، على أساس أن كـل جنس يتملك أعرافه الأدبيـة ، التى تفرض نفسها على المؤلف وعلى القارئ . وهـو يستشهد بذلك على فكرة الجنس الأدبى ، التـى يرى كولـر أنها تسبق عملية القـراءة وتوجـه مصير النص «ولايستطيـع المنشـىء أن يتمـرد على هذا السلطـان مهما حـاول . لأنـه محكـوم فى التفكير بـالقارئ ، ولـوحاول تجاهـل القـارئ فلابـد لـه أن يفكر فى نفسـه كقارئ لعملـه» . (ص ٣٢٣) . وهو، فى كل ذلك ، يتدارك الاعتراضات التى وجهت إلى فكرة النصية ، بأنها تقف عند الآن ، وتقـدم النص كعـالم مغلق على نفسـه دون امتدادات . ولكـن فى النهايـة تبدو المصطلحـات عند نقـاد الحداثـة مطاطـة ، فهـم ينقضـون مايقـولـون ، ويستدركـون على مايؤكدون .

البلاغة العربية
وفكرة النصية

ـ ٣٢ ـ

« عن الغذامى عن رولان بن بارت أن العرب كانوا يحتفون بالشكل ويشبهون الأدب بالجسد الحى[١] .

وليست العهدة فى هذا على الراوى وحده ، فاحتفاء العرب باللفظ وتشبيهه بالجسد أو التصوير أو النقش أو النسيج أمر متواتر فى كتب البلاغيين . ولكن العجيب أن الراوى يأخذ ثقافته عن الأعجمى . والأشد عجبا أنه يتمادى فى غيه ، وينقل من كتب الأعاجم مايراه جديدا ، وعندنا الكثير منه فى مؤلفات الجاحظ وابن عبد ربه والجرجانى » . انتهت المخطوطة .

تلك مقدمة ، أردت بها أن أقلد القصص الحديثة ، التى تحاول أن تستلهم طريقة المخطوطات القديمة . وهى مقدمة ليست بعيدة عما نحن بصدده فى هذه الفقرة . فكل ماجاء عن الغذامى فى حديث عن النصية والتناصية ، يمكن أن نجد له مدخلا عند علوم البلاغة العربية ، لولا النفور غير الموضوعى عند نقاد الحداثة من البلاغة التقليدية ، وانصرافهم عنها كلية ، دون أن يتخذوها منطلقا وخلفية لأفكارهم حول الحداثة ، كما تفعل كل أمم الأرض ، التى تنطلق من علومها التقليدية لتؤسس نظرياتها الحديثة .

وقد لقى كتاب « الإيضاح » للقزوينى هجوما غير مبرر من نقاد الحداثة ، فقد وصفوه بالجمود وتحويل النقد من مساره الحى إلى قواعد ميتة

وهذا الاتهام غير مبرر ، لأن القزوينى كمثال لعلماء البلاغة ، ليس ناقدا ، ولكنه نظر فى الكتب السابقة وحولها إلى مصطلحات ، أو كما قال هو نفسه فى خطبه الكتاب : «فاستخرجت زبدة ذلك كله ، وهذبتها ، ورتبتها ، حتى استقر كل شىء فى محله » . فهو إذن يفعل ما تفعله كتب المصطلحات الحديثة ، التى تستخرج المصطلحات من الحركة النقدية والمدارس الأدبية ، وترتبها . وتقننها ، ونضع كل شىء فى محله . وهو جهد علمى بلاشك ، يقابل بالتقدير والامتنان من نقاد الحداثة فى العالم العربى ، بشرط أن يكون صادرا من الأعاجم ، وممهورا بحروف أجنبية . أما إذا صدر من القزوينى وغيره ، فهو جمود يعوق الحركة الأدبية والنقدية ، ويحولها إلى قواعد ميتة .

---

(١) انظر : الخطيئة والتكفير : ص ٨٦ .

ونحن فيما يلى سنبحث عن مدخل للنصية والتناصية من كتاب الإيضاح، على أساس أنه كتاب فى المصطلحات البلاغية المركزة، يغنينا عن متابعة التفصيلات فى الكتب النقدية والأدبية، وعن الوقوف عند الجاحظ وعبد القاهر الجرحانى وغيرهما من نقاد العربية .

ـ٣٢ـ

إن فكرة النصية، باعتبارها تركيزا على النسيج اللفظى بالدرجة الأولى، يمكن أن نجد جذورا لها فى كتاب الإيضاح بتبويبه التقليدى، الذى يتكون من مقدمة فى الفصاحة والبلاغة، ومن أبواب ثلاثة تغطى علوم البلاغة الثلاثة (المعانى ـ البيان ـ البديع) ، وهو تبويب صار تقليدااتبعه كتب البلاغة العربية .

ففى المقدمة، يركز على اللفظ ، ولايبحث المعنى إلا من خلال اللفظ وهو ، ثانيا ، يعرف علم المعانى بأنه « علم يعرف به أحوال اللفظ العربى التى بها يطابق مقتضى الحال». (ص ١٥) .

وهو، ثالثا، يعرف علم البيان بأنه « علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه » . (ص ٢١٥) .

وهو ،رابعا، يعرف علم البديع بأنه « علم يعرف به وجوه تحسين الكلام» . (ص٤٨).

وهو فى كل الأحوال يحتفى بالنسيج اللفظى، بصورة واضحة ولافتة لانحتاج معها إلى أن نروى عن رولان بن بارت .

ففى حديثه عن الفصاحة يركز على التنافر والغرابة والقياس، (فصاحة الكلمة)، أو على ضعف التأليف والتعقيد (فصاحة الكلام)، أو على الكلمة التى تعبر عن المقصود (فصاحة المتكلم) . وهو يستشهد على كل ذلك بأبيات من الشعر يقف فيها عند النسيج اللفظى، دون أن يتجاوزه إلى إسقاطات اجتماعية أو تاريخية .

وقد يبدو فى حديثه عن مصطلح « بلاغة الكلام» ميل إلى المعنى، على أساس أن هذا المصطلح يعنى بمقام مقتضى الحال، ولكنه سرعان مايفسر هذا المقام تفسيرا لفظيا، يحصره فى أحوال التنكير والتعريف، أو التقديم والتأخير، أو الإطلاق والتقييد، وغير ذلك من أحوال لاتتجاوز النسيج اللفظى .

وهو يذكر صراحة أن « بلاغة الكلام» إنما تعود إلى اللفظ دون المعنى . « فالبلاغة ، صفة راجعة إلى اللفظ باعتبار إفادته المعنى» (ص ١٢) . وهو ينطلق من هذا التعريف،

فيفسر فكرة « النظم» عند عبد القاهر تفسيرا يعود إلى اللفظ ، ويدفع الفهم المغلوط لبعض عبارات الجرجانى ، التى يقول فيها مثلا : « علمت أن الفصاحة والبلاغة وسائر ما يجرى فى طريقهما أوصاف راجعة إلى المعانى ، وإلى مايدل عليه بالألفاظ دون الألفاظ أنفسها» .

إن الجرجانى فى مثل هذه التعبيرات التى تفهم بطريقة خاطئة ، إنما يعنى أن صفة البلاغة راجعة إلى اللفظ باعتبار إفادته المعنى عند التركيب ، لأن الجرجانى نفسه فى مواضع أخرى من كتابه « دلائل الإعجاز» يركز صراحة على اللفظ ، وينقل عن الجاحظ قوله «المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى ، والقروى والبدوى . وإنما الشأن فى إقامة اللفظ وتخير الوزن وسهولة المخرج وصحة الطبع وكثرة الماء وجودة السبك» .

ويستمر القزوينى فى شرح فكرة النظم شرحا يعود بها إلى البنية اللفظية ، ثم يختم ذلك باقتباسات عن الجرجانى توضح موقفه غاية التوضيح من مثل قوله :

« ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة ، وأن سبيل المعنى الذى يعبَّر عنه سبيل الشىء الذى يقع التصوير فيه ، كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار. فكما أنه محال ـ إذا أردت النظر فى صوغ الخاتم وجودة العمل ورداءته ـ أن تنظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة ، أو الذهب الذى وقع فيه ذلك العمل ، كذلك محال ـ إذا أردت أن تعرف مكان الفضل والمزية فى الكلام ـ أن تنظر فى مجرد معناه . وكما أنّا لو فضلنا خاتما على خاتم ، بأن تكون فضة هذا أجود ، أو فضة أنفس ، لم يكن ذلك تفضيلا له من حيث هو خاتم ، كذلك ينبغى إذا فضلنا بيتا على بيت من أجل معناه ، ألا يكون ذلك تفضيلا له من حيث هو شعر وكلام» ، (ص ١٣) .

وهو فى علم المعانى يركز على اللفظ ، وقد تبدو كلمة «معانى» هنا موهمة ، ولكن القزوينى يحصر هذا العلم فى أبواب ثمانية (ص ١٧) ، تعود كلها إلى أحوال اللفظ .

وهو فى علم البيان يركز على الطرق ، التى تختلف فى دلالتها من عبارة إلى عبارة حسب مقتضى الحال .

ويمكن أن نستشف من حديثه فى هذا الباب أمرين رئيسين ومتداخلين الأول : أن علم البيان يتعلق بالعبارة الأدبية ، أو مايسميه هو بالدلالة العقلية فى مقابل الدلالة الوضعية .

فالدلالة الوضعية ، أى دلالة اللفظ على ماوضع له ، لاتدخل فى علم البيان « لأن السامع إن كان عالما بوضع الألفاظ ، لم يكن بعضها أوضح دلالة من بعض ، وإلا لم يكن كل واحد منها دالا» .

أما الدلالة العقلية ، فهو يعنى بها النص الأدبى ، والذى هو وراء التركيب الحقيقى

(الـوضعى) . وهـو يحصرهـا ، وهذا هـو الأمـر الثانـى ، فى التشبيـه والمجاز (الاستعـارة) والكنايـة ، وكل واحد مـن هذه الأمور الثلاثـة تقدم العبارة بطـريقة تختلف عـن الأخرى ، وهذه الطريقة تحدث فى الكلام كبنية نصبية تعبر عن المقام المناسب .

وهو فى علـم البديع يـدرس وجوه تحسين الكلام ، ويـركز شأن غيره مـن البلاغيين على المحسنات اللفظيـة . وهو حين يـدرس المحسنات المعنـوية لايـدرسها كمعـان مجردة ، بل يدرسهـا كمعان خـلال العبارة الأدبيـة ، لأن علم البـديع إنما يـأتى تـاليا لعلمـى المعانـى والبيان ، أى بعـد أن يتحقق للعبارة الأدبيـة مراعاة مقتضـى الحال ووضوح الدلالـة . ومن هنا ، نجد تعريف هذا العلم عن القزوينى (ص ٣٤٨) يشمل العلمين الآخرين .

نمـوذج تطبيـقى
من البـلاغة العـــربية

ـ ٣٣ ـ

هذا كله عن البلاغة العربية كتجريد نظرى، ينطلق من أبوابها التقليدية .

ويمكن أن نضيف إلى ذلك نموذجا تطبيقيا مستمدا من البلاغة العربية، وهو ماورد فى كتاب الإيضاح، نقـلا عن الزمخشرى، حول الآيـة الكريمة : ﴿وقيل يـا أرض ابلعى مـاءك ويـاسماء أقلعــى وغيـض الماء وقضـــى الأمـر واستـــوت على الجودى وقيـل بُعـــدًا للقـوم الظالمين﴾[1].

وهدفنا من ذلك أمران :

الأول : إثبـات أن البلاغـة ممثلة فى علميهـا الرئيسين (المعـانى والبيـان) إنما هى علـم شكلى ، يركز على بنية النص ، كصورة أو نقش أو صيغ أو نسيج ، دون أن يتجاوز ذلك إلى دلالات خارج النص . فـالزمخشرى يعرض هذه الآية مـن وجهة نظر علـم البيـان مرة، ومن وجهة نظر علم المعانى مرة أخـرى . وهو فى كل مرة يكشف عن أسرار الجمال ، ويبحث فى وجوه صوره (علم البيان)، أو فى وجوه ترتيبـه (علم المعانى)، دون أن يهتك نسيج النص ويحمله بمرجعية معرفية أو تاريخية .

أما الهدف الثانى فهو يقصد إلى تقديم هذه الآية كنموذج تطبيقى بعد التجريد النظرى . وهذا النموذج يمتحى أبواب البلاغة ، ويجعل لمصطلحاتها وأبوابها أغراضا عملية ، تنحصر فى بنية النص وأسراره الجمالية .

وهذا النموذج ، كتطبيق ، يثبـت مرة أخرى أن البلاغة فى صورتها التطبيقيـة هى بلاغة شكلية (نصية) . فالزمخشرى يشرح هذه الآية بطريقة لايخرج بها عن النص، وهو فى الوقت نفسه لايقتل النص ، ويحيله إلى ميدان فسيح يعيث فيه القارئ فسادا .

لو أن هذا النص وقـع فى يد واحد من نقاد البنائية ، لشرحه وفككـه ، وحوله إلى جداول وإحصائيات وأشكال ، تقرأ مرة مقلوبة وأخرى معدولـة . حقا قد يثبت قدراته الرياضية ، وقد يـرضى ميوله إلى السيطـرة والتسلط ، ولكن كل هـذا يأتى على حساب النـص ، الذى يخضع ويتلاشى ويتفكـك ، وأخيرا يموت لكى يحيا القارئ . وإذا مات النـص ، ضاعت العملية الجمالية ، لأنه هو المرجعية الحقيقية لكل اختلاف بين النقاد أو القراء .

---

(١) الآية : ٤٤ من سورة هود .

بقى الآن أن ننظر إلى النمحوذج التطبيقى، كقراءة للآيـة الكريمة يقوم بها الزمخشرى من منهج بلاغى بحت ، فيقول :

«أما النظر فيها مـن جهة علم البيان؛ فهو أنه ـ تعـالى ـ لمّا أراد أن يُبَيِّن معنى : أردنا أن نَرُدَّ ما انفجر من الأرض إلى بطنها فارتد، وأن نقطع طوفان السماء فانقطع، وأن يغيض الماء النازل من السماء فغاض، وأن يقضى أمر نوح ـ وهو إنجـاز ماكنا وعدناه من إغراق قومه ـ فقضى، وأن نسوى السفينة على الجودى فاستوت، وأبقينـا الظلمة غرقى، بنى الكلام على تشبيه المراد منه بـالمأمور الذى لايتأتى منـه ـ لكمال هيبته ـ العصيان ، وتشبيـه تكوين المراد بالأمر الجزم النافذ فى تكوين المقصـود، تصويرًا لاقتداره تعالى، وأن السوات والأرض وهذه الأجرام العظام تـابعه لإرادته ، كأنها عقلاء مميزون، قـد عرفوه حق معرفتـه، وأحاطوا علمًا بوجوب الانقياد لأمره، وتحتم بذل المجهود عليهم فى تحصيل مراده.

« ثم بنـى على تشبيهه هذا نظـم الكلام؛ فقـال تعالى: ﴿قِيلَ﴾ على سبيل المجـاز عن الإرادة الواقع بسببها قول القائل، وجعل قرينة المجاز خطاب الجماد، وهو : ﴿يا أرض﴾، ﴿ وياسماء ﴾.

« ثم قـال : ﴿يـا أرض﴾ ﴿و يـاسماء ﴾ . مخاطبا لهما، على سبيـل الاستعارة، للشبـه المذكور.

« ثـم استعار لغـور الماء فى الأرض البلع الـذى هـو إعمال الجاذبة فى المطعـوم، بجامـع الذهاب إلى مقر خفى.

واستتبع ذلك تشبيه الماء بـالغذاء على طريق الاستعارة بالكنـاية؛ لتقوى الأرض بالماء فى الإنبـات للـزرع والأشجـار ؛ وجعـل قـرينـة الاستعـارة لفـظ ﴿ابلعى﴾ لكونه مـوضوعا للاستعمال فى الغذاء دون الماء .

ثم أمر على سبيل الاستعارة للشبه المقدم ذكره.

ثم قال : ﴿ماءك ﴾ بإضـافة الماء إلى الأرض، على سبيل المجاز؛ تشبيهـا لاتصال الماء بالأرض باتصال المِلْك بالمالك، واستعار لحبس المطر الإقلاع الذى هو ترك الفاعل الفعل؛ للشبه بينهما فى عدم ما كان ، وخاطب فى الأمرين ترشيحا للاستعارة.

ثم قال : ﴿ وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيـل بعدا للقوم الظالمين﴾ فلـم يصرح بالغـائض ، والقاضـى، والمسـوى والقائل، كما لم يصرح بقـائل ﴿يا أرض﴾ ﴿وياسماء﴾ . سلوكا فى كل واحد من ذلك سبيل الكناية. إن تلك الأمور العظام لا تتأتى إلا من ذى قدرة لا تكتنه، قهـار لا يغالـب ، فلا مجال لذهاب الوهـم إلى أن يكون الفاعل لشىء من ذلك غيره.

ثم ختـم الكلام بالتعريـض لسالكى مسلكهم فى تكـذيب الرسل ظلما لأنفسهـم ختم إظهار لمكان السخط ، ولجهة استحقاقهم إياه .

« وأما النظر فيها من حيث علم المعانى ، وهو النظر فى فائدة كل كلمة فيها ، وجهة كل تقديـم وتأخير بين جملها ؛ فلـذلك اختير « يـا » دون سائر أخواتها لكـونها أكثر استعمالا ، ولدلالتها على بعد المنادى الذى يستدعيه مقام إظهار العظمة ، ويؤذن بالتهاون به .

« ولم يقل « يا أرض » بالكسر تجنبا لإضافة التشريف ؛ تأكيدا للتهاون .

« ولم يقل « يأيتها الأرض » للاختصار، مع الاحتراز عما فى « أيتها » من تكلف التنبيه غير المناسب للمقام ؛ لكون المخاطب غير صالح للتنبيه على الحقيقة .

« واختير لفظ الأرض دون سائر أسمائها لكونه أخف وأدور.

« واختير لفظ السماء لمثل ذلك مع قصد المطابقة .

« واختير «ابلعـى» على « ابتلعـى» لكونـه أخصر، ولمجـىء حـظ التجانـس بينـه وبين «اقلعى» أوفر.

« وقيل « ماءك» بالإفراد دون الجمع لدلالة الجمـع على الاستكثار الذى يأباه مقام إظهار الكبرياء ، وهو الوجه فى إفراد الأرض والسماء .

« ولم يحذف مفعـول « ابلعى » لئـلا يفهـم مـا ليس بمـراد ، من تعميـم الابتلاع للجبـال والتلال والبحار وغيرها ؛ نظرا إلى مقام ورود الأمر الذى هو مقام عظمة وكبرياء .

« ثم إذ بين المراد اختصر الكلام على « أقلعى » فلم يقل « أقلعى عن إرسال الماء » احترازا عن الحشو المستغنى عنه من حيث الظاهر، وهو الوجه فى أنه لم يقل : يا أرض ابلعى ماءك فبلعت ، ويا سماء اقلعى فأقلعت .

«واختير « غِيضَ الماء » على « غُيضَّ » ؛ لكونه أخصر وأخف ، وأوفق لقيل .

« وقيل « الماء » دون أن يقال « ماء طوفان السماء » وكـذا « الأمر » دون أن يقال « أمر نوح » للاختصار.

« ولم يقل : « سوِّيـت على الجودى » بمعنى أقرت على نحو « قيـل » و«غيض » و«قضى » فى البناء للمفعول ؛ اعتبـارا لبناء الفعل للفاعـل مع السفينة فى قولـه « وهى تجرى بهم » مع قصد الاختصار.

« ثم قيل « بعدًا للقوم » دون أن يقال : « ليبعد القـوم » طلبا للتوكيد مع الاختصار، وهو

نزول« بعدا» منزلة « ليبعدوا بعدا» مع إفادة أخرى ، وهى استعمال اللام مع « بعدا» الدال على معنى أن البعد حق لهم .

« ثم أطلق الظلم ليتناول كل نوع ، حتى يدخل فيه ظلمهم لأنفسهم بتكذيب الرسل .

« هذا من حيث النظر إلى الكلم .

« وأما من حيث النظر إلى ترتيب الجمل ؛ فذلك أنه قدم النداء على الأمر ؛ فقيل « يا أرض ابلعى ، ويا سماء أقلعى» دون أن يقال « ابلعى يا أرض ، وأقلعى ياسماء» جريا على مقتضى اللازم فيمن كان مأمورا حقيقة من تقديم التنبيه ؛ ليتمكن الأمر الوارد عقيبه فى نفس المنادى ؛ قصدا بذلك لمعنى الترشيح .

« ثم قدم أمر الأرض على أمر السماء ؛ لابتداء الطوفان منها ، ونزولها لذلك فى القصة منزلة الأصل .

« ثم أتبعها قوله ﴿ وغيض الماء﴾ لاتصاله بقصة الماء .

« ثم أتبعه ماهو المقصود من القصة ، وهو قوله ﴿وقضى الأمر ﴾ أى : أنجز الوعد من إهلاك الكفرة ، وإنجاء نوح ومن معه فى السفينة ، ثم أتبعه حديث السفينة ، ثم ختمت القصة بما ختمت» .

البلاغة العربية
وفكرة التناصية

ـ ٣٤ ـ

حاولنا فيما سبق أن نلتمس بذورا لفكرة النصية فى كتب البلاغة التقليدية ، سواء كان ذلك عن طريق متابعة أبوابها ومصطلحاتها ، أو متابعة نموذج من تطبيقاتها .

وكان هذا يمثل محورا واحدا من المحورين الرئيسين فى أفكار الغذامى باعتباره عينة لنقاد الحداثة فى العالم العربى . أما المحور الثانى ، وهو التناصية ، فإن مدخلها فى كتب البلاغة يمكن أن يكون بعض المصطلحات ، التى وردت فى كتاب الإيضاح تحت عنوان : « القول فى السرقات الشعرية ومايتصل بها » (ص ٤١١) ، وذلك مثل .

النسخ ــ المسخ ــ السلخ ــ النقل ــ القلب ــ الاقتباس ــ التضمين ـ العقد ـ الحل ـ التلميح .

إن عنوان « السرقات الشعرية » عنوان جارح ، مسئول بالدرجة الأولى عن نفور المعاصرين الذين يقفون عن حد الظاهر ، أما من يتعمقون الأمور ، فإنهم يجدون تحت هذا العنوان مايمكن أن نسميه بعملية توظيف النص ، أو بلغة البنائيين عملية التناص .

وقد يتم التوظيف بطريقة غير فنية تسىء إلى النص ، وحينئذ يسميه البلاغيون بالسرقة المذمومة ، وذلك مثل النسخ . وقد يتم بطريقة فنية تبرز جماليات النص ، فيسميه البلاغيون بالسرقة المحمودة ، مثل السلخ . وسواء كان ذلك فنيا أو غير فنى ، مذموما أو غير مذموم ، فإنه يدخل فى جوهره تحت عملية استلهام التراث . أو تداخل النصوص .

من الصعب فى هذه الدراسة القصيرة أن نتابع كل مصطلح من المصطلحات السابقة ، ولكن يمكن الوقوف عند المصطلح الأخير « التلميح » ، كمثال على تنبه القدماء إلى فكرة تداخل النصوص .

يعرف القزوينى « التلميح » بأنه مايشار فيه إلى قصة أو شعر من غير ذكره ، ويضرب أمثلة على ذلك ، نقف عند ثلاثة منها لتوضيح فكرة استلهام النص .

المثال الأول ، هو قول ابن المعتز :

أترى الجيرة الذين تداعوا   عند سير الحبيب وقت الزّوال

علمـــوا أننـى مقيمُ. وقلبـى راحـل فيهـمُ أمـام الجمال
مثل صاع العزيز فى أرحل القوم، ولايعلمون مافـى الرِّحال

فهو هنا يشير إلى قصة يوسف مع إخوته.

المثال الثانى، هو قول أبى تمام:

لحقنـا بـأخـراهـمْ وقـد حوّم الهوى قلوبـــا عهـدنا طيـرَها وهْـى وُقَّـع
فُردّت علينـا الشمس والليـل راغم بشمـس لهم من جـانب الخدر تطلُـع
نضا ضوءها صبغ الدُّجُنَّة وانطـوى لبهجتهـا ثـوب السمـــاء المجـــزَّع
فـــوالله مـــا أدرى أأحــلام نـائم ألمّت بنا، أم كـان فى الـركـب يـوشَـع

فإنه يشير إلى قصـة يوشع بن نون، الـذى دعا الله أن يوقف الشمس فـلا تغرب، حتى يفرغ من قتال الجبارين، فاستجاب الله له.

والمثال الثالث، هـو قول الحريرى: «وإنى والله لطالما تلقيت الشتاء بكـافاته، وأعددت له الأهب قبل موافاته»، فهو يشير «بالكافات» إلى قول ابن سُكَّرة.

جاء الشتاء وعندى من حوائجه سبعٌ إذا القَطْر عن حاجاتنا حبسا
كِنٌّ، وكيسٌ، وكانونٌ، وكأس طِلا بعد الكباب.... ناعم، وكسا

فهذه الأمثلة تشير إلى نصوص سابقة، شعرا أو نثرا، وتأتى الإشارة قصيرة، فى كلمة أو كلمتين، ولكنها تستحضر الجو السابق، وتلمح إلى التفاصيـل، وتوحى بدلالات تفوق ما يحتمله النص الأخير فى بنيته اللغوية.

إن قصة يوسف، أو قصة يوشع، أو أبيات ابن سكّرة، قد بلغت من الشيوع، مامكنها أن تصبح جزءا من العقل الجمعى (التراث)، وأن يحتـل النص الحالى إلى مسرح تتلاقى فيه أرواح السابقين.

والاستلهام فى هذه الأمثلة عن قصد. فالشاعر أو الناثر يشير صراحة إلى المصدر الأول، الذى أصبح جزءا مـن التراث، يلمح الشاعر فيفهم القارئ، ويلتقـى الجميع على أرضية مشتركة.

ولكن فى حالات أخـرى، لايشير الشاعر إلى المصدر، ويصبـح التشابه نوعـا من توارد الخواطر»، أو «مـن عموم الغـرض»، أو «الاستعارة من القـول والعادات» وغير ذلـك من

تعبيرات يوردها القزوينـى ، وتوحى فى جملتها بثقل التراث، وتتلاقـى مع تعبيرات معاصرة للغذامى عن «جماعيه اللغة»، أو « المخزون المعجمى»، أو «البعد التاريخى»، أو « الموروث الثقافى»، (انظر الفقرة رقم ٣٠).

ولايرى القزوينى فى مثل هذه الأمور سرقة، فهـى أمور شائعة وملك للجميع، ونتلاقى أو نتداخـل فيها النصوص. ومـن هنا نراه يرشـد إلى المنهج الصحيح فى مثـل هذه الحلات فيقول : « لاينبغى لأحد بتّ الحكم على شاعر مالم يعلم الحال، وإلا فالذى ينبغى أن يقال ، قال فلان كذا، وقد سبقه إليه فلان فقال كذا»، (ص ٤٢٦) .

-٣٥-

كانـت هذه الـوقفة عنـد علوم البـلاغة، لأبين أن الكثير مـن القضايـا التى تعـرض لها الغذامى ، يمكن أن يكون مدخلها البلاغة التقليدية .

فنظريـة الشاعريـة عند ياكـوبسون (ص ٦)، يمكن أن يكـون مدخلها بـاب الحقيقة والمجاز، وخاصة التفريق بين الدلالة الوصفية والدلالة العقلية .

ونظرية السيـاق عند بارت (ص ١٣)، يمكن أن يكون مـدخلها علم المعانـى ومراعاة مقتضى الحال .

ونظرية النصية التى تناثرت خلال كتاب الغذامى، نقلا عن البنائية والتشريحية، يمكن أن يكون مدخلها علوم البلاغة الثلاثة (انظر الفقرة ـ ٣٢) .

ونظريـة التناصيـة عند بـارت، يمكن الدخـول إليها عـن طريـق الاقتباس والتضمين والحل، أو حتى عن طريق السرقات الشعرية (انظر الفقرة / ٣٤) .

-٣٦-

ولكن لايعنى هذا أن ماجاء فى كتب البلاغة مسـاو تماما لكل ماجاء عند نقاد الحداثة، فليس علميا أن نساوى بين لحظتين تاريخيتين متباعدتين، وأن نتجاهل منجزات الحضارة، ونتائج العلوم، ومكتشفات المناهج الحذيثة .

وكل مانعنيه أن نقطة البداية تجعل النتائج مختلفة .

فالبدايـة من البلاغة العربية، تجعـل التطور امتدادا طبعيا، وتجعل الـوصول إلى النتائج

منطلقات من التراث، شأن كل أمم الأرض التى تملك تراثا، وحينئذ يمكن للباحث أن يصل إلى اكتشافاته من غير أن يتكئ على بارت أو غيره، وقد يسبق بارت لأن تراثه قد سبق تراث بارت فى كثير من القضايا السابقة.

أما البداية من بارت وياكوبسون وكولر، فإنها قد تجعل الباحث يغترب عن نفسه وعن بيئته.

فقد اغترب الغذامى عن نفسه، كما رأينا فى آرائه النظرية، وأصبح بيتا تسكنه أرواح البنائيين والتشريحيين، ويحتل غرفة رولان وسوسيير وكولر.

أما اغترابه عن بيئته، فهو يتمثل فى الصورة التى قدمها لشخصية حمزة شحاته كنموذج تطبيقى.

الخطيئة والتكفير
مسحة مسيحية

-٣٧-

لقد انطلق الغذامى من فكرة مسبقة يعكسها عنوان «الخطيئة والتكفير» ، وهى فكرة الخطيئة الأولى كما وردت فى الكتاب المقدس .

وقد أحيطت الخطيئة الأولى فى الكتاب المقدس ، بجو من الإحساس بالندم ، ومطاردة الذنب للإنسان مدة حياته ، وانعكس هذا على النظرة نحو الحياة الدنيا ، فهى عقاب على الخطيئة ، والتكفير يكون برفض هذه الحياة والاستخفاف بها ، إن الموت حينئذ يكون هو الخلاص من هذا السجن ، الذى استحقه الإنسان بسبب خطيئته الكبرى .

وهذه هى شخصية حمزة شحاتة كما عكسها الغذامى ، فهو صورة لمسيح جديد ، يحمل خطايا عصره ، ويكفر عنهم بالصلب والندم ورفض الحياة الدنيا ، يقول عنه الغذامى .

«ومادام شحاتة قد بلغ هذه المرحلة الحساسة فى وعيه بالنموذج ، وفى اقتناعه به ، فإنه أمام حتمية أكيدة هى : أن من أحس بالخطيئة وأدركها ، فلابد أن يسعى للخلاص . ومسعى شحاتة للخلاص جاء عن طريق التكفير. وقد برزت فكرة التكفير فى رسائله إلى ابنته شيرين . إذ يقول فى الرسالة رقم ٢٨ مايدل على حسه بالخطيئة ، وتطلعه للخلاص عن طريق التكفير. وفيها يفرق شحاتة بين أن يعيش المرء وبين أن يحيا . فالعيش للغافلين ، والحياة تكون لمن أراد أن يرتقى بنفسه فوق مستوى العيش البهيمى ، ولكن لذلك ضريبة فادحة دفعها شحاتة غالية ثمينة وكبيرة بمقدار حجم إحساسه بالخطيئة الآدمية . يقول شحاتة (إن أى تقدم أو استعلاء يتطلب منا ثمنا كبيرا يتحتم علينا أداؤه ، وهو ضريبة أن نحيا على أن نعيش . إن الذين يعيشون فقط ، وكالآخرين ، لايدفعون هذه الضريبة التى نشعر بقسوتها ، كلما انطفأت فى ظلمة حياتهم شمعة بها يتساقط عليها من دموع جراحهم الصامتة . كان سيزيف الأسطورة ، يحمل الصخرة جاهدا إلى القمة معذبا بتصبب عرقا ، فإذا كاد أن يصل ، انفلتت وعادت إلى السفح ، إنه شقاء كتب عليه . وكذلك من يحلمون بأن يحيوا حياة ترتفع عن مستوى العيش) ـ » (ص ١٦٥) .

وتتناثر هذه الصورة لشحاتة خلال صفحات الكتاب[1] ، والتى تقدم فى النهاية

---

(١) انظر الصفحات :١٦١و ١٦٥و١٦٨ و١٦٩ و١٧٥ و١٧٦ و١٧٨ و١٧٩ و٢٠٢ و٢١١ و٢٨٤ .

نموذجا لمسيح يحمل صليب عصره، وينوء بهذا الحمـل، ويسعى للخلاص منه، ولو عن طريق الانسحاب كلية من الحياة، أو مايسمونه بالتكفير بالمفهوم المسيحى.

وقد حرصت على إيراد هذا الاقتباس الطـويل ، والذى يحمل رأى الغذامى والاستشهاد عليـه من خـلال إحدى رسـائل شحاتـه، ليعرف القـارئ مصافحـة أن رسالـة شحاتـة، كاستشهاد، لاتستطيع أن تنهـض بكل كلام الغذامى الطويل والمنمـق، شأنه فى كثير من اقتباساته، فهو يدخل بفكرة مسبقة، يحاول أن يفرضها على أدب شحاته.

إن رسالة شحـاتة لاتعكس فلسفة الخطيئـة الأولى ، بل هى مجرد أسطر لـرجل معذب نفسيا، يحس بالإحباط من كل جانب، ويرى فى أسطورة سيزيف، انعكاسا لحياته. وهى صورة أقرب إلى العبثية، بمفهومها الغربى، والتى كانت شائعة فى مصر فترة وجود شحاته. وستزيد هذه الصورة إيضاحا ومن خلال المصافحة لشعره (الفقرة / ٣٨) .

ذلك هـو الجو الذى يحيـط بالخطيئـة الأولى فى التراث المسيحى ، وهـو جو يختلـف فى ملابساته عن التراث الإسلامى .

فـالخطيئة الأولى فى التراث الإسـلامى ليسـت ذنبا يطـارد الإنسان، ويجعلـه دائما يحس بالـذنب والعـذاب النفسى، ويثير لديـه نوازع القلق، كما نـرى فى نموذج الغـذامى (ص ١٤٩)، والأرض ليسـت انحـدارا وعقـابا، كما يصـور الغـذامـى أيضـا (ص ١٤٨). إن الخطيئة الأولى كـانت سببا فى عمارة الكـون، وإلى أن يصبح الإنسان خليفـة الله فى أرضه، والأرض هى مملكة الإنسان يعطيها معانيها ويمنحها الأسماء .

وثنائيـة الخطيئة والتكفير فى التراث المسيحى ، يقابلهـا ثنائية الخطيئة والتـوبة فى التراث الإسلامى. والأمـر ليس مجرد بديل لفظى، بل هـو يعكس موقفا حضاريا يختلـف اختلافا جذريا .

إن التوبـة بالمفهوم الإسلامـى تعنى التطهر، والخلاص مـن عقد الذنب والنـدم وتحمل خطايـا الآخرين. ويتغير مـوقف الإنسان بعدهـا تماما، فلم يعـد ينظر إلى الدنيـا كعقاب وانحدار، بـل أصبح ينظر إليها كتجـربة جديدة، يمارس فيهـا مواهبه الإنسانيـة، وأصبح أشد وعيا بحيل الشيطان. فقد استوعب الدرس من الخطيئة الأولى ، وأصبح إنسانا جديدا يضيف إلى حصيلته عنصر الوعى.

إن عنصر الخير هنا ينتصر على الشر، ولم يصبـح الإنسان فريسة لـلأحاسيس المعـوقة . وهذا العنصر قـد غاب عـن الملائكة، التى خشيـت أن يملأ الإنسـان الأرض فسادا، وأن يسفك الدماء ، فقال لها الله عز وجل: ﴿ إنى أعلم مالاتعلمون﴾ (١)

---

(١) سورة البقرة: ٣٠.

ولكن ، لايعني هذا أنني أفسر شحاتة من خلال موقف إسلامي ، بعد أن رفضت فلسفة الغذامي المغتربة ، فإن كلمتي « فلسفة» . و«موقف » كبيرتان على شحاتة ، فشعره لايعكس فلسفة ولاموقفا .

إن شعره يقدم لنا شخصية قلقة ، لم تستطع أن تحقق ذاتها ، ولم تناضل كثيرا من أجل هذا التحقق ، فوقعت فريسة الشكوى والمرارة .

ويمكن أن نتبين في شعره أربع مراحل ، تتعاون جميعها على تقديم صورة ، ولا أقول نموذجا ، تحدد معالم شخصيته ، وهي :

١ - المحور الأول يمثل تركيبة الشاعر الفنية ، والتي تدفعه إلى أن يمارس حياته ، كفنان ، دون قيود .

٢ - والمحور الثاني يقف في مقابلة المحور الأول ، وهو يتمثل في المجتمع الذي يقف ضد حريته كفنان ، ويضع قيودا كثيرة على انطلاقته .

٣ - والمحور الثالث يمثل النتيجة التي ينهزم فيها الفنان داخل شحاتة ، وينتصر المجتمع ، وتكون النتيجة هي الحرمان والشكوى .

٤ - أما المحور الرابع ، فهو يشير إلى السبب المتمثل في تركيبة الشاعر النفسية ، وهي تركيبة مسالمة ، لاتميل إلى المجابهة والتحدي ، وترضى من النعيمة بالإياب .

وإذا أردنا اختصارا لهذه المراحل من واقع قاموس الشاعر اللغوي ، فإننا نجده في أربع مفردات تتكرر كثيرا في شعره ، وتمثل مراحل في حياة الشاعر ، وترمز كل منها إلى المحاور الرئيسة في تركيبته .

فكلمة « الهوى» تتردد في أكثر من قصيدة ، بل وتأتي عناوين لقصائد مختلفة (أهواك - لم أهواك؟ - في دروب الهوى - لاتقولي أهواك - مغاني الهوى) . والكلمة تعني في قاموس الشاعر حياة الفن والانطلاق ، وحب الطبيعة والربيع .

يازمان الهوى ترامى بك الأنين   وضاقت على خطاك القيودُ

ما أرى للربيع بعدك معنىً   فالسَّنى فيه باهتٌ والورودُ

يازمان الهوى ، مضيت بدنيا   تي ، فما اجتاز بعدها العمرَ عيدُ

ويقابل هذه الكلمة مفردة أخرى هي « العقل» . (انظر: ص ١٥٦ - ١٥٨ - ١٦٢ - ١٦٥ - ١٨١ - ١٨٤) . وهو لايعني بالفعل ذلك المعنى اللغوي الذي يفيد الانضباط

والتروى، ولكنه يعنى به «القيد» ، الذى يضعه المجتمع أمام هواه واندفاعه كفنان .

بئس ماتبتغى العقول طلابا فوق أنقاض حسّنا والشعورِ

بقيود من الزواجر تعتا ض من اللب مهملا، بالقشورِ

قد أحلّت وحرّمت وغدا النا س لغاياتهم، بلا تقديرِ

والموازين قائمات على العهد بدعوى سلطانها المدحورِ

ما أرى العقل غير راكب لجّ باحث عن هداه فى وَيجور

وتأتى المفردة الثالثة « الظمأ» لتعبر عن الفجيعة التى أصيب بها الشعر فى بنيته الفنية، فقد تغلب القيد ومات الشاعر، وكانت مفردة الظمأ من أكثر المفردات دورانا فى قاموس الشاعر : (ص ٢٨ ـ ٢٩ ـ ٣٩ ـ ٤٠ ـ ٤٢ ـ ٤٤ ـ ٥٠ ـ ٥٤ ـ ٦٥ ـ ١٥٢ ـ ١٥٩ ـ ١٧٦)، ويعبر عنها بصدق وحرارة .

ظمآن يحرقنى شوقى ويعصف بى يأسى، ومورد نفسى حافل كَثِفُ

وتأتى المفردة الأخيرة « السكون» لتبين الحالة التى انتهى إليها الشاعر، فقد استسلم للضغوط ، وأخذ يردد فى قصائده كلمة السكون : (ص ٩٨ ـ ١٠٠ ـ ١٠٣ ـ ١٥٦ ـ ١٥٨ ـ ١٦٦) ، وكان يعنى بها حالته النفسية التى مالت إلى الإحباط واليأس .

وطرحت أعباء الشعورِ

بكل ماقد كان منكِ

وما يكونْ

وخَلَصَتُ من تلك السفاسف والقشورِ

ومن فجاءات الجنون

ونعمت بعدك بالسكونْ

فلا صراع ولادموعَ ولاظنونْ

وتتآزر هذه المفردات الأربع (الهوى ـ العقل ـ الظمأ ـ السكون) ، فتقدم لنا صورة للشاعر مستخلصة من شعره، دون إسقاطات فلسفية أولا هوتية لم ترد فى قاموسه. فمفردات، مثل : التفاحة وحواء والإغراء والشيطان، لم ترد بصورة لافتة فى شعره ، يمكن أن يقف عندها القارئ، ويستخلص منها نموذجا أدبيا يمتد إلى كل شعره .

وصورة الماضى عنده لم تأت تغنيا بالفردوس المفقود . فهو دائما عنده الماضى الذى يجر ذكرى قريبة تتعلق بواقعه ، وهو شديد الرفض لهذا الماضى ، ولايتمنى أن يعود إليه . وهى صورة تثير ذكريات أليمة تتردد فى قاموس الشاعر : (ص ٢٢ ـ ٥٠ ـ ٥١ ـ ٨٠ ـ ٨٨ ـ ٩٢ ـ ٩٥ ـ ١٢٠ ـ ٢١١ ـ ٢٢١) . يصور الشاعر هذا الماضى فى قصيدته « الماضى الحائل » ، فيقول :

سرت فى ذات مساء شاحب ... قاتم الأرجاء ، مطموس الظِّلال
مُطرقا أصغى لماضى ذكريات ... بعثتها ومضاتٌ من خيالى
لحظة فى سرعة الضوء أطافت ... بى على كُره ، وفى طول الأبدْ
خلت أن الكون أمسى بعدها ... راجفا كالبحر ، يرمى بالزبد
وإذا الماضى وما أودعتهُ ... من ملاهى وَمَرازى عُمُرى
ضارب فى صحراء الكون ماض ... أتراه كان يقفو أثَرَى
وتلاقينا على غير اشتياقْ ... وكذا عشنا على غير وفاقْ
وتعارفنا وقد كنا تناكرْ ... نا قديما ، وتواعدنا الفراقْ
ومشى نحوى مكدود الخطى ... ظاهر اللوعة مرهوب الأسى
عاتيا ترسل عيناه الكلامْ ... يتلظى ، وهما لم تَنْبِسا

فالشاعر ، من خلال هذه المفردات مرتبط ، بواقعه ، يريد أن يحقق ذاته فلا يستطيع ، فيشكو ويتألم ، ثم يستسلم ويسكن :

وتتناثر هذه الحالة فى كل قصائده . ويمكن أن يختزئ الفقرتين الأخيرتين من قصيدته « لم أهواك »؟ كتجسيد لهذه الحالة .

أنصيبى من الهوى هذه الوقْدةُ ... يَشْقى بها فؤادى اللهيفْ
أفأنت الجانى علىّ وإلاّ ... هو فكرى الظامئ وحسّ العطوفْ
وهما فيك ثائران عفيفا ... ن كما ثار فى القيود الرسيفْ
طلبا فيك ما أضلاّة منُ حلْم ... ، ومافيك ظاهر مكشوفْ
وكذا يطلب الخيالُ الأمانىْ ... وهوْ عن واقع الحياة عزوفُ
والهوى ، كالحياة ، يد يبلغ الجا ... رمُ منها ، مالاينال العفيفُ
رب نفس نالت مناها على الغَيش ... وأخرى نصيبها التسويفُ
وهى دنيا الشذوذ يرتفع الجا ... هل فيها ، ويُستذل الحصيفْ

الغذامى

بعيد عن الأسرار الجمالية

- ٣٩ -

مازلنا حتى الآن نـدور حول شخصية شحاتة ، ونعترف بأن هذا المنهـج قد يبعد القارئ عن الأسرار الجمالية ، وعذرنـا هنا ، أن الغذامى قد استهلك طاقتـه فى استخلاص نموذجه من أدب شحاتة ، وتشعب به الحديث إلى أفكـار فلسفية ولاهوتية ونفسية وشخصية . وغير ذلك مما يبتعد عن البنية الفنية للنص .

وقد حاول أن يتدارك الأمـر فى الفصول الثلاثة الأخيرة التى خصصها للجـوانب الفنية ، فيما يقل عـن تسعين صفحة من حجم الكتـاب الذى يصل إلى ٣٤٨ صفحة ، مـن القطع الكبير.

وأقـول عـن قصد « فيما يقـل » لأن هـذه الصفحـات ، وإن كـانت تمتـد مـن ٢٥٩ إلى ٣٤٣ ، إلا أنها لم تخلص تماما للجوانب الفنية ؛ فقد استطرد فى شرح نظرية استبدت بمعظم هذه الصفحات ، ولم يتبق منها سوى خمسين صفحة للناحية الجمالية وعلى أحسن تقدير كما ذكرنا فى الفقرة / ٢٦ .

وهنا تبدو المفارقة . فالغذامى منذ الصفحـات الأولى تبنى منهجا يزعـم أنه يتجاهل كل الإسقاطات التى هى خارج البنية الشكلية للنـص الأدبى ، ولكن كتابه يسرف فى التجريد النظرى من ناحية ، وفى اقتراح نمـوذج فلسفى لاهوتىّ من ناحية ثانيـة ، ثـم يأتى الحديث عن الجماليات فى صفحات أخيرة منقطعة الصلة عن نموذجه فى الخطيئة والتكفير من ناحية ثالثة .

على أى حال ، اختار الغـذامى من بين شعر شحـاتة كله ، ثلاث قصـائد ليست هى أجمل مافى شعره :

١ ـ قصيدة « ياقلب مت ظمأ » ، وقد عقد لها فصلا تحت عنوان « انفجار الصمت » .

٢ ـ قصيدة « جدة » ، وقد عقد لها فصلا تحت عنوان « الموال الحجازى » .

٣ ـ قصيدة « غادة بـولاق » وقد عقد لها فصلا تحت عنوان « الصوت المبحـوح : تغريب المألوف » .

وقد وقعت هذه النصوص الثلاثة تحت مايمكن أن نسميه باستبداد المنهج(١)، الذى اتخذ مظهرين عند الغذامى يتمحوران حول فكرتيه الرئيستين عن النصية والتناصية، كما سبق أن ذكرنا. (الفقرة / ٢٩).

فالغذامى منذ الصفحات الأولى فى كتابه، يعلن أنه سيتبنى منهجا، مرة يسميه بالتشريحية، وأخرى بالتفكيكية، وهو فى كل مرة يعنى تفكيك النص إلى وحيدات صغيرة، قد تكون هى الحرف، ثم يركز على هذه الوحيدات.

إن هذا المنهج التفكيكى قد استبد بالغذامى، وأوقعه فى أحكام جزئية، حجبت عنه الرؤية الكلية، فهو فى قصيدة « ياقلب مت ظمأ»، يقف وقفة طويلة عند العنوان، ويقف وقفة أطول عند الحرف الأول من العنوان.

فهو يتحدث طويلا عن العنوان. وتلمس فى حديثه شيئا من التأثر بالمذاهب الحديثة فى النقد التشكيلى، والتى تلغى فكرة العنوان. فاللوحة أو التمثال لايحتاجان إلى عنوان، لأنه وجود وتكوين وحضور. إن وضع العنوان فى مثل هذه الحالة هو عملية عقلية، تلخص« الحضور فى بطاقة صغيرة قد تحمل كلمة أو كلمتين، ولكنها لاتستطيع أن تحيط بالتكوين كوجود.

---

(١) لن نقف طويلا عند الأخطاء النحوية والصرفية فى كتاب الغذامى، لأننى هنا معنى بمناقشة المنهج، ولكن لابد من الإشارة إلى خطأين صرفيين لايمكن إرجاعهما إلى المطبعة، وهما:

(أ) ص ٢٨١ يذكر أن « خيالات» جمع تكسير، ثم يرتب على هذا الخطأ أحكاما فنية، وهى أن هذه الصيغة قد استدعت جموع تكسير أخرى تؤدى إلى تناغم الإيقاع والحركة، مع أن صيغة « خيالات» ملحقة بجمع المؤنث السالم.

(ب) ص ٣٠٨ يورد الأبيات الثلاثة الأولى من قصيدة « جدة» ويرى أنها تحتوى على فعلين، وعلى اسم فاعل واحد فقط، ومن هنا فإن الحركة، كما يرى، فى هذه الأبيات تأتى من منطلقات أخرى غير الجملة الفعلية. ومن هذه المنطلقات مايسميه « انطلاق المدى» وهو يعنى بذلك الفصل بين المبتدأ والخبر بالظرف فى الجملة «النهر بين شاطئيك غريق». وهو ينسى أن صيغ المبالغة التى تعمر بها الأبيات هى من أسماء الفاعلين مع المبالغة فى الحدث، فالغريق زيادة فى الغرق، والصاديات زيادة فى الصدى، وينسى أيضا أن أسماء الفاعلين وأسماء المفعولين وصيغ المبالغة، وهى صيغ تعمر الأبيات الثلاثة، تشترك مع الفعل فى إفادة الحدث دون الزمن كما يقول الصرفيون، فالأبيات مليئة بالحدث من خلال هذه الصيغ. أما مايتكلفه عن فكرة « انطلاق المدى مثلا، فإن شحاته لم يفصل بين المبتدأ والخبر إلا بسبب « التصريع»، وهى فكرة فنية موسيقية يهواها شحاتة فى كثير من قصائده.

وهـذا الحديـث الطويـل على الـرغـم مـن أهميتـه وعصريته، قـد يصـدق على الفنـون التشكيلية، التـى تساعدهـا مادتها الخام، مثـل الحجر أو القماش، على الحضور والـوجود الماثل أمام العين، ولكنه لن يصدق على فن مثـل الشعر، والذى تمثل الكلمة مادته الخام، وهـى مادة لها تـاريخ طـويل مـع المعنـى، فضلا عـن أنها رمزيـة بحكم انتمائهـا إلى أسرة «اللغة».

وقـد يتطبق هـذا الحديث على شـاعـر آخر غير شحـاتـة، ولكنه لـن ينطبق أبـدا على شحاتة، الـذى لم يكن يهتم بوضـع عناوين لقصائده كما جـاء فى مقدمة ديوانـه، ومن هنا حـدث اضطراب فى عنـاوين قصـائده. إن قصيدة « يـاقلـب مت ظمـأ»، والتى اعتمـد الغذامى عليها، وراح يريق حديثا فلسفيا تجريـديا حول هذا العنوان، إن هذه القصيدة قد وردت فى ديوانه تحت عنوان آخر هو « المعاناة» (ص ٣٤) . وإن قصيدته « غادة بولاق» قد وردت تحت عناوين مختلفة، كما ذكر الغذامـى فى أحد هوامشه (ص ٣٢٩)؛ فمرة جاءت تحت عنوان « ياجارة النهر»، وثانية تحت عنوان « رسالة الحسن»، وثالثة تحت عنوان « قصة الحياة»، ورابعة تحت عنوان « نفيسة»، وكل هـذا يدل على أن الحديث عن دلالة العنوان فى شعر شحـاتة، واستنتاج بعـض الأحكام الفنية من عنـوان قصائده، حديـث لايعتمد على أساس علمى.

ثم يقف الغذامـى بعد ذلك وقفة أطول عند الحرف الأول مـن العنوان، ويروح يتحدث بجلبة عما يسميه « اليـاء الشحاتية»[1]، حديثا يغلـب عليه « استبداد المنهج» الـذى يقود صاحبه إلى أخطاء معـرفية ونحوية. فهو يحاول أن يفسر حالات النـداء فى القصيدة، وهو يقدم على هذا التفسير محملا بفكـرته السابقة عن النموذج. وهـو يفترض أن النداء فى هذه القصيدة يتطور مـن حالة الآخر إلى حـالة الذات، وهو يعتمـد فى هذا الافتراض على خطأ نحوى. مفاده أن حالة النداء الأولى فى القصيدة جاءت نكرة : « ياقلب غرك من ماضيك رونقة». وأن حالة النداء الأخيرة قد وردت معرفة « والماء، لاماء، ياقلبى فمت ظمأ»، وإن هذا يدل على حالة تحول عند الشاعـر من التركيز على الآخر، أى آخر، إلى التركيز على نفسه من خـلال تعريف الفكرة بضمير المتكلـم، « ومن هنا، جـاءت أدواته الفنية متحولـة من ارتباطها السـابق مع الآخر. إلى ارتبـاط جديد مع الـذات الداخلية، فتلاحمت مـع القلب الذى جاء منكـرا فى الأول، أى مجرد قلب، ولكنه يتعمق أخيرا فيصبح : قلبـى، ياقلبى. وبذلـك يتم الانكماش المطلق داخـل الذات، وينحسر مدى الشـاعر من الحيـاة، ليغلق

---

(١) يمكن أن يصنف هذا الحديث تحت مايسميه البلاغيـون باستخدام صيغة النداء فى غير معناها الأصلى، وذلك فى حالات كثيرة، ذكر الدكتور بدوى طبانة بعضها فى كتابه « معجم البلاغة العربية : ٢/ ٨٧١».

أبواب نفسه، ليدعوها للموت: لاماء ياقلبى فمت ظمأ. وتتحقق بذلك فلسفة الشاعر فى أنه (لاشىء يعطى تفسيرا تاما للحياة غير الموت). وذلك بعد أن وجد النموذج نفسه فى متاهة ضائعة، ورأى مكانه فى هذه المتاهة يأخذ بالضيق، مثلما أخذ ظله، بالانحسار» ص ٢٦٨).

إن هذا التحليل تعسفى، فهو يعتمد، من ناحية، على تتبع « الياء» فى سياق قصائد أخرى عند شحاتة، دون أن نعرف تاريخ كل قصيدة، حتى يمكن أن نتحدث عن تطور تاريخى من مرحلة إلى مرحلة. ومن ناحية ثانية فإن حالة النداء الأولى « ياقلب» ، وهى مما يسميه النحاة بالفكرة المقصودة، وهى لاتعنى قلبا نكرة « مجرد قلب»، بل تعنى قلبا معينا هو قلبه، وهى لاتفيد العمومية بل تفيد الخصوصية، مثلها مثل المعرفة، وهى من أجل ذلك تأخذ فى الإعراب أحكام العلم، فتبنى على الضم فى حالة الإفراد، ولاتختلف دلالتها فى هذه الحالة عن دلالة المعرفة، ولايبرر هذا الحديث الطويل عن التحول من مرحلة الآخر إلى مرحلة الانكماش، لولا استبداد المنهج الذى يلوى عنق النحو، ويودى بالأكاديمية، التى لاتحكم بفكرة التطور من مرحلة إلى مرحلة، إلا بعد تتبع تاريخى شاق ومحدد، لايتستر وراء عبارات كبيرة ومطاطة.

وكانت النتيجة لمثل هذا التفكيك الجزئى، أن تشرذمت القصيدة، وتحولت إلى شظايا صغيرة تحجب الرؤية الكلية.

وقد عاب النقاد المعاصرون على البلاغة التقليدية، وقوعها فى أسر أحكام جزئية واهتمامها بالتشبيه أو الاستعارة أو المحسن البديعى، دون أن يصحب ذلك نظرة كلية حول القصيدة. وقد عادت هذه الأحكام الجزئية تطل علينا من جديد تحت عناوين براقة هى «التفكيكية» أو «التحليلية»، وفى ثوب عصرى نعتبره فتحا فى ميدان النقد الأدبى.

حقا، تحدث الغذامى عما سماه « مدار الأثر» فى هذه القصيدة، وهو حديث يمكن أن يؤسس من خلاله النظرة الكلية بعد حديثه الطويل عن النظرة التفكيكية، ولكن حديثه عن « مدار الأثر» جاء عاما ومجردا، ولم تنل القصيدة منه سوى بضعة أسطر لاتفيد شيئا، وهى بالتمام والكمال: « ولو عدنا الآن إلى القصيدة بهذه الروح، وقرأناها لا كمعنى، وإنما كنص ذى إشارات تتحرك حسب سياق ينتظمها بمحاور مطلقة، وتركنا ذلك ينساب فى نفوسنا ساحين لإيقاع القصيدة ولحركيتها لتطلق نفوسنا، فإذا ما انطلقت النفوس، وسبحت فى فضاء ربها، فإن كل مايقدح فى مخيلتها ومايتصور لها يصبح شعرا ممتدا للتجربة ذاتها غير خارجى عنها، وليس بطارئ عليها، وإنما هو من صلبها، وهذا هو الأثر، وهذه هى القصيدة». (ص٢٨٩).

استبداد المنهج والانحيازية

- ٤١ -

أما التناصية ، فقد أوقعته فى خطأ منهجى آخر ، وهو الانحياز لموضوعه .

فالتناصية جاءت فى مصادرها الغربية التى نقل عنها الغذامى ، كاستدراك على النصية التى يمكن أن تحصر القارئ فى بُعد آنى . ومن هنا ، أضافت التناصية بعدا تاريخيا ، قد سميناه من قبل بالتراث (الفقرة / ٢٩) . فالفكرة ، إذن ، فى مصادرها تعنى هضم التراث وتحويله إلى لبنة داخل النص ، بحيث لايمكن تمييزه عن النص .

والتناصية ، بهذا المفهوم ، تعنى أن الأخير لايكرر الأول ، وإلا أصبح نسخة مشابهة تقل فى الأهمية عن النسخة الأولى ؛ فالنسخة الأولى أصلية ومبتكرة ، قد أضافت فى حينها إلى عصرها ، أما الأخيرة ، فهى مقلدة ، صورة ممسوخة لشخص قد وقع تحت سيطرة الأجداد ، تماما مثل سكان مدينة الموتى فى مسرحية سارتر « الذباب » ، والذين تحولوا إلى جزء من الأموات ، لايستطيعون ، ولايودون ، الفكاك من سيطرة أرواح الأجداد ، لولا شجاعة «أورست» ، التى أنقدتهم من تلك اللعنة القاتلة . أو قل ، بعبارة أخرى ، هى مثل جثة الأب فى قصة يوسف إدريس ، حملها فى سيارته ، واحتفظ بها بدلا من أن يدفنها ، حتى تعفنت وفاحت رائحتها ، ولم يملك شجاعة أورست فيتخلص منها كتكوين مادى ، ليحتفظ بروحها كملهمة له فى مسيرته الجديدة .

فهناك ، إذن فرق كبير بين الاستئناس بأرواح السابقين ، وبين تقمص أرواح السابقين .

التناصية بالمعنى الأول ، بعد تاريخى يضيف إلى البعد الآنى ، ولكنها بالمعنى الآخر نوع من السرقات الأدبية بمعناها المذموم .

وقد وقع الغذامى تحت سيطرة « التناصيه» بمعناها الأول ، وهو يحلل قصيدة شحاتة «غادة بولاق» . كامتداد لقصيدة الشريف الرضى « ياظبية البان ترعى فى خمائله» ، فأحال كل تقليد وكل تكرار فى قصيدة شحاتة إل نوع من التناصية ، تستلهم النصوص السابقة ، وتستأنس بأرواح الأجداد . إنه يقبل على نص شحاته وهو محمل بمنهج سابق ، فاستبد به المنهج ، واستبد هو بالنص وأحاله إلى مجموعة اجتهادات وإسقاطات بعيدة عن بنيته الفنية .

إن قصيدة « غادة بولاق» فى حد ذاتها وبعيدا عن استبداد المنهج هى قصيدة طولية

مترهلة ، تتكرر فيها المعـانى ، وتكثر الأستطرادات ، وتزدحم بـالأدوات المشحونة التى تثير الانفعال كأدوات الاستفهـامات ، وبكثرة النداءات المباشرة التـى تحول بين القارئ ونفسه ، وتأتى نهايتها فتحدُّ من زخم التجربة . إن البيت الأخير يأتى فيطيح بالبناء الفنى ، ويكسر حدة الانفعال ، فكل ما مربه من معاناة هو مجرد صدفة كان يمكن أن يتوقاها .

ما كنت ياقدرى العاتى سوى امرأة ممن مـررن بقـلبى لو تـوقاك

والقصيدة بهذه المباشرة والتكـرارية والتقليد ، تقل بكثير عن قصيدة الشريـف الرضى ، التى تأتى محبـوكة ، قليلة الأبيات ، توحى أكثـر مما تنص . وعباراتها مريشة تـرتفع بالمرء إلى فوق ، بعيدة عن الانفعـال المباشر أو الحياة اليومية . ومفرداتها محملـة بعبق الطبيعة ، تخرج عن قـاموسهـا عبر إشارات فنية ، تحيـل التجربـة إلى لحظة تصـوف فى محراب الفن والجمال والطبيعة .

ولكن كل هـذا يغيب عن الغذامى ، لأنـه أقبل على النص وهو محمل بمنهـج سابق ، أوقعه فى انحياز مقيت جعله يرى فى شعْر شحاتـة كل ابتكار؛ فإذا أكثر من النداءات التى تصل إلى نحو ستـة وعشرين نداء ، فإن هذا يعـد تمددا تناصيا لجملة النداء الـواحدة عند الشريف الرضـى ، ويدل على الانفتاح والانشراح على حد قـوله . وإذا ماكرر شحـاتة ستا وعشرين قـافية مـن بين تسع وتسعين ، فـإن هذا يـدل على التناصيـة التى تمتـد إلى جذور تاريخية .

وتكون النتيجة أن يبرر الغـذامى كل شيء عند شحـاتة حتى لو كـان لايحتمل التبرير . فالتصريع عنـده مبرر ، وتأخير النداء مبرر ، والسرقة من الشعراء الآخـرين مبررة ، والتكرار والمباشرة وكثـرة النداءات والاستفهـامات مباشرة مبررة ، وتمثـل قصيدتـه فتحا جـديدا بين الشعراء ، حتـى لو كـانوا فى منـزلة المتنبـى وامرئ القيـس والشريف الـرضى وابـن زيدون وشوقى ، « وبذا يقف نص شحاته كفاتحة لمداخـلات متعددة ، تأتى من مداخل متباينة ، لتتلاقى مع نصوص كـانت بعيدة عنها ، فألف بينها جميعا نـص واحد ، هو قصيدة « غادة بولاق» التى صارت تمدد القصيدة « ياظبية البان» ، وواسطة لمداخلات مع نصوص أخرى سواهـا ، وهذه إضافة للقصيـدة الأولى وإحياء لها ، وإعادة لإنشـائها من جديـد فى ذهن المتلقى ، وهـذا هو (إعادة الرؤيـة) ، أى إبداع النص من بين آلاف النصـوص ، وتشكيلها برؤية جديدة تتيح مجالا لنصوص أخرى جديـدة ، كى تنبثق من قلب هذا النص ، ليبقى الأدب دائما حيا نابضا بالحياة والتجدد ، ولايركن إلى سبات يميته ويجمده» . (ص ٣٤٣) .

ومن هنا وقـع الغذامى فى اغتراب أخر . فـإذا قلنا من قبل فى الفقـرة / ٣٦ إنه قد اغترب عن بيئتـه ونفسه ، فإننا نضيـف الآن « وعن ذوقه أيضـا» ، فهو لم يصافح القصيـدة مباشرة

حتى تـأنس إليـه وتبوح لـه ـ بأسرارهـا بل حـالت بينه وبينهـا مناهـج مستبدة مـن أقوال الآخرين .

وهذا الاغتراب أشد أنواع الاغتراب ، لأنه يمس وجدان الإنسان .

ـ ٤٢ ـ

إن خير منهج فى النقد هو ألا يكون لك منهج .

وهذا لايعنى أن الأمر فوضى «سداح مداح» .

ولكن يعنى أن النقد الأدبى هو إبداع ، ولن يكون هناك إبـداع إلا اذا تخلص المبدع من ثقل الآخرين ، وأصغى لنداءاته الخاصة .

ولن يكون هنـاك نقد أيضا ، إلا إذا تخلص الناقـد من استبداد المناهج ، والتقـى بالنص مباشرة ، يستكشف دلالاته ، ويصغى إلى إشاراته ، ويتوحد بحركته الفنية .

ثم تأتـى بعد ذلك الخطوة الثانية ، وهـى الوعى بهذه الحركة ، ومتابعة سيرهـا ، وتقويم ذلك السير ، ثم وضع كل ذلك فى لغة نقدية علمية .

فالنقد كما أنه إبداع ، فهو أيضا وعى .

وهنا المعادلة الصعبة بين الوعى والإبـداع . ولن تحل هذه المعادلة إلا إذا تحول الوعى إلى جزء من العملية الفنية . بمعنى أنه لايظـل وعيا متيقظا ، يردد آراء الآخرين ، ويحفظ الكثير من الاقتبـاسات ، ويسرف فى وضـع الجداول والأشكال ، بـل يطرح كـل ذلك ، لتبقـى فى النهاية الترسبات الأخيرة ، التى تضاف إلى تركيبة الناقد ، وتوجه موهبته الفنية . فالناقد ، كما قال أحـد النقاد ، هو كالليـث يتكون من عدة خـراف مهضومة . ولو ظلـت هذه الخراف داخل النـاقد دون هضم ، فـإنها ستعوق عملية التمثيل ، وتحول النـاقد إلى مجموعـة خراف تصيح : «ماء ، ماء» . أما إذا تحولت إلى ذرات داخل الليث فانها تكسبه حيوية وبقاء .

ومن هنا فإن العبارة السابقة « إن خير منهـج فى النقد هو ألا يكون لك منهج» ، يمكن أن نضيف إليها على ضوء ماسبق : « بشرط أن تستوعب كل المناهج ثم تسقطها من عقلك المتيقظ» .

ومن هنا ، فـالناقد لايخاصم المنهـج الاجتماعى ، أو منهج التحليل النفسـى ، أو منهج البنيوية ، بل يستوعب كل هذه المناهج ، ثم يطرحها من ذاكرته الواعية ، ثم يقبل بعد ذلك على النص متخففا من كـل شىء ماعدا موهبته ووعيه المغموس فى الموهبـة ، فيعايش البنية الفنية ، ويتفهـم إشاراتها الاجتماعية والنفسية والمعرفية .

ولايعنى هذا أيضا أن الناقد مشغول باصطياد الإشارات الاجتماعية والنفسية والمعرفية ، وإلا وقع تحت استبداد من نوع جديد ، بعد أن رفضنا الاستبدادات كافة فى مجال الفن ، حتى لو تسترت تحت رداء المناهج العلمية الحديثة .

إن الإشارات الاجتماعية أو النفسية أو المعرفية ، لايركز عليها الناقد كمعلومة منفصلة ، ولكن ينظر إليها كشىء داخل النص ، بعد أن تخلصت من دلالاتها الوضعية ، لتكون لها دلالة جديدة فى سياق النص .

وربما كانت كلمة « تخلصت » غير دقيقة ، وأفضل منها كلمة « جمّدت » الدلالات الأولى بصفة موقوتة ، تسمح لدلالات جديدة تأسس عليها ، وتنبثق من خلالها . والدلالات الجديدة لاتتعارض مع الدلالات الأولى ولاتنفيها ولاتفترض صراعا معها ، بل هى تقيم عليها بناء فنيا ، يستخدمها وينطلق منها ، فهى مادته الخام كالحجر للنحات والقماشة للرسام .

إن الدلالات اللغوية ، سواء كانت اجتماعية أو نفسية ، لايمكن التخلص منها تماما ، مادمنا فى عالم اللغة الذى يجعل من المفردات رموزا ، وكل مايمكن هو وضع هذه الدلالات داخل سياق فنى ، يثير المتعة ، ويكسب المعرفة ثوبا جميلا .

وقد لايفهم البعض من تشبيه الثوب الجميل ، أننا إزاء شىء خارجى يطرح على المعرفة ، لأننى أعنى بالثوب الجميل هنا البنية الفنية ، التى تمتص الدلالات المعرفية فتحيلها إلى سياق جديد . وهنا نلتقى فى طريقنا مع البنائيين الذين يركزون على العمل الأدبى كنسيج أو صيغ أو تصوير ، ولكن دون أن نقع فى استبداد منهج على حساب منهج آخر ، فما دمنا قد رفضنا عبودية المناهج ، فإن هذا سوف يؤدى إلى أن تكون كل المناهج فى خدمتنا .

وبهذا المنهج الذى يعنى ألا يكون لك منهج ، يمكن أن تقدم قراءة ثانية فى أشعار شحاته ، بعد تلك القراءة الأولى التى قدمها الغذامى من خلال المنهج البنائى التشريحى ، وانتهى فيها إلى انحياز تام نحو موضوعه .

حمـزة شحـاتة
ورمـز الليـل

ـ ٤٣ ـ

البداية سوف تكون من شعر شحاتة، وسوف يحاول الناقد أن يقيم علاقة حميمة مع هذا الشعر، دون أن يثقل نفسه بمنهج مسبق، يحول بينـه وبين لغة الشعر. فقط، سوف يعتمد على موهبتـه، وسوف يعيـد خلق هذا الشعـر داخله، ويضيـف إلى وعيه المكتسـب الذى يرصـد عملية الخلق الجديـدة لحظة بلحظة، ثـم فى النهاية يسجـل ملاحظاتـه فيما إذا كان الشاعر قد استعجـل عملية الخلق، وألقى بجنينه غير مكتمل الملامـح، أو ربما كان الأمر على العكس.

الشاعر حمزة شحـاتة مغرم برمـز الليل، وقد اتخذه لقبا لـه فى صراعه مع الشاعـر محمد حسن عـواد(ص ٢٤٧). وقد جاءت بعض قصـائده تحمل كلمة الليل فى عنـوانها مثل: ياليل (ص ٤٧)، أقبل الليل (ص ٦٥)، الليلة والشاعر (ص ٢٨٣).

ورمـز الليل عنـد شحاتـة مسطـح، لايعكس فلسفـة ولامـوقفا. فليلُـه أقرب إلى ليـل المراهقين، الذين يبكون ويصرخـون، وقد يسجلون عذاباتهم على هيئة رسـالة، أو موضوع إنشاء، أو حتى قصيدة شعـر مليئة بأدوات النداء والاستغاثة والنـدبة والتعجب والتحسر، وبمفردات عن الهوى والقيد والظمأ والحرمان، وبنبذة شكوى أو استيعاب أو استعطاف.

وربما كانت رباعيات شحاتة «ياليل» هى صـورة لهذا الرمز المسطح. فالشاعر هنا ناقم يـرسل زفـراتـه مشحونـة بأدوات النـداء والاستصراخ، وبمفـردات عن الشكـوى والأنين والعذاب، وتنتهـى كل رباعيـة بشطرتين، تلخصـان المغزى، وتهيبان بـالشباب، وتحولان المعانى إلى معان خطابية لاتنتمى إلى الشعر. وذلك، مثل:

والبدر ليس كعهده
واها لماضى عهده
يَرْوَى به زهر الشباب
وقد ذوى زهر الشباب
يتكالبون على الحياةْ

وموتهم عين الحياةْ
أو تلك ثائرة الشبابْ
أف لثائرة الشبابْ

وهنا يمكن أن أستعين بالمنهج الاجتماعى أو النفسى كتفسير لهذه القصيدة. ولكن التفسير هنا قد أتى متأخرا، بعد أن سجل الناقد ملاحظاته، ولم يأت قبل القراءة المباشرة، فيحول القصيدة إلى إسقاطات قبلية.

ذكرنا من قبل فى الفقرة — ٣٨ أن شخصية شحاتة تخلو من الموقف الفلسفى والرؤية المتسقة، وذكرنا، أيضا، أنه انتهى إلى السكون إزاء الضغوط الخارجية، ولم يكن يملك من البنيان النفسى مايدفعه إلى المقاومة حتى النهاية.

وقد انعكست هذه الشخصية على رمز الليل، فجاء يخلو من الموقف الفلسفى ويصول فى كل ميدان. ففى قصيدته « الليل والشاعر»، يتحدث عن الليل عند الشاعر والفيلسوف والعاشق والمعذب، وكأن المطلوب منه أن يحصى كل الطوائف، وأن يسرد «فوائد الليل». فافتقدت القصيدة الرؤية الكلية، التي تنعكس على مفرداتها وصورها، ويحيلها إلى كلٍّ متسق.

حمزة شحاتة

يحوم ولايرد

ـ ٤٤ ـ

ولم يقف الأمر عند رمز الليل ، بل تجاوزه إلى معظم قصائد شحاته ، ولا أستثنى منها تلك القصائد الثلاث ، التى حللها الغذامى فى فصوله الأخيرة ، وقلت عنها فى الفقرة / ٣٩ إنها لاتمثل خير شعره .

يبدأ شحاتة ، عادة ، معظم قصائده بداية موفقه ، خلال بيت غالبا مايكون مصرعا حسن التقسيم ، يثير إيقاعا موسيقيا لافتا . وقد تمتد هذه البداية خلال بيتين أو ثلاثة لاتزيد ، إذ سرعان مايخبو نفس الشاعر ، وتقل حيويته ، ويصاب بالفتور والتلكؤ ، والدخول فى منحنيات تحيل القصيدة إلى مجتمعات شتى ، إن صح هذا التعبير .

إن البداية الموفقة تعكس موهبة الشاعر ، ولكن شحاتة لم يدخل فى صراع مع أدواته ، يتكافأ مع موهبته المتدفقة . كما أنه لم يدخل فى صراع مع مجتمعه . ومن هنا ، لم يحتمل معاناة القصيدة طويلا ، وآثر أن يقذفها بسرعة ، فبدت عليها علائم عدم النضج ، أو ما يسمونه فى علم الأجنة بالبَتْر الخُلْقى ، الذى يتخذ مظاهر عديدة فى شعر شحاتة ، يمكن أن نرصد بعضها فيما يلى .

(أ) تترهل القصيدة عنده ، وتصبح كالطفل الرخو الذى لما تتكامل عظامه بعد ، فتكثر فيها المعانى ، وتترادف الفقرات دون رابط سوى الرابط العام الذى يعبر عنه العنوان .

فقصيدته « لاتقولى أهواك » (ص ٤٩) تدور حول معنى واحد ، وهو لحظة وداع لا يأسى عليها الشاعر . ولكن المؤلف يدور حول هذا المعنى فى نحو تسعة وسبعين بيتا ، تستطيل فيها القصيدة وتتفرع ، يكرر عبارة « لاتقولى أهواك » نحوا من تسع مرات ، وعقب كل مرة يذكر من المعانى مايمكن أن يتقدم أو يتأخر ، دون أن تفقد القصيدة هويتها ، لأنها أساسا تفتقد الرؤية المحورية .

(ب) لم يدخل الشاعر فى صراع مع عبارته ، فينقيها ويبلورها ويجعلها محددة ، ومن هنا ، وقعت مفرداته وجمله فى حالة غير شعرية ، قد تكون سردية جافة ، أو متكلفة قلقة أو مباشرة ، أو وعظية ، أو نمطية ، ولكنها على أى حال توحى بأن الشاعر لم يقلق من أجل

أدواته، وأنه أحيانا قد وضعها مـن باب « سد الخانة» لإتمام وزن أوقافية. ويشير إلى بعض الأمثلة المقتطعة من قصائده المتناثرة خلال الديوان:

فاعرفى ياحبيبة الأمس أن الحب نجوى ونشوة وشعورُ
وحنين إلى السكينة يستلهم ألحانَها الحجى والضميرُ (ص ٤٩).

* * *

والمروءات تقتضى بمساعى الجود صيتا - على الرياء - ونفعا
والعبادات ترتدى مظهر الخير على أفظع المناكر دِرعا (ص ٥١).

* * *

مأتم للحياة لم يجنه المو   تُ، ولكن جنته أم لعوبُ
ثم ماذا؟ أأنت صادقة الدمْع وماضيك بالدموع يصوبُ (ص٩٦).

* * *

وأفقت من حُلُمى الجميل
على الحقيقة.
وهىْ كابوسٌ ثقيلْ (ص ٩٩).

* * *

سعاد، عيناك بحيرتان... فاضتا
بكل مافى فتنة الربيع من مفاتن الحياة
وكل مافى روعة الشباب، من ذخائر الشباب
وكل مالا يعرف الشباب من دوافع الحياة.. فى خوالج الشباب (ص ١٠٣)

* * *

قصة عمر، جاوز الشباب، بل أضاعهُ
فى تيه مَسراهُ.. إلى مصيرِهِ (ص ١٠٤).
انطوى ماضىّ فى الحب ظلاما، وضياء
ومسرات، وآلاما، وغدرا، ووفاء
وخطوبا، وابتساما، وبعادا، ولقاء (ص ١٣٥).

حمزة شحاتة
وتوظيف الأسطورة

- ٤٥ -

لفتت الأسطورة نظر شحاتة، وجاءت عنوانا لبعض قصائده، مثل « إيزيس » (ص ١٢٧). وأبيس (ص١٨٦)، وأشار في ثنايا شعره إلى الكثير من الأساطير الإغريقية والشرقية.

إن الأسطورة كإنجاز للقصيدة الحديثة، هي قناع يجر وراءه تداعيات تاريخية، متداخلة ومعقدة. وليست هي مجرد حلية تلقى على القصيدة كرداء خارجي، إنها تلتحم مع بنية القصيدة، وتثير نكهة تاريخية، لاتستطيعها المفردات العادية، وتتمدد داخل القصيدة وتخلق جوا أسطوريا يشكل بنية القصيدة. فالأسطورة تخلق القصيدة، والقصيدة تحيي الأسطورة، في جدلية لايمكن الفصل فيها بين القصيدة والأسطوره.

إن استخدام إيزيس أو أبيس كرمزين أسطوريين، يعني بعث اللحظة التاريخية بكل ملابساتها الفرعونية، وتتحول كلمة مثل إيزيس إلى مجرد مفتاح ينطلق منه الشاعر إلى عالم الأسطورة، هي كالزر الصغير يديره صاحب شاشة العرض، فتتوالى الصور متتابعة ومتلاحقة. إن الكلمة الواحدة تغني عن التفصيلات كافة، لأنها تستدعي في الذهن كل الملابسات والصور.

ولايكفي هذا، لأن الأسطورة تعني أيضا قراءة معاصرة للشاعر، فهو لايوردها كسرد تاريخي، أو معلومة معرفية، بل يحمّلها وجهة نظر جديدة تتأسس على الأسطورة، وتختلف عنها، وتبدو في النهاية شيئا جديدا ينسب إلى الشاعر، وإن كان يعتمد على ملابسات تاريخية. إن توفيق الحكيم في مسرحيته « شهر زاد» يثير الجو التاريخي، ويستدعي الصور الخيالية، ليتخذ من شهر زاد رمزا إلى قضايا تشير إلى الفن كعملية تطهير، يتخلص فيها الإنسان من العقد والشر والتجارب المريرة. إن شهر زاد الحيكم تختلف عن شهر زاد ألف ليلة وليلة، وإن كانت تحمل اسمها.

ولكن شحاتة يقف عند عتبات التوظيف الخارجي للأسطورة، ولم يدخل معها في صراع كأداة فنية، حتى تلين، وتصبح جزءا من بنية القصيدة لايستطيع القارئ أن ينتزعها نتزعها من نسيج القصيدة كرداء خارجي.

ومن هنا نراه يعدد بعض الأساطير في قصائده، فقط ليظهر براعته في معرفة هذه

الأساطير، وأنه يستطيع أن يسرد الكثير من عناوين الأساطير التى وردت عند الأمم المختلفة، وذلك مثل قوله فى قصيدة «الليل والشاعر».

سامرت « أو تيربَ » على عودها   تسكب فى أذنيك تحنانه

ألقت « أراتوسُ » على وقْعه   من شِعرِها البارع فتّانَه

ينسى « كيوبيدُ » له قوسَه   ويزدرى « فويبوسُ » شيطانَه

ومن هنا، لم تتوظف الأسطورة فنيا عند شحاته، وجاءت كالبطاقة الخارجية تحمل مجرد اسم أو عنوان للقصيدة، إن كلمة « إيزيس» تتساوى مع كلمة نفيسة وغيرها من أعلام وردت فى شعره، وإن كلمة « أبيس» تتساوى مع كلمة عجل أو تيس، فالشاعر لم يستطع أن يجر التداعيات التاريخية، وأن يثير الجو التراثى، وأن يمنح القصيدة خصوصية تتناسب مع خصوصية الأسطورة المستخدمة، فوقفت الكلمة كالشوكة فى الزور، ولم تتفاعل مع بنية القصيدة.

فإيزيس فى قصيدته هى مجرد فتاة، يخاطبها الشاعر فى أول قصيدته، ويقول :

ياحلميَ الكبير

يا أمنية الشباب

يا أمل الطفولة

ياقصتى التى

مازلت منذ عشتُها

أبحث فى آلامها

أبحث عن ختامها سُدًى

وأبيس يتحول إلى مرادف لكلمة العجل أو التيس، فهو رمز خارجى يقوم على فكرة التشبيه، ولايتخلل بنية القصيدة. إنه يأتى ابتداء من البيت رقم ٩٧، ليعنى به الشاعر رمزا إلى حاكم غبى، وهو رمز قريب المأتى، يعبر عنه الشاعر فى أبيات ناقمة، تعكس انفعالاته الحادة، فيقول:

أيها السابحون فى الحجج الوهْم   أفيقوا من غمرة الإغفاء

وضعوا العجل حيث يكدح فى الغْيط   ذليل القرنين فى استخذاء

وكذا أنت يا أبيس ثقيل الخطو   فيما ابتدعت من أخطاء

الخوّار الطـــويـــل آيتيـــك الكبــــ ـــرى تنـــاجـــى بها هـــوى الـــدَّهْماءِ
لم لم يلـــزمـــوك مـــأواك فى الغيـــ ـــط ، لتشقـــــى بـــــالحرث والإرواء؟
لم لم يثقلـــوك بـــــالنّير والحبـــ ـــل ، قيـــادا ، يصـــونُ حـــق الأداء؟

إن الأسطورة عنـد شحاتة افتقـدت بعدها التاريخى ، وافتقـدت أيضا قراءتـه الخاصة ، التى تضيـف إلى البعد التاريخى بعـدا معاصرا ، يضاف بـدوره إلى تاريخ الأسطـورة ، التى تتحدى الزمـن لأنها تتأول مع كل زمن ومـع كل قراءة جادة. إن الأسطـورة عنده أصبحت مجرد كلمات تضـاف للاستعـراض ، واكتفـى الشاعـر بهذه الرؤيـة ، ولم يغـامر مـع أدائه ، واكتفى من الغنيمة بالإياب .

حمزة شحاتة

وفن الملاحم

-٤٦-

يحتوى ديوان شحاتة على قسم عن الملاحم، وردت فيه عناوين مثل: «الملحمة الكبرى»، و«الملحمة». وقال الشاعر، وهو يقدم إحدى هذه القصائد: «الحياة ملحمة كبرى فى شتى مظاهرها المعنوية والمادية، وهل الحياة حياة إلا بهذا الصراع بين الموجودات، منظورة ومدركة؟ فهذه القصيدة تمثل فى ثوب القصة ملحمة تخيلية بين عناصر الكون (التراب والهواء والماء والنار)، تتم فيها الغلبة للعاصف رمز الهواء على البحر رمز الماء». (ص ٢٥٤).

الملحمة، كجنس أدبى، تحمل بصمات الإنسان الأول، فى صراعه ضد القدر أو الطبيعة، ومن خلال تكنيك فنى خاص، لاهو بالمسرحية، ولاهو بالرواية، بل هو جنس مستقل له مواصفاته الخاصة، التى تبرر جو المبالغة والتهويل والرومانسية. وتصور الإنسان الأول وهو يخطو على وجه الأرض، يتصارع مع أشياء حوله، تبدو غامضة وقوية، ينهزم الإنسان أمامها كما هو الحال فى التراجيديا الإغريقية.

ويأتى الفنان المعاصر فيستوحى هذا الإطار البدائى، ويمنحه تفسيرا جديدا. وقد يركز على العنصر الإنسانى فى صراعه مع القدر. وقد يعدل الهرم المقلوب، فيجعل الصراع ضد قوى اجتماعية محددة، بديلا عن الصراع ضد قوى ميتافيزيقية عليا. وقد ينتصر الإنسان فى صراعه، ولكن كل ذلك يحمل خصوصية الفنان الحديث، ويتحول العمل الفنى على يديه إلى وجود خاص، ينتسب إلى إنسان هو الفنان، أكثر مما ينتسب إلى قوة ملحمية عاتية، تصارع قوة غير مفهومة ولامحددة.

ولعل شحاتة قد تلقى من أفواه المثقفين تعبير «ملحمة»، أو لعله سمع عنها خلال أجهزة الإعلام، ثم وقف عند ذلك، ولم يتعب نفسه فى الكشف عن ملامح هذا الجنس الأدبى، واستغلال إمكاناته الفنية بما يحمله من ثقل تاريخى يحمل بصمات الإنسان الأول، ثم يوظف هذا الثقل فى رؤية فنية معاصرة.

ومن هنا، نراه يقف عند السطح، ويكتفى بترديد هذه الكلمة، التى تتخلص عنده من ثقلها التاريخى المتراكم، لتتحول إلى معنى صغير يدور حول معاركه الأدبية مع محمد حسن عواد، ويتخذ له فى هذه المعارك رمز الليل، مقابل رمز أبوللو عند عواد. وهو رمز يقوم

على فكـرة التشبيه دون أن يتجـاوزها إلى تـوظيف فنـى ، يحول القصيدة كلهـا من وجههـا الهجائى إلى قصيدة رمـزية ، فى صورها ومـواقفها وإيحاءاتها . ومن ثم، فقـدت ملاحمه مع عـواد، إن صــح هـذا التعبير، ذلـك الجو الميتــافيـزيقـى، وتحولـــت إلى مجرد هجـاء بين متخاصمين، مما نراه كثيرا فى القصيدة الغنائية فى شعرنـا العربى، وبخاصة فى نقائض جرير والفرزدق . وبعبـارة أخرى، أكثر صراحـة : إن قصائد شحـاتة وعواد يمكـن أن تنسب إلى النقائض بمفهـومها العربـى الشائع ، أكثر ممـا تنسب إلى الملاحم بمفهـومها الميتافيـزيقى التاريخى .

وقد تتحول الملحمة عنـد شحاتة إلى مجرد حوار بين عناصر الكون الأربعـة، وقد يتنبه فى هذا الحوار إلى فكرة الصراع فى الكون، ولكنه لايرتفع بـه إلى جوه الميتافيزيقى، ويصبح مجرد حواريات، تقترب مما هو معروف فى كتب المطالعة والقراءة، من حواريات بين الماء والهواء، أو بين السكر والملـح ، أو بين القطار والطائرة، وكل طـرف يحاول أن ينتصر على الآخر، فى جو من الصراع الســاذج، لايصل إلى هذا الإطار الفلسفى، الذى يتصـارع فى الإنسان مع قوى مجهولة، وقد يسقط ولكنه يحاول من جديد .

وغير ذلـك من ظـواهر تـدل متضـافرة على أن شعـر شحـاتة هـو صورة لشخصيتـه ؛ فالأسلـوب هو الـرجل كما يقال ، يحوم ولايـرد ، يتطلع ولايقتحـم، يطرق البـاب ولايلج ، يحمحم ولايجول .

فراش وجليد
وفكرة النصية
ـ ٤٧ ـ

ولايعنى ماسبق أننى أخلص للمنهـج الاجتماعى أو النفسى، وإلا وقعت تحت نوع آخر من استبداد المنهج يحجب عنه الرؤية الجمالية. ولكن يعنى أننى أبدأ من النص، ثم أحاول أن أضيء إشاراته الجمالية بتفسيرات اجتماعية أو نفسية، وهـى تفسيرات «موقوتة» تأتى فى لحظتها وعند اللزوم، ثم يطرحها الناقد ليتعامل مع النص، ويحاول إضاءته من جديد، من خلال موهبة تغريها بؤر الجمال، ومن خلال وعى قدتراكم نتيجة قراءات مختلفة، ويستطيع أن يعبر عن هذه البؤر.

إن التقيد بمنهج واحد فى النقـد هو نوع من العبودية، تخمد الموهبة الفنيـة عند الناقد. وإن الانطلاق مـن النص مع الإفـادة من كل المناهـج تعنيان ثقة النـاقد فى موهبتـه. فهو لايخشى الفـوضى أو الانزلاق، لأنـه ينطلق من أرضيـة ثابتـة، وهو النص كميـدان لعمله لايتعداه، وهو يعتمـد على موهبة فنية مدربـة تلتقط الإشارات من المرسـل، ثم تخرج هذه الإشارات فى شفرة متكاملة، تفسر وتقوم وتوجه.

وقد أخلـص الغذامى لمنهـج التشريحية، فكانـت النتيجة أن شـاعره (شحاتـة)، يفوق الأوائل والأواخر. ولو أننى أخلصت للمنهج الاجتماعى النفسى لبدا شحاتة مترددا لايقدم شيئا، وكلا الأمرين تطرف، يبعدان عن النظرة المتكاملة.

وهنا نواصـل ابتداء من هذه الفقرة مسيرتنا مـع شعر شحاتة، ونقف وقفة خـاصة عند قصيدتين له هما:

١ ـ فراش وجليد. (ص ١٢٠).

٢ ـ بين صديقين. (ص ٣١٩).

ولم يكـن الوقـوف عند هـاتين القصيـدتين لغرض تطبيـق منهج بنـائى أو تشريحى، أو اجتماعى، أو نفسـى. ولكن لأنهما استثارتا الحاسـة النقدية، بسبب تميـزهما بين الكثير من قصائد شحاتة.

كان هذا أول الأمـر: البداية من النـص، ثم مغازلته لأن لـديه مناطق جـذب تستحق المغازلـة. ثم تأتـى الخطوة الثـانية متمثلة فى محاولـة التعبير عن هذه المغـازلة مـع النص.

ولابأس فى هذه المحاولـة من أن أفيد بقراءاتى المتراكمة للمناهـج المختلفة شريطة ألا تطغى على الحاسة النقـدية. ولابأس، أيضا، فى أن أستخـدم فكرة « النصية» فى تحليـل القصيدة الأولى ، وفكرة « التناصية» فى تحليـل القصيدة الثانية ، وهما الفكرتان اللتـان تمثلان المحور الرئيس فى كتاب الغذامى ، نقلا عن رولان بن بارت. فلست ضد الغذامى أو ضد بارت. وقد أستعين بهما، مـادامت هذه الاستعـانة لاتطمـس الحس النقدى، ولاتوقـع القارئ فى شراك من التعبيرات المعتمة الغامضة.

-٤٨-

قد يقع النـاقد فى متاهة ، وهـو يطالع نص « فـراش وجليد» ، وقد يجمّد هـذا النص فى زخمه وتوتره، ويحوله إلى فكرة معروفة عن المرأة المبتذلة التى لاتصون مشاعرها، وقد يتحدث عـن وضعيـة المرأة فى المجتمـع ، أو يستطـرد ، بـأسلـوب شـاعـرى رومـانسـى ـــ إلى آراء الرومانتيكيين عن المرأة التـى هى ضحية المجتمع ، أو حتى بآراء الوجـوديين وهم يتحدثون عن المومس الفاضلة.

وقد يقـع الناقد فى متـاهة أخرى، ويفكـك هذا النـص ، ويتابعه حـرفا حرفـا ، وكلمة كلمة ، وقد يفترض لكل كلمـة بدائل ومترادفات ، وقد يملأ الخانات، ويفضـل خانة على أخرى ، وقد لاتسعفه اللغة ، فيلجأ إلى الجداول والأشكال والإحصائيات.

وكلتا المتـاهتين تبتعد عن النـص. فالنص هـو تجربة واحـدة يغطس فيها القـارئ منذ البداية ، ولايفوق إلا عند شارة الختام.

البداية فى قصيدة شحاتة كدقة البيانو الأولى فى كونشيرتو بيتهوفن. فمنذ النداء الأول فى القصيدة، والذى جاء لاهثا يخلو من حرْف النداء، يغطس القارئ فى جو القصيدة:

هاجرتى ! لو كنت تسمعين

ما أقولُ، أو تعين

لما تراكم الجليد بيننا

ولم تمت أيامنا على الجليد

ويظل القـارئ مع القصيدة كـأرجوحة الأقدار، يتـأرجح من حـالة إلى حالـة ، ولايتنبه لنفسه إلا بعد أن تأتى النهاية كدقات المسرح ، تعلن ساعة الانصراف.

فراشتى التى يبلغ الكلامُ

غاية الكلام

فليكن الصمت إذن

لهذه المأساة شارة الختام

وبين البداية والنهاية ، تتناثر فقرات القصيدة ، تطول مرة ، وتقصر أخرى ، ومع كل مرة لايحس القارئ أن الطول يصل إلى حدا الترهل ، أو أن ا لقصر يصل إلى حدا البتْر الخلْقى ؛ فكل عضو فى موضعه يشكل فى النهاية جسد القصيدة دون ترهل ولابسر ، ودون أن يستطيع القارئ نقل فقرة مكان أخرى ، فكل يتوالى فى موضعه ، وكل يشكل حلقته الخاصة داخل التكوين العام .

ذلك هو اللقاء الأولى مع القصيدة . وهى تمنح نفسها ، والناقد يتقبل هذا العطاء بحسه النقدى ، دون أن يفسده بمقدمات ومداخلات ومماحكات .

ثم تأتى الخطوة التالية ، فيتدخل وعى الناقد . إن الناقد يختلف عن القارئ برغم كل هذا الضجيج حول القارئ الناقد . فالناقد لايكتفى ، مثل القارئ ، بهذا العطاء الذى تمنحه القصيدة منذ اللقاء الأول ، ثم يروح يستمتع بهذا العطاء فى رضا تام ، ولكنه مطالب بأن يصوغ هذا العطاء ، فى لغة تعكسه وتعكس مبرراته . حقا ، هو سيفتقد الكثير من زخم التجربة ، ولكنه سيضبط هذه التجربة ، ويضيف الوعى النقدى إلى الحس الفنى .

فالناقد بوعيه يستطيع أن يعبر عن خصائص كثيرة ، تميز قصيدة « فراش وجليد» بين الكثير من قصائد شحاتة .

فالقصيدة ، أولا تفيد من التكنيك الدرامى الحديث ، وهى تلجأ إلى تصوير الموقف ، الذى يوحى بمشاعر المؤلف دون أن ينص عليها بطريقة مباشرة . فهو حين يقول :

وتطفئ المصباح

كى ينوّر الدجى جناحها

وكى يضمّد الدجى جراحَها

أو حين يقول :

فراشتى ، لوساقك الهواء ليلة

إلى فراغ حجرتى

لن تجدى السرير خاليا

فثَمّ دائما ، أكثر من فراشة
تطوف حوله لتحترق

فإنه يرسم موقفا ، ويستحضر حدثا ، ويضيف إلى قصيدته الغنائية بعدا قصصيا يقوم على التصوير والإيحاء . وهو، ثانيا ، يضفى على قصيدته حركة ، تصورها الأبيات التالية .

هاجرتى ، أرجوحةُ الأقدار
لم تزل تدور
تحت ظلال الصمت والسكون
والبعد بيننا يمتد فى فراغ
تقبل الهواء حوله
وتطلب المزيد

فهنا صورة تجسدها حركة الأرجوحة ، وتضيف إليها هذه المناوشة اللحوحة بين الهواء والأرجوحة .

وهو ، ثالثا ، يوظف الوزن والقافية فى خلق جو مشبع بالحركة والتنوع . هو لايقف عند الوظيفة العروضية الأولى التى تزن وتقفّى ، بل نراه يغير فى الوزن والقافية ويحور. وهو من أجل ذلك يكثر من استخدام بحر الرجز، ويستخدم إمكانات هذا البحر الواسعة فى العلل والزحاف والتجزئة ، وهو ينوع بين القوافى ، وهو يفعل ذلك عن حساسية ووعى ، يطيل متى ما أراد ، ويأتى بالقافية التى يريد ، وهو فى النهاية يجعل كل تغيير وتنويع يساهم فى خلق الجو الموسيقى السريع .

وهو رابعا ، لايقدم رؤيته كمعنى أو كمضمون يمكن اجتزاؤه على هيئة مقولة فكرية أو اجتماعية أو نفسية أو معرفية ، بل إنها تتحول إلى جزء من البنية النصية ، ومتداخلة فيها ، ليست هى مجرد حكمة تختصر الموقف ، أو تعليقا قصيرا على الأحداث . إنها تمتد فى بنية القصيدة « كالنفس الحار» .

وحين أشبه رؤيته بالنفس الحار، فلكى أوكد على أنها جاءت سريعة ساخنة ، تتناسب وحركة القصة ، وكأنها تلك الأرجوحة التى تحدث عنها الشاعر فى مطلع القصيدة ، تناوش الهواء ، تقبله مرة ، وتبتعد عنه أخرى .

فحين يقول الشاعر:

وكل شىء فى الوجود يحترق

أنا ، وأنتِ، والكيان كلُّه
حتى اللهيب والجليد
ويختفى القديم، ويظهر الجديد
ويلد الفراش دائما فراش .

نحسّ فى أبياته برؤية متحركة، تقوم على صراع الأضداد . وعلى هذا التوالد المستمر بين القديم والجديد . ومن هنا يأتى عنوان القصيدة ملتبسا بهذه الرؤية المتداخلة . لم يكن العنوان « فراش ونور» ، كما هو متوقع . بل كان « فراش وجليد» فما دمنا فى توالد الأضداد ، وتداخل القديم والجديد ، فإن الجليد يمكن أن يحل محل اللهيب على حد قوله .

وهو ، خامسا ، يوظف الحوار بكيفية تتجاوز فكرة التواصل بين الطرفين. فهو حين يقول :

مِللت؟ أم ندِمت؟
أم لوى بك الغضب؟
لاتجدين مايقال
أفهم ما يمكن أن يقال

نجد الشاعر يتجاوز الفكرة التقليدية للحوار على أساس أنه تواصل بين طرفين ، بل ويتجاوز أيضا الوظيفة القصصية للحوار باعتباره امتدادا أو تعبيرا عن البعد النفسى للشخصية . إن الشاعر هنا يجذب كل شىء داخله حتى الطرف الآخر. وحين يقول «لاتجدين مايقال» ، نحسّ بتوتر الموقف ، وبحوارات شتى تجول داخله ، تعنى فى النهاية تراكمات شعورية ، ولاتهدف إلى إخبارات تنقل من طرف إلى آخر .

ومن هنا ، نجد الاستفهامات فى الأبيات السابقة ، تتميز عن الاستفهامات التى تحدثنا عنها فى الفقرة—٤١ ، ورأينا أنها تقوم على حدة الانفعال ، وتشبه صياحا كصياح المراهقين . إن الاستفهام هنا يعكس الصراع بين الطرفين . وحين يتساءل شحاتة : «ندمت؟ أم مللت؟ أم لوى بك الغضب؟» لايعنى تساؤلات تقليدية . وإنما هو يسجل مواقفها (الندم ـ الملل ـ الغضب) ، وكل موقف لايغنى عن الآخر ، وكل المواقف تصب فى « الإدانة» التى يريدها الشاعر ، والتى تجعل الهاجرة لاتجد مايقال ، مع أن الشاعر يفهم كل مايقال ، ولو تلجلج صاحبه ، لأن التلجلج الذى تعبر عنه أدوات الاستفهام ، هو خير مايقال فى مثل هذه المواقف .

إن الناقـد، فى كل مـاسبق، قـد انطلق من النـص مباشرة، وعقـد صلة حميمـة معه، فمنحه النص نفسـه، وأصبح هـم الناقد بعـد ذلك أن يعبر عن تلك الصلـة الحميمة وعن نتائجها، فقط فى كلمات مفهومة.

ولـو أن النـاقـد جعـل بينـه وبين النـص سـدا، يتمثـل فى كـومـة الجداول والأشكـال والإحصائيات، لراوغـه النص فى عناد شديد، لأن النص مثـل الحبيبة لاتمنح نفسها إلا إذا طرق «الفارس» الموعـود قلبها دون تكلف ولا حذلقة. ويمكن فى هـذا الصدد أن نعود إلى تشبيهات الغذامى حول قيس وليلى كما فى الفقرة / ٣٠، فقط دون هذا الجو البوليسى الذى يطير النـوم من العين، ويقتـل قيـس فيه الـزوج، ولكـن نعـود إلى قيس وليلى فى مسرحيـة شوقى، فـإن ليلى ظلت حتى مع زوجهـا كالنص المغلق لاتبـوح بمشاعرها، ولكـن ما إن تلتقى بقيـس، الذى يستطيع بـأشعاره أن يطرق قلبهـا، حتى تفضفـض له بمشاعـرها، وتشكو أوجاعها:

كلانا قيس مذبوح   قتيـل الأب والأم

طعينـان بسـكين   من العـادة والوهـم

بين صديقين
وفكرة التناصية

ـ ٤٩ ـ

تداخل النصوص غير التقليد، وغير السرقة المذمومة.

التداخل هو الانطلاق من نصوص سابقة، ثم تجاوزها

أما التقليد، فهو الوقوف فى حوزة النصوص، ودون تجاوزها الأول إضافة، والثانى نسخة تقليدية.

حمزة شحاتة فى « غادة بولاق» وقع فى شرك النصوص السابقة، وافتقد الشخصية، حتى إن ستا وعشرين قافية من قوافى قصيدته، جاءت تكرارا لشعراء مثل الشريف الرضى، وابن زيدون، وأحمد شوقى.

ولكن الأمر يختلف فى قصيدته « بين صديقين». هو يجعلها على لسان أحمد شوقى يشكو إلى صديقه غاندى محن الدهر، وهو يبدؤها ببيت من شعر شوقى:

سلام النيل ياغَنْدى   وهذا الزهر من عندى

فالقصيدة إذن هى معارضة لقصيدة شوقى « غاندى» ، وتشير على الوزن نفسه وعلى القافية نفسها، ولكنها معارضة من باب « التناصية» التى تنطلق من النصوص، لتضيف إليها.

أحمد شوقى فى قصيدته [1] يستقبل غاندى فى مصر وهو فى طريقه إلى لندن لحضور المائدة المستديرة، وهو ينتهز هذه الفرصة، فيتحدث عن الهموم المشتركة بين الشعبين المصرى والهندى، ثم يصف فى فقرة ثانية غاندى بصفات النيل والمثالية، ثم فى الفقرة الثالثة، يضفى على القصيدة جوا من الجلال والمثالية ممثلا فى الأهرام والكرنك وتاريخ مصر القديم والحديث، وأخيرا يقدم له بعض النصائح، ويحذره من خداع الإنجليز، وأنه حتما سينتصر عليهم، كما ينتصر الحق على السحر والتمويه.

وقل هاتوا أفاعيكم   أتى الحاوى من الهند

---

(١) الشوقيات: ١/ ٦٦.

فالقصيدة ، إذن ، تدور فى جو من النبـل والمثالية والجلال ، وتخاطب الصفوة الممتازة ، وتشير إلى قضايا سياسية كبيرة ، وتعلى من روح الكفاح ضد الدخيل .

وهى بـذلك يمكـن أن تصنف داخـل الأدب الكلاسيكـى ، الذى يجعـل أبطالـه من الشخصيات النبيلة ممن تواترت عليهم النعمة ، وذهب سمعهم بين الناس ، على حد تعبير أرسطو. أو بعبارة أخرى لعلها لاتكون بعيدة! هـى نوع من أدب الفروسية ، الذى يعلى من شأن القيم ، ويـدافع عن صفات النبل ، ويصـور شخصياته فى صورة مثاليـة ، وكأننا إزاء تمثال يجسد الفضائل الإنسانية :

على إفـريـز راجبـوتـا ... نَ ، تمثـالٌ مـــن المجـد
بنــــى مثـل كونفوشيوِ ... سَ ، أو مــن ذلك العهد
قـريـب القـول والفعـل ... مـــن المنتــظر المهــدى
شبيه الرســل فى الـذود ... عـــن الحــق ، وفى الـزهد
لقــد علــّم بالحــق ... وبالصبـر ، وبالقصـــد

ولكن قصيدة شحاتة[1] ، تتخذ لها مسارا مختلفا ، يعطيها وجودا مميزا .

هى نوع من المعارضـة ، من ذلك النوع الذى عرفه العالم منـذ رواية « دون كيشوت» التى سخرت مـن طبقة النبلاء والفـرسان ، واعتبرت منذ ذلك الحين نقلـة فى تصوير البطـل من عامة الشعب ، بطريقة تثير الشفقة والرثاء ، وتختلف عن مواصفات أرسطو.

فقصيدة شحاتة تنطلـق من قصيدة شوقى ، ثم تتجاوزهـا ، لتنغرس فى التراثين العربى والعالمى ، ابتداء مـن بطل الكدية ، وحتـى اللابطل anti hero ، ومرورا ببطل المقـامات والشطار والعيارين وغيرهم من نماذج تتخذ لها مسارا يختلف عن بطل النبلاء والفرسان .

ومن هنا ، اتخذت قصيدة شحاتة مسارا مختلفـا ، حماها من أن تصبح صورة من قصيـدة شوقى ، وأن تكرر قـوافيه . إنها وجود مميز تتفوق فى ظنى على قصيـدة شوقى ، إن بطلها ذو قسمات محددة أكثر تميزا من بطل شوقى .

بطل شـوقى هو غـاندى ، يصفـه الشاعر وصفًـا خارجيا ، ويقـدمه كصـورة للفضائل الإنسانية . أما بطل شحاتة ، فهو شحاتة نفسه متسترا وراء شوقى وغاندى ، ومتحدثا عن آلامه النفسية ومواجعه الاجتماعية ، ومن هنا ، اكتسب هذا البطل ملمحا نفسيا قويا .

---

(١) ديوان حمزة شحاتة : ص ٣١٩

ولمـــا طقّنـــى الفقـــر وأضحـــت أمتـــى ضِـــدّى

تـــوكلـــت على المولى وعـــولـــت على زَنْـــدى

أبيـع الفـول والحـــلبـــة والفصفُـص والمنَـــــدِى

فطـورا التقـــى أكلـــى وطـورا أطفـح الـدُّرْدِى (١)

الناقد، من الوهلة الأولى، يحس بهذا الوجود المميز فى القصيدة، وبأن شحاتة قد حفر له مجرى مختلفا. والناقد بعد ذلك، وليس قبله، مطالب بالتعبير عن هذا الوجود المميز، وبلغة مفهومة.

فالقصيدة، أولا، تنطلق من قصيدة شوقى، وتستغلها فى خلق جو هندى، يلعب دور الموسيقى التصويرية، وتتناثر المفردات والتعبيرات الهندية من مثل: العنزة الكبرى ـ أردى ـ الكنج ـ بربندى ـ صلدى ـ أو كلندى ـ قندى ـ الهرد ـ شلو جلدى ـ وغير ذلك من كلمات تقوم بتجسيد جو المحاكاة، والتهيئة للانطلاق من هذه القاعدة، حتى لو كان هذا الانطلاق من باب التهكم.

والقصيدة لم تقع فريسة المحاكاة وتدور فى فلك قصيدة شوقى، دون أن تتطلع إلى أفق جديد، فقد استطاعت أن تتخلص من ثقل قصيدة شوقى، وأتت فى الغالب بقواف ومفردات جديدة، تناسب هذا الجو الجديد.

أما القوافى، وهذا ثانيا، فإن شحاتة لم يكرر من قوافى شوقى سوى سبع هى: عندى ـ الهند ـ جُهدى ـ ودى ـ المهد ـ كد ـ اللحد. هذا إذا حسبنا أيضا القافية الأولى (عندى)، والتى جاءت لمناسبة اقتباس البيت كله من قصيدة شوقى.

وهى نسبة قليلة تصل إلى حد السدس من قوافى القصيدة كلها، والتى تبلغ إحدى وأربعين قافية، بينما زادت القوافى فى قصيدة «غادة بولاق» ـ حسب جدول الغذامى ـ إلى نسبة تتجاوز حد الربع.

إن تكرار القوافى لايدل فى حد ذاته على التناصية التى تضيف وتتجاوز، كما زعم الغذامى فى تعليقه على الجدول السابق. بل ربما، وهذا هو المعقول، تقف ضد أن تتخذ القصيدة لها مسارا مختلفا، تتخطى التراث بعد أن انغرست فيه:

---

(١) طقنى: أصابنى. الفصفص: نوى البطيخ. المندى: رأس الخروف المشوى فى المَنْداة. الدردى: الطعام السيىء.

أما المفـردات ، وهذا ثالثا ، فقـد جاءت من قـاموس البطل الهزلى ، واستدعـى بعضها بعضا لتشكل نفسية هذا البطل الجديد . ومن هنا ، جاءت مناسبة لهذه التركيبة ، وقريبة من العامية ، وذلك مثل : التهليس ـ الدردى ـ دقدى ـ جغدى ـ العفش ـ أو حستنى ـ مستورا ـ قدى .

والقصيدة ، رابعا ، تحتوى على نبرة من الدعابة خفيفة ، نتبينها منذ الأبيات الأولى .

ولكنـــى كما نـــدرى فقـــير عـــارى الجلـــد

أضعـت البيـت والقرشــ يـن فـــى التهـليس والجـدّ

وبعـت العنـزة الكـبـرى علـــى صـاحبنا السِّـندى

وأمـــا ســـائر العفــش فقـــد صـــادره وجـــدى

فمـــن لى اليوم بـــالنـــول ومـــا فـــى قبضتـــى أردى

وتختلط هـذه الدعابة ، وهـذا خامسا ، بقدر مـن الشكوى ، تكشف عن وضعيـة هذا البطل الهازل ، والذى يقف على المقـابل من شخصية غاندى . فغانـدى قد اختار الفقر ، كفارس ، مـن أجل قضيـة كبرى . أما الفقر فى حـالة هذا البطـل الهازل ، فقد فـرض عليه فرضا ، دون حيلة ولا اختيار .

وناهيـــك بحـــر نـــا م فـــى البـــرد بلا دُقـــدى

تمنـى ستره الحـــال فلـــم يعثـــر على صـــلْدى

ولـــو أنصفـت الأيـــا م لحـــابته بأوكلنـــــدى (١)

ثم تتـوالى هذه النغمة الشـاكية ، وهذا سادسـا ، لتتمرد فى نهاية القصيـدة على الأوضاع الاجتماعية .

فقـد أغـــرى بنـــا الفقــر لئامـــاً مـــن بنى ســـعْد

وقـد يعـدو كـلاب الحى مـن جهـــل علـــى الأسْـد

وإن أدبـــرت الـــدنيـــا تســـاوى الشَّهـــم بـــالـــوغـْد

(١) دقدى : اختصـار كلمة دقديق بمعنى بطانية . صَلْد : أصغر عملة هندية . أو كلندى : معدن مـن معادن الهند .

إن هذه النغمة المتمردة لانجدها فى البطل المكدى القديم، سواء فى المقامات أو فى غيرها، الذى يقف عند حد الشكوى، واستدرار العطف، وطلب الصدقة والإحسان، ولاتسول له نفسه شيئا وراء ذلك، فيتمرد على الأوضاع الاجتماعية، التى تساوى بين الكلب والأسد، أو بين الشهم والوغد.

إن مقياس التناصية يمكن أن يكون مفيدا، شريطة أن يستخدمه الناقد فى بعديه المتكاملين، فيرصد حركة النص الأخير وهو ينغمس فى التراث، ثم يرصد حركته التالية وهو يتخلص من هذا التراث ليضيف إليه. والناقد فى رصده هذا يعانق النص ويستثير حسه الفنى، حتى لايقع فى تلك المتاهة أو فى غيرها، مما يبعده عن سكة النقد الأدبى، كما سبق أن ذكرنا أول الفقرة السابقة.

خاتمة الفصل

ـ ٥٠ ـ

بدأ نقاد الحداثة بمقولة « موت المؤلف» ، باعتباره إلها مستبدا ، حسب التعبير الوثنى عند نيتشة ، ولكن هذا المقولة انتهت إلى إله آخر ، وبالمنطق الوثنى أيضا ، الذى بحث دائما عن إله حتى لو كان من صنع نفسه .

فقد استبد القارئ بالساحة ، وحل محل المؤلف ، وانتهك النص ، وأخذ يفسره حسب هواه . وإذا ماقيل له إن المؤلف لايريد ذلك ، أجاب بأن المؤلف قد مات ، فليرحمه الله ، وأنه ، أى القارئ ، وريثه الشرعى .

إن القارئ ، بهذا المفهوم ، لايحيا إلا على أشلاء المؤلف ، وإذا عدنا من جديد إلى مثال الغذامى (الفقرة/ ٣٠) ؛ عن قيس وليلى ، فلا سبيل لقيس أن يستأثر بليلى إلا بعد أن يقتل زوجها ، وأيضا لاسبيل للقارئ أن يفوز بالنص الأدبى إلا بعد أن يقتل المؤلف .

وكل هذا اغتصاب ، فإذا كانت ثمة مفاضلة حتمية بين المؤلف والقارئ ، فإن المؤلف هو المالك الحقيقى للنص ، وهو الذى يمنحه اسمه . أما أن يأتى آخر ، ويغتصب هذا الاسم ، ويقتل الأب ، فهى جريمة اغتصاب تتستر وراء تعبيرات براقة .

قد يكون مقبولا أن نقبل تعسف المؤلف ، فهذا عمله ، وهو حر فى أن يفسره كما يريد ، ونحن أيضا أحرار فى أن نقبل منه هذا التفسير ، فالمهم أن يدور حوار حول المقبول أو المردود مما يريده المؤلف ، وهذا الحوار هو النقد الأدبى فى صيغته الأولى والمعروفة ، والتى تميز العملة الجيدة من العملة الرديئة .

قد يكون مقبولا أن نقبل تعسف المؤلف ، فالمال ماله ، والمشروع مشروعه ، والاقتراح اقتراحه . ولكن ليس من المقبول أن نقبل تعسف القارئ ، كإله وثنى غير رشيد ، يعبث فى مملكة غير مملكته ، يغتصب ويقتل ، ويرتكب خطيئة بلا تكفير.

وتأتى هذه الدراسة دعوة إلى موت القارئ ، لا لكى يحل محله إله جديد ، فنحن لانؤمن إلا بإله واحد أحد ، بل لكى ينتعش النص ، ويمنح إمكاناته بلا تردد ولا حدود ، ولكى يلتقى على أرضه المؤلف والقارئ معًا ، فى حوار ودون أن يقتات أحدهما على جسد الآخر .

أولا : المصادر والمراجع العربية

* الإيضاح فى علوم البلاغة : الخطيب القزوينى . (بيروت ــ دار الكتب العلمية ـ ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م) .

* ثقافة الأسئلة : د . عبد الله محمد الغذّامى . (جدة ـ النادى الأدبى الثقافى ـ ١٤١٢ ـ ١٩٩٢م) .

* الخطيئة والتكفير: د . عبد الله محمد الغذامى . (جده ــ النادى الأدبى الثقافى ـ ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م) .

* دليل الرسائل الجامعية : د. عبد الحميد إبراهيم . (القاهرة ـ دار المعارف ـ ١٩٩٢م) .

* ديوان حمزة شحاتة . (جدة ـ دار الأصفهانى ـ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م) .

* الشوقيات : (بيروت ـ دار الكتاب العربى ـ ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م) .

* لقطات : ألان روب جرييه . ترجمة : د . عبد الحميد إبراهيم . (القاهرة ـ دار الكتاب العربى ـ ١٩٨٥م) .

* معجم البلاغة العربية : د . بدوى طبانة . (ليبيا ــ جامعة طرابلس ــ ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م) .

* الموقف من الحداثة : د . عبد الله الغذامى . (الطبعة الثانية ١٤١٤هـ ١٩٩١م ـ لم يذكر اسم الناشر) .

* النقد الأدبى الحديث : د . محمد غنيمى هلال . (بيروت ـ دار العودة ـ ١٩٧٣م) .

ثانيا: المصادر والمراجع الإنجليزية

• Arnold, Edward, Contempor ary Criticisim, London, 1970.

* Bruce Morriette, Alain Robbe Grillete, Columbia University Press, New York, 1965.

* David Lodge, 20 th Century Literary Criti cisim, London,1972.

* Federman , Roymond (ed). Surfiction·Now and Tomorrow. Chicago1., 972.

* Fowler, Roger (ed) Adictionary of Critical Terms, Lodon, 1973.

* Gerald Graff, Literature aganst itsell, the University of Chicago Press, 1979.

* Grillete, Alain Robbe, Snapshots.

  * Towards a New Novel, 1965.

* Hassen, Iheb, Contemporary American Literatwre.

  * The Dismemberment of Orphan, Towards a Postmodern literature.

  * Para criti cism, Seven Specul ation of the time.

  * Radical Innocen ce, Studis in the Contempor ary Americen Novel .

* I A.Gudden (ed) A Dictionary of Literary Terms, Penguin Book, 1979.

* Laurant le Sage, The French Naw Novel, Pennsylvani 1962.

* Mal colm Bradbury (ed) The Novel Todoy, London 1978.

* Maurice Nadeou, The French Novel Since the War, London.

* Minogue, Valerie, Nathalie Sarraute, Edinburgh, 1981.

* Peter Faulkner, Modernism, London 1980.

* Philip Stevick (ed) . The theory of the Novel Macmillan, New york 1967.

* Ruth, Z.Temple, Nathalie Sarraute, Colombia University Press, New York, 1968.

* Sarraute, Nathalie. The Age Suspi cion, Lodon, John Calder, 1963.

* Sontag, Susan. Against Interpretation A Delta Book.

الفصل الثـالـث

الرحـــلة إلى الســـماء

بين إقبال والزبيرى

دراسة مقارنة حول الأشكال الأدبية

ـ ١ ـ

طالما تحدث الكتاب عـن شاعـرية محمـد محمـود الزبيرى ، وطـالما تحدثوا عـن مواقفـه السياسية ، والحديث عن ذلك لن ينضب ، وسيتجـدد مع كل قصيدة يمنية جديدة ، ومع كل انتصار سياسى جـديد . هناك ناحية أخرى جديرة بـالاهتمام أيضا ، وهى الكشف عن فكـر الزبيرى . وعـن أصالـة ذلك الفكـر ، والبحـث عن مصـادره ، خاصـة ونحن أمـام شخصيـة متحـركة ، لاتـرضـى بـالمكث فى مكـان واحـد ، فهـى تتنقل مـن صنعـاء ، إلى السعودية ، إلى عدن ، إلى القاهرة ، إلى باكستان . وهى فى تنقلاتها لاتمر على الظواهر بطريقة عادية ، لا مبالاة فيها ، إذ هـى شخصية قلقة ، تعانى ، وتتأثر وتؤثـر فيمن حولها . ولست أزعم أننى فى هذه العجالة القصيرة ، سأحيط بفكر الزبيرى ومصادره ، وأكشف عن مقدار أصالتـه ، ولكن يكفى أن أشير إلى ناحيـة واحدة ، وهى بحثه عـن « مدينة فاضلـة » . وقد ينقص هذه العجالة التعمق ، ووضعها فى الصـورة الكلية لفكر الزبيرى ، ولكن يكفيها أنها إشارة إلى الطريق الذى ينتظر مغامرين أكثر جرأة وأطول نفسا .

ـ ٢ ـ

درج الفلاسفـة منذ عهد الإغـريق ، على أن يتطلعوا نحـو مدينـة فاضلة ، يتحقـق فيها الخير والجمال والحق ، وتعيش فيها الإنسانية حياة خالصـة تختلف عن تلك الحياة الواقعية ، التـى يختلط فيهـا الخير بالشر ، والجمال بـالقبـح ، والحق بالظلـم . بل قـد يحدث فى فترات استثنائية أن تعلـو نبرة الشر ، وأن يرتفع صوت الظلـم ، وأن تكثر مظاهر القبـح ، فيصاب الكثيرون ــ من المتعجلين وممـن يقفون عنـد الظواهـر ــ باليـأس وبالتشكيـك فى العدالـة المطلقـة ؛ ومن هنـا ، فر الفـلاسفة نحـو الحلم بمـدينـة فاضلـة . فعل ذلـك أفلاطـون ، والفارابى ، وأسكار ويلد ، وفرنسيس بيكون ، وغيرهـم من فلاسفة الشرق والغرب ، وأخذوا يضعون القوانين والتشريعـات لهذه المدن ، وينظمون طبقات الناس ، ويحددون العـلاقات بينهم ، ووضع الجيش (القوة) والمال والأرض والنساء . أى أنهم أخـذوا يركزون على المظاهر الخارجيـة ، وينظمونها بطـريقـة عقلية ، تقـوم على النسبـة الفاضلـة ، وعلى مـراعاة أوجـه التناسق . وكانوا يهملون الجوانب الداخلية للإنسان ، الذى قد يشعر بالتعاسة ، مهما كانت

المظاهر الخارجية كاملة الأركان، وتامة القواعد، والذى قد يستطيع أن يسمو فوق المظاهر الخارجية وأن يغيرها، مما جعل « وول ديورانت» فى كتابه « مباهج الفلسفة» يسخر من تلك المدن الفاضلة، ويدعو إلى الاهتمام بتغيير داخل الإنسان، حتى يصبح لائقا للحياة الفاضلة. إنه يرى أن نقلل من الاهتمام بالمظاهر الخارجية، وأن نعمل على « صياغة أنفسنا صياغة جديدة، وبناء عقولنا وإرادتنا حتى تصلح لسكنى عالم أفضل، صاف صفاء معرفتنا، وقوى كقوتنا. ولما كانت الطبيعة البشرية والجهل الإنسانى هما السبب فى خراب كل مدينة فاضلة، فعلينا أن نسعى إلى تطهير قلوبنا وعقولنا، ومن الأرجح أن كل شىء سيقبل علينا»[1] .

-٣-

وانطلاقا من تلك النقطة التى تركز على الداخل، يصور متصوفة الشرق مدنهم الفاضلة، من مفهوم دينى، يهتم بوجود الإنسان فى موقف، وبنتيجة سلوكه فى ذلك الموقف، أكثر مما يهتم بماهية الإنسان وعقله وتنظيمه. وقد درج على ذلك متصوفة الإسلام، وخاصة بعد شيوع قصة الإسراء والمعراج، وصعود النبى ﷺ إلى الملكوت، حتى وصل إلى الأفق الأعلى، وكان قاب قوسين أو أدنى. ونزلت عليه التجليات والأسرار، وعاد ليبلغها إلى أصحابه وأمته والناس جميعا.

وفى هذا المجال، تأتى رحلة محمد إقبال (ت ١٩٣٨م) التى صورها فى كتاب « رسالة الخلود» أو «جاويد نامة»، والذى نشره سنة ١٩٣٢م. فقد قام برحلة فى الأفلاك، يعنينا منها تصوره للمدينة الفاضلة فى فلك المريخ، والتى يسميها « مرغدين»، فهو تصور دينى يهتم بالإشراق والسعادة الداخلية، ويرنو نحو الحياة الروحية، التى أصبحت أملاً فى حياة المادة والآلة، وفى العصر الحديث الذى غلب عليه النظام والنسق، على حساب التيار الشعورى الداخلى. يقول إقبال عن مدينته مرغدين: « كلام سكانها حلو كالعسل، الحسن فى وجوههم، والرقة فى شمائلهم، والبساطة فى ملبسهم. بالهم ليس منشغلاً بحمى الكسب. إنهم يعرفون سر كيمياء الشمس. يستخلص كل من يريد الفضة والذهب من النور، مثل مانستخلص نحن الملح من ماء البحر. وهدف العلم والفن هو الخدمة لا غير؛ فلا أحد هنا يزن الأعمال بالذهب ولاوجود هنا للدينار والدرهم، فليس لهذه الأصنام سبيل إلى الحرم. وشيطان الآلة ليس غلابا على الطبيعة؛ إذ لا نجد الفضاء هنا مظلما بدخان المصانع. وأهل المدينة مجتهدون كل الاجتهاد، فشعلة المزارع منهم مضيئة على الدوام لاتنطفئ أبدا، فهو فى مأمن من مسالب ملاك الأرض. جهده فى زراعة الأرض خال

---

(١) مباهج الفلسفة: « الكتاب الثانى »، ص ١٧١ .

من النزاع على الماء . محصوله ملكه هو لا يشاركه فيه أحد ، وليس فى المريخ شرطة أو جيوش . ولا يكسب أحد رزقه يوما من القتل وسفك الدماء»[1] .

إنها مدينة منتزعة من التراث الإسلامى . وتذكرنا بما جاء فى « تفسير الطبرى» ، وهو يتحدث عن رحلة « ذى القرنين» الذى وردت أخباره فى سورة الكهف : « فبينما هو يسير، دفع إلى أمة صالحة ، يهدون بالحق وبه يعدلون ، أمة مقصدة مقتصدة ، يتسمون بالسوية ويحكمون بالعدل ، ويتآسون ويتراحمون . حالهم واحدة ، وأخلاقهم مشتبهة ، وطريقتهم مستقيمة ، وقلوبهم متآلفة ، وسيرتهم حسنة ، وقبورهم بأبواب بيوتهم . وليس على بيوتهم أبواب ، وليس عليهم أمراء ، وليس بينهم قضاة ، وليس بينهم أغنياء ولا ملوك ولا أشراف ، ولا يتعادون ولايعانون ولا يتفاضلون ولا يختلفون ولا يتنازعون ولا يسيئون ولايقتلون ولايقحطون ولا يجردون ، ولا تصيبهم الآفات التى تصيب الناس ، وهم أطول الناس أعمارًا ، وليس بينهم مسكين ولامقتر، ولافظ ولا غليظ . فلما رأى ذلك ذو القرنين من أمرهم عجب منه»[2] .

ـ ٤ ـ

وجاء الزبيرى (استشهد سنة ١٩٦٥م) ، وكتب روايته « مأساة واق الواق» سنة ١٣٧٩هـ ، وقام فيها برحلة إلى العالم الآخر ، امتاح فيها من التراث الإسلامى ، واستعار كثيرا من مواقف الإسراء والمعراج وبنوع خاص عند حديثه عن طوائف المعذبين ، الذين كانوا يلاقون العذاب من جنس العمل .

والذى يهمنا من رحلته ، هو تصوره للجنة . فقد كانت نموذجا للمدينة الفاضلة التى يحلم بها ، وكانت امتدادًا للتراث الشرقى الذى يركز على تغيير الداخل بالدرجة الأولى .

والجنة التى يحلم بها الزبيرى ، تتحقق فيها بنوع خاص أمور ثلاثة هى : الحرية ، والحب ، والفن .

وقد اهتم بنوع خاص بالحرية ، فكثيرا ، ما كان يكرر وصف أهل الجنة بأنهم أحرار طلقاء كالطيور « المتحررة المنطلقة الهائمة تصنع الحياة السامية وتمارسها تلقائيا فى آمادها البعيدة دون قيود أو حدود على حد قوله . ويغريه كثيرا تشبيه أهل الجنة بالطيور، «لأنها المخلوقات الواعية الناطقة ، لا سيما فى شئون العلاقات الجنسية . إنها تفخر على الآدميين بأن الله أطلق سراح قلوبها من قبور الشرائع والأديان ، لتتخير ما تشاء من ألوان الحب المقدس ، ليس فى الجنة فحسب ، بل فى الدنيا أيضا» . (ص ١٩٣) ، وتكاد الصفات

---

(١) رسالة الخلود : ص ١٩٤ .

(٢) تفسير الطبرى : (سورة الكهف . الآية : ٩٢) .

الأخرى ترتد فى النهاية إلى صفة الحرية . فالحب ، كما يفسره ، هو حرية خالصة فى الاختيار، والفن أيضا حرية خالصة ترضى متعة سامية لأهل الجنة .

والزبيرى ، لم يقدم مدينتـه الفاضلة بطريقة تجريديـة فلسفية ، تعتمد على شرح الأفكار وتحليلها ، بل صورها بطريقة فنية شاعرية تعتمد على الحركة والإثارة . فبينما كان الشهداء فى حوار ساخن ونقاش متبادل ، إذ يحس العزى أن هناك ضجة « لذيذة ، ولكنها مثيرة »، على حد قوله . (ص ١٩١) . فقد اكتشف أن الشهداء يتسللون واحدا وراء الواحد ، ويذهبون إلى مكان آخـر . وحين تساءل عـن سر تلك الحركـة المثيرة ، عرف أن « محكمـة الحب » قد انعقدت فى الجنة ، وأنها تنعقد فى فترات متباعـدة ، وأن أم الجميع ممن كان لهن دور بارز فى مقاومة الطغيان ، قـد تحولت فى الجنة إلى أم شابة جميلة كأقصى مـا يكون الجمال ، مما جعل كل شهيد يتمنى أن يتزوج بها . وحين أحس زوجهـا بهواجس نفوس الشهداء ، رفع قضيته أمام محكمة الحب . إنه لا يحمـل حقدا ولا ضغينة على هؤلاء الذين ينافسـونه فى حب تلك الشهيدة العظيمة ، «فنحن فى الجنـة كلنا أخوة وأحياء» ، على حد قولـه . ولكنه يرى نفسه أحق بها من غيره ، فقد كان زوجها فى الحياة الدنيا .

وتنعقد المحكمـة برئاسـة أسماء بنت أبـى بكر، وعضويـة كل مـن رابعة العـدوية وليلى العامرية وغزالـة شبيب الخارجى ، ويصف قاعة المحكمة وصفا شاعريـا جذابا ، « حديقة واسعة الأرجـاء من الزهـور المنسقة ، ذات الألوان الفنية الفـاتنة . كل مقـاعدها ومكـاتبها وقاعـاتها قطعة فنية واحـدة منسوجة مـن الزهور، وقـد ظللتها قبة هـائلة من الـزهور ذات الألوان السماويـة الزرقاء ، تتخللهـا زهور بيضاء تشبـه النجوم وهـى تتحرك أحيانـا لتسلط أضواءها السحـرية على بعض الشخصيات التـى يتجه إليها الاهتمام . وقد انـدمجت وسط نسيج الزهور السماوية الـذى يكون سقف القبة ، طيور من كل شكل ولـون كأنها إضافات فنية» . وقد حضرت هـذه الطيور كما يحضر الجمهور المتفرج لتشهـد محاكمات الحب ، فهى فى الجنة معـدودة من المخلـوقات الواعيـة الناطقة ، لاسيما فى شئـون العلاقـات الجنسية» . (ص ١٩٣) .

وتفتتح السيـدة أسماء تلك المحكمـة « باسـم الله الذى جعـل الحب قوام الحيـاة ، وسر النظام والترابط فى الكون» . ثم يبسط الزوج دعواه ويشرح كل شهيد فكرته . وبعد مداولات ومناقشـات طريفـة ، تصدر المحكمة حكمهـا الرائع الـذى يعتبر انتصارا للحـرية والإرادة البشرية . تقول رئيسة المحكمة : « نحن قد تحولنا فى دارنا هذه تحولا تاما ، إلى مايشبه الطيور المتحررة المنطلقة الهائمـة ، تصنع الحياة الساميـة ، وتمارسها تلقائيا فى آمـادها البعيدة . دون قيود أو حـدود . وأحب أن أذكركم أيها السعـداء والشهداء ، أنه لا يوجـد فى دار الخلد إلا

شيء واحد مقدس هو الحيـاة . أما العبادة الوحيدة التي نؤديها ، فهي ممـارسة هذه الحياة ، بكل مـا فى طاقـاتنا من حـب وظمأ وانطلاق . وعلى ذلـك ، فنحن نعلـن فيما يتعلق بهذه القضية التى نحـن بصددها ، أن السيدة الأم العظيمـة حرة فى أن تتزوج من تشـاء ، وكيف تشاء ، وأن تتزوج أحـادا أو مئات أو ألوفا ، وليس هناك شـيء يحدد مشيئتها إلا مشيئتها . فباسـم الحرية الخالـدة فى جنة الخلـد ، أدعو السيـدة أم آل أبى الـدنيا أن تمارس حقهـا فى الاختيار لمن تشاء من الأزواج» . (ص ١٩٨) .

وبعد ذلـك الحكم ، اختـارت السيدة العظيمة شهيـدا قدم تضحيـات رائعة مـن أجل وطنه ، فأقبل جميع المنافسين له ، ومن بينهم الزوج ، يهنئونه ، دون أن يحملوا حقدا أو غلا . ثم توجـه الركب إلى « مقابر الأحيـاء» وهى مقابر ضمهـا الشهيد « أحمد حسن الحورس» ، وهو يقصد عمـلا فنيا خالصا يتسلى بـه ، ويمارس به حياة الوفـاء لبلاده وقضيته . والهدف من وراء هذه الفكـرة هو إبراز صورة فنيـة ، عن الشعب الذى أسلمـه للطغاة ، كما يقول . (ص ٢٢٤) . وجعل يـرمز بكل قبر إلى مدينـة معينة ، أو قبيلة ، أو شخص . ودعـا الفنان كثيرا مـن أصدقـائه الشهـداء . ليزوروا قبـور عائلاتهم أو مـدنهم ، ينـاجونهم بما يجيـش فى صدورهم من لوم أو عتاب أو توجيه . وإنه لشيء مثير أن تجوس خلال تلك المدينة « الحية الميتة» ، وأن تستمع إلى صوت المناجاة الذى يدعو إلى حفز الهمم . فعلى قبر صنعاء ، مثلا ، قرأ العزى مكتـوبا : « هذا قبر صنعاء العاصمة الأولى والـدفينة الأولى » . ورأى زائرا شهيدا يتمتم بكلام يقول فيه : « ياصنعاء ، يا مدينـة سام ، يا جوهرة يعبث بها فحام ، كان يمكن أن تكونى قطعـة من الجنة ، وعاصمة من أجمل عـواصم بلاد العرب . ولكن كـان من سوء حظك أن استولى عليك الزبانية ، فأشاعوا فيك روح جهنم من الرعب والإرهاب» .

ـ ٥ ـ

وحين لم يكتب النجاح لأول حـركة دستورية فى اليمن سنـة ١٩٤٨ ، لم يستطع الزبيرى أن يلجأ إلى البلاد العربية فى ذلك الحين ، فقد كان الحكـم الرجعى مسيطرا عليها . ويذكر فى مقدمة ديوانه « ثورة الشعر» أنهم كانوا يـرسلون الشكاوى إلى جامعة الدول العربية ، لكى تتدخل فى الحد من ظلم الإمام ، فكانوا يعيدونها إلى الإمام ، وعليها توصية بالشدة والحزم ، ولم يعرف لـه « ملاذا يومئـذ غير باكستان الـدولة الفتية التـى كانت محط كـل الآمال» ، كما يقول[1] . وهناك حـط رحاله ، وانصرف إلى قـراءة الكتب الـدينية والفلسفية ، وإلى تـأليف الشعر ذى الطابع الصوفى ، كما فى قصيدته « لحظات الإشراق الفنية» [2] ، والتى أنشدها فى

---

(١) ثورة الشعر : ص ١٥١ . (٢) صلاة فى الجحيم : ص ١٣ .

كوخ مظلـم بهاولبور ببـاكستان ، أو والى الشعر الـذى يقال فى المنـاسبات الـدينية ، كما فى قصيدته «مولد الرسول الأعظم»[1]، والتى أذيعت من محطة الإذاعـة الباكستانية . وانشغل إلى حد مـا عن القضية اليمنية . فقـد كانت اللغة ـــ كما يقول [2] ـ تقف حـاجزا بينه وبين شرح القضية اليمنيـة . وقد يجيش صـدره حين يسمع عـن إعدام الثوار فى اليمـن ، فيكتب قصيدة ، ويفكر فى أن يرسلها للثوار، فتضيع منه .

كانت باكستان يومئذ قد استقلت حديثـا عن الهند ، ومن الطبعى أن يردد الناس ـ وهـم فى فرحة الاستقلال ـ اسـم إقبال الذى دعا بحرارة قبل وفاته إلى إنشـاء دولة خاصة لمسلمى الهند ، والذى انتخب سنة ١٩٣٠م رئيسا للمؤتمر الـذى عقده حزب « الرابطة الإسلامية » ، والذى دعا إلى تقسيم الهند . وكان من نتائجه إنشاء باكستان سنة ١٩٤٧ .

وقد شارك الزبيرى فى فرحة الاستقلال ، وكتب قصائد ـ ضمنها ديوانه صلاة فى الجحيم ـ يعبر بها عن فـرحته باستقلال بـاكستان [3] . وكان يشيـد بالقائد محمـد على جناح[4]، ويردد اسم إقبـال ويعجب به [5]، وينشئ قصيدة يستقبـل بها الدكتور عبد الـوهاب عزام عند قدومـه سفيرا لمصر فى باكستان [6]. والدكتور عـزام مشهور فى العالم العربى بكتـاباته حول إقبال وبترجمته لكثير من كتبه .

ـ٦ـ

قد يجعلنا هذا نبادر فنحكـم بوجود تأثير وتأثر بين إقبال والزبيرى ، وبـأن رسالة الخلود أحـد مصادر روايـة « مأسـاة واق الواق» . وقـد يشجعنا على هـذا ، أن نقتنص الكثير مـن الظواهر المتشابهة ، فالصورة التى صورها إقبال للخائنين (جعفر البنغالى وصادق الركنى) ، اللذين تآمرا مع الإنجليز ضد الوطن ، وقد وضعهما فى زورق وسط بحر عاصف من الدماء (ص ٢٤٦) ، هذه الصـورة تشبه فى فظـاعتها صـورة الإمام ، وقـد وضعه الـزبيرى فى قاع رهيب سحيـق ، يموج بجحيـم يغلى ، وحوله جمع غفير مـن أتباعـه ، يتفرجـون على جثته

---

(١) صلاة فى الجحيم : ص ١٣ . (٢) ثورة الشعر : ص ١٥١ .

(٣) كما فى قصيدة : « استقلال الهند وباكستان» ، ص ١٦٧ .

(٤) كما فى قصيدة : « ميلاد القائد الأعظم الباكستانى محمد على جنـاح ، وقد كتبت للإذاعة الباكستانية فى ٢٥ من ربيع الأول سنة ١٣٧١ ، ص ١١ .

(٥) كما فى قصيدة : « بمناسبة العيد الأول لقيام باكستان، ص ١١٠ .

(٦) ص ، ١١٥ .

يقذف بها الـزبانية فى الجحيم فتغـوص (ص ١٣٦) . وروح الهند التى تظهـر لإقبال « فى جبينها نار ونور خالدان ، وعيناها تنطقـان بالسرور ، ترتدى رداء أرق من السحاب » ، تشبه روح لميس ، التـى تنبرى للزبيرى بين السحب وهى تنشـد الأشعار ، وفى سفينة تشبـه عش الطائر من بعيد ، وفيهـا أضواء لألاءة . وكلاهما ـ أى إقبال والزبيرى ـ يلتقى بجمال الدين الأفغانى ، ويطارحه الحديث .

إن كل هذا قد يجعلنـا نتصور من الوهلة الأولى ، وجود صلـة بين العملين ، ولكن هذا شىء لا نستطيع الجزم به ، فـالدليل المادى على وجود التأثير والتأثر غير متـوفر . فلم نسمع الزبيرى يتحدث عن رسالـة إقبال ، ولم تكن تلك الرسالة قد تـرجمت إلى العربية حتى وفاة الـزبيرى ، الذى كـان يشكو وهـو فى باكستـان من حـاجز اللغـة ، الذى يحول بينـه وبين التحدث مع الباكستانيين .

بل لعلى أميل إلى أن الزبيرى لم يتـأثر بإقبال فى روايته ، فإن شخصيتـه واضحة من أولها إلى آخرها ، ولم نتبين فيها أثر القراءات ، أو محاولة لنقل فكرة ، أو تقليدا لفلسفة ، وإنما هى الحرارة والمعانـاة بسبب مشكلات مـواطنيه . لقد أحس وهـو فى الغربة ، وفى شهـر رمضان الكريم ، وفى ليلة القدر المباركة ، بالحنين إلى أهله ، الـذين طال ابتعاده عنهم ، فقام برحلة روحية « يغسـل بها أو ضار قلبه » ، كما يقـول . وقد كتب هذه الـرواية بعد خبرة طـويلة فى العمل الوطنى ، وبعد أن مارس الكثير من الوسائل السلمية للتخفيف عن مواطنيه .

إنه يذكر فى مقدمة ديوانه : « ثورة الشعر » . أنه جرب استعطاف الإمام ، ومدحه بقصائد حاول مـن خلالها أن يشرح مآسـى المواطنين ، وأنه جرب وسيلـة الدين ، الـذى كان يتستر الإمام تحته ، ودعـا إلى إصلاحاته عن طريـق الدين ، حتى يقتنع بها المواطنـون . ولكن شيئا من ذلك لم يصلـح ، فالإمام ماض فى غلـوائه ، لا يقتنع بمديح أو استعطـاف ، والمواطنون ماضون فى سباتهم ، ولا يسمعون لصوت ، سوى صـوت الإمام . ولكن كل هذه المحاولات لم تذهـب عبثا ، فقد أعطتـه اليقين الثورى ، وأقنعته بـأن كل طريـق مسدود ، سوى طـريق الثورة .

ومن هنا جاءت الرواية تحمل أفكاره ، بعد تجربة طويلة ، وبعد تعثرات هنا وهناك . فهو يحاول فيها أن يستعرض تاريخ بلاده ، وأن يحلـل ثوراتها ، وأن يكشف عن أسباب فشلها ، وأن يضع يـده على عقد اليمنيين التـى ترسبـت خلال التـاريخ ، وأن ينـاقش الـوضع مـع الشهداء ، ثم أن يجتمـع بهم فى الجنة ، ويتداولوا الحالة ، ويضعوا الحلـول فى صورة « ميثاق شرف » تجتمع عليـه كل القبـائل ، ثم يعملون على « إلغـاء نظام الإمامـة ، وأن يستبدلـوا به نظاما يمثل الشعب على أسس ديمقراطية سليمة ، ويعيش فيه المواطنون على قدم المساواة ،

فى ظل وحدة شاملة، تفتح الإمكانية للسير فى طريق الوحدة العربية كأمل وهدف » . ثم سلموا هذا الميثاق إلى روح الزبيرى (العزى محمود) لكى يبلغه إلى الشعب نيابة عنهم، بعد أن قطع مرحلة كبيرة من النصح والوعى .

كان هذا حلما يحلم به الزبيرى فى ليلة القـدر، وقد أنهاه بدعواته بأن يحقق الله رؤاه . وأن يعود إلى وطنه فى موكب الأحرار. ولما يمض عامـان إلا وأجاب الله سؤاله ، وقامت ثورة ١٩٦٢ ، وعاد إلى بلاده ، يلثم ترابها ، ويقوم بواجبه نحوها ، ويطبق أفكاره بصورة عملية ، حتى استشهد سنة ١٩٦٥ ، ولحق برفاقه فى جنة الخلد .

ثم ـ وهذا هو الأهم ـ تختلف نقطة البدء عند كل من الشاعرين (إقبال والزبيرى) ، وقد ألقى هذا بظلاله على موقف كل منهما ، ورؤيته للأحداث ، ومراحل صعوده ، بل وعلى الصور الجزئية أيضا . فالدكتور إقبال فيلسوف درس الفلسفة فى جامعة كامبردج لمدة ثلاث سنوات ، وحصل على دكتوراه الفلسفة من جامعة « ميونيخ» بألمانيا ، وكانت له نظرة نحو الإسلام ، تكتشف فيه الإمكانات التى تجعله صالحا لسنة التطور. وكانت أفكاره تدور حول تلك النظرة ، التى شرحها مرة بطريقة عقلية فى كتابه « تجديد التفكير الدينى» (سنة ١٩٢٨)، ومرة ثانية بطريقة قلبية فى رسالته تلك (سنة ١٩٣٢م) .

إن رسالة الخلود ـ كما يدل عنوانها ـ هى رحلة نحو الله تكتشف إمكانيات الخلود ، وحين وصل إلى المقام الأعلى ، لم يفن فيه ، كما هو شأن أصحاب نظرية وحدة الوجود ، بل بقى ثابتا ، وعمل بنصيحة مرشده جلال الدين الرومى ، الذى قال له : « فلو بقيت ثابت الروع فى حضرة نوره ، فاعتبر نفسك حيا باقيا مثله . . وما من أحد يبقى رابط الجأش فى حضرته ، فمن استطاع ذلك ، فهو ذهب خالص كامل العيار» . (ص ٧٥) .

ثم عاد ليثبت أن الإسلام ليس فناء عن الحياة ، وليبلغ رسالته فى صورة نصائح يوجهها إلى ابنه ، باعتباره يمثل الجيل الجديد ، ومن هنا خضعت الرسالة لهذا المنحى ، فهى تهتم بالمسلمين وتتحسر على حالهم . وهى تصدر عن عقل صاحب فكرة وفلسفة ، تتبدى حتى فى الصور الجزئية ، فهو مثلاً يصف أوراق الشجر فى الجنة ، وأنها تتبدل «فى كل لحظة ألوانا أخرى بفعل الشوق إلى النمو» (ص ٢٨٧) .

ومن هنا ، تخلصت مرغدين ـ مدينته الفاضلة ـ من عيوب المجتمع الإسلامى المعاصر، ومن عيوب الحضارة الأوروبية بوجه عام ، فلا سلطان للمادة أو للآلة ، والجو نظيف من دخان المصانع ، والكل يعمل رغبة فى العمل ، وهو آمن من البطش والاحتكار. وهو لا يلتمس تلك المدينة فى عالم الأحلام ، بل يراها قائمةبالفعل فى عالم القرآن ، وكل ماتحتاج إليه هو أن نزيل عنها الغبار.

تماما كدينة ذى القرنين، والتى هى نتيجة سلوك وعمل، فقد أخذ ذو القرنين يسأل أهل المدينة عن السبب، الذى جعلهم يصلون إلى تلك المرتبة، وكانت الإجابة تشير إلى العمل والسلوك والأخلاق. وهى نابعة من روح الشريعة الإسلامية. فقد سألهم مثلاً: « فما بالكم لا تصيبكم الآفات كما تصيب سائر الناس؟ قالوا: لا نتوكل على غير الله، ولانعمل بالأنواء والنجوم».

أما الزبيرى ـ كما يدل عنوان روايته ـ فهو غير مشغول بأمور ميتافيزيقية، ولايفكر فى أحوال المسلمين عامة. إنه مهموم بقضية وطن ومواطنين، لايعرف العالم عنهم شيئا، وتظل هذه القضية تشغله طوال رحلته. ولقد اشترطوا عليه قبل أن يدخل الجنة ألا يتكلم فى السياسة، ولكنه رفض وصرخ فى وجه الشهداء إننى أخجل الآن لو دخلت الجنة، متخليا عن الرسالة التى ذبحتم أنتم من أجلها، وذبح سواكم من الشهداء الذين أنشد لقاءهم، وسيعذبنى هذا الخجل ويحرمنى طعم الجنة» (ص ٥٧). وراجعوا السلطات حتى تخلوا عن هذا الشرط، وسمحوا له بدخول الجنة، ولكن على شرط آخر، وهو ألا يذوق شيئا من طيباتها، ولو فعل فإنه سيبقى فى الجنة ولن يعود. وقد رحب بهذا الشرط، وحرص عليه، ووقف أمام كل المغريات، لأنه يريد أن يعود إلى وطنه ويكمل رسالته، وإذا كان آدم قد أكل فطرد، فقد كان عليه السلام مدفوعا بقوة وإرادة الحياة، وإرادة وضع البذور لتكوين الجنس البشرى. . . وهذه الإرادة نفسها، هى التى ينبغى أن تمنع العزى من قطف الثمرة، لأنها ستحول بينه وبين الاستمرار فى الحياة» (ص ١٥٨).

ومن هنا، حلم بجنة ـ مدينة فاضلة ـ وقد تخلصت من كل ما كانت تقاسى منه صنعاء فى ظل الإمام، فلا اضطهاد ولا قسوة ولا جبر، ويعيش الإنسان فيها طليقاً « كالطيور والنسائم والزهور المتلاقحة من غصن إلى غصن». وتلك تشبيهات أطلقها الزبيرى فى روايته. وهو يرى أن المدينة قائمة بالفعل ولكن فى العالم الآخر، حيث ينعم بها الشهداء. أما صنعاء والمدن اليمنية الأخرى، والتى تخضع للظلم فهى مدن ميتة بالفعل، وقد أقام لها فى الجنة متحفا بشريا، يدل على حسن تشكيلى عميق، وسماه « مقابر الأحياء».

ـ ٧ ـ

ذكر الزبيرى فى مقدمة « ثورة الشعر » أنه بدأ صوفيا، ثم عشق الأدب، ثم خاض السياسة. «فروحانيتى جنى عليها الأدب، وأدبى عوقب بالسياسة، فزجت به فى المعارك المريرة الطويلة المدة، وانتقمت منه شر انتقام. على أن هذه المراحل كلها، إنما تتباين هكذا فى مظاهرها السطحية، أما فى أعماق الواقع، فإنها مراحل متداخلة تسودها روح واحدة».



وهذا حق، فإنها صفات متداخلة، يخدم بعضها بعضا. لقد كانت السياسة هى الموضوع الرئيس الذى يشغله فى الجنة، وكان يبحث عن وطنه الضائع، كما كان إقبال يبحث عن وجه الله. ولقد صاح بأستاذه لكى يسرع بتلك الرحلة الروحية: « إننى مضطرم، كالجحيم، باللهفة إلى لقاء بلادى، فأسرع بى يا أستاذى وأطلق روحى من محبسها، فإنى أكاد أتمرد عليك وعلى جسدى، فأنطلق بلا منوم ولا تنويم». إن السياسة عنده كما قلت مرة « هى مزيج من الحب والفن، والمؤلف يتحدث عن قضايا بلاده، وكأنه يمارس تجربة وجدانية أو تجربة فنية»[1].

وأضيف هنا « أو تجربة صوفية »، فإن الفن عند الزبيرى تصوف وإشراق. يقول فى قصيدته « لحظات الإشراق الفنى »، يتحدث عن السعادة بتجربته الفنية:

خـذوا كل دنياكمو واتركوا فؤادى حرًّا وحيدًا غريبا

فإنـى أضخمكـم دولـة وإن خلتمونى طريدا سليباً

إنه يذكرنا بقول أحد الصوفيين ممن لا أذكر الآن اسمه: « نحن فى سعادة لو علم بها الملوك لقاتلونا عليها».

(١) اليمن الجديد: (مارس وإبريل سنة ١٩٧٦).

الفصـل الرابــع

جــريمة قتل

بين إليوت وعبد الصبور

دراسة مقارنة حول المواقف الأدبية

إليــوت

حيــاته :

ولد إليوت سنة ١٨٨٨ ، بولاية بوسطن، وهو سليل أسرة ، هاجرت إلى أمريكا ، وتميزت بتقاليـدها الدينية، وقـدرتها على الأعمال الإدارية . قضى ثمانيـة عشر عاما يدرس بجـامعة واشنطن ، ثم التحق سنة ١٩٠٦ بجامعة هارفارد، فأخذ يجد حتى استطاع أن يحصل على الليسانـس فى ثلاث سنوات . ثم حصـل على الماجستير فى السنة الرابعة . وبعـد أن التحق بالسـوربون لمدة عام، عـاد إلى جامعة هارفـارد، حيث أخذ يعـد لنيل درجة الـدكتوراه فى الفلسفـة . ذهب إلى ألمانيـا قبـل الحرب كأستـاذ زائر ، وفى السنة نفسهـا التحـق بجامعـة اكسفورد لكى يدرس الفلسفـة . تزوج سنة ١٩١٥ من سيدة لندنيـة، وأخذ يكسب عيشه من الدروس الخصوصية بمـدارس لندن . ثم التحق بالعمل بأحد البنـوك . وعمل مساعد رئيس تحرير مجلة Egoist فى الفترة من ١٩١٧ إلى سنة ١٩١٩ .

أصدر سنة ١٩٢٢ قصيدتـه الطويلة الأرض الخراب The Waste Land والمكونة من ٤٣٤ بيتا، وهى تتحدث عن استياء جيل ما بعد الحرب وعقم الحضارة المعاصرة . ويعتبرها بعض النقاد المحـافظين أمثال Megros ، أكذوبـة القرن، ولايتفـق آخرون ــ أمثال H.N. Tomlinson مع بعض اتجاهاتها . ولكنها على الرغم مـن كل ذلك، تعتبر حجر الزاوية فى الأدب العالمى، وتـرجمت إلى معظم اللغات الحيـة . أسس سنة ١٩٢٢ مجلتـه « الميزان» the Criterion ، التـى ظلت سبـع عشرة سنـة تمارس تـأثيرا واسعا على الأدب العـالمى . ولأن المجلة لم تحقق دخلا يكفى لصدورها ، فقد عمل محررا أدبيا لمؤسسة Faber and Faber . أصبح سنة ١٩٢٧ مواطنا إنجليزيا .

أخذ يبحث عن طـريق جديد بعد قصيدتـه « الأرض الخراب » . وأخيرا، وجده ولخصه فى العبـارة الآتيـة « كاثـوليكـى فى العقيـدة، محافـظ (كلاسيكـى) فى الأدب، ملكـى فى السياسة» . وأخذت أعماله الأدبية بعد ذلك تعكس انتماءه للكنيسة الإنجليزية . وأول عمل مسرحى له صدر سنة ١٩٣٥ ، وهو « جريمة قتل فى الكاتدرائية» Murder in the Cathe-dral . وتوالت مسرحيـاته بعد ذلك . وحتـى وفاته سنة ١٩٦٥ ، كتـب خمس مسرحيات ،

هى : جريمـة قتل فى الكاتدرائية، التئام شمـل العائلة ١٩٣٩م the Family Reunion حفلة كـوكتيل ١٩٥٠ The Cocktail party ، كاتـب الأسرار The Confidential Clerk، السياسى العجوز ١٩٥٨ The Elder Stateman .

توماس بيكيت :

ويهمنا هنا مسرحيته جريمة قتل فى الكاتدرائية، لأنها موضوع المقارنة مع مسرحية صلاح عبد الصبور «مأساة الحلاج».

وتدور مسرحيـة إليوت حول شخصيـة « تومـاس بيكيت» Thomas Backet ، التـى ينبغى أن نعرف شيئا عن تاريخ حياتها.

ولد بيكيت سنة ١١١٨، ودرس التعـاليم الدينية فى مدارس لندن وبـاريس، فقد كان والده فرنسـى المولد، ودرس أيضا الشريعة والقوانين المدنيـة فى إيطاليا وفرنسـا. لعب سنة ١١٥٢م دورا مهما، لكى يمنـع الملك « ستيفـن» من أن يتوج ابنـه. وقد رفعـه هذا فى عين هنرى، الـذى أصبح سنة ١١٥٤ هنـرى الثانى، فعينـه كبير مستشاريه (رئيـس الوزراء) ومعلما لابنـه « الأمير هنرى ». وقـد لعـب دوره البـارز فى البلاط، واكتسـب ثقـة واحترام الجميع، وزار بـاريس سنة ١١٥٨ ليلعـب دور الوساطة فى تـزويج الأمير هنرى، مـن ابنة «لويس» السابع ملك فرنسا. وقد نجحـت وساطته، وعاد بالأميرة معه. واشترك مع الملك هنرى فى حملة لتأديب «التولوز»، وقاد فرقة من الفرسان، وانتصر فى مبارزة فردية على فارس فرنسى مشهور. وعين سنـة ١١٦٣م كبير أساقفة كاتدرائية « كانتربرى »، وكـان هذا بداية مرحلـة جديدة، فقد استـن لنفسه قانونـا صارما، وأصبـح بيكيت، الذى كان يحيـا حياة البلاط والترف جادا. وبدأت الخلافات بينه وبين هنرى تزداد، وتعكس الصراع بين سلطة الكنيسة والسلطة الـدنيوية. وقد عارض الملك سنـة ١١٦٣، بخصوص فرض الضرائب، وتعتبر هـذه المعارضـة الأولى من نـوعهـا فى تاريـخ إنجلترا. وحين اشتدت الأزمـة بينهما، اضطر سنة ١١٦٤م للهرب إلى الخارج، وظل فى المنفـى حتى عاد إلى منصبه سنة ١١٧٠، بعد أن نجحت مسـاعى الصلح بينه، وبين الملـك. ولكن الخلافات عادت مـن جديد، وبلغت ذروتها فى موضوع الأساقفة، الذين عزلهم البابا من مناصبهم لأنهم اشتركوا فى عملية تتويج الأمير هنرى، كخليفة على العرش. فقد طلب الملك من بيكيت أن يعيدهم، ولكن بيكيت احتج بـأن هذا من سلطة البـابا، وليس من سلطتـه. وضاق الملك به. ويقـال إنه تفوه برغبته فى الخلاص منه. والتقط مجموعة من الفرسان هذه الرغبة وتوجهوا إلى بيكيت فى الكاتدرائية، وطلبوا منـه أن يذعن لأوامر الملك، وأن يعيد الأساقفة المعـزولين، فرفض من

جديد ، فهددوه بالقتل ، ولكنه قال إنه يقدم نفسه فداء لحقوق الكنيسة . وحذرهم من اللعنة التى ستحل عليهم ، إن هم أصابوا أحدا من شعبه بسوء . وأخيرا ، قتلوه داخل حرمه سنة ١١٧٠ وهو يؤدى صلاة المساء ، وأصبحت بقعته مزارا ، يؤمه الحجاج من كل مكان .

جريمة قتل :

وقد التقط اليوت هذه الأحداث التاريخية ، لكى يقدم مسرحية لمناسبة أعياد كانتربرى السنوية . وكانت المسرحية من فصلين تتخللها عظة دينية . يبدأ الفصل الأول بنشيد للجوقة (الكورس) يتنبئون بالمأساة التى ستقع ، ثم يدخل بيكيت الكاتدرائية منتصرا ، ويبدأ تعرضه للإغواءات ممثلا فى الشياطين الأربعة ، الأول ، يمثل حياة الدعة والرفاهية التى كان يحياها فى البلاط . والثانى ، يمثل القوة . والثالث ، يمثل المنفعة المباشرة ، أما الرابع ، فهو يمثل الرغبة فى الاستشهاد والبحث عن الخلود . وكان واضحا أن بيكيت قد طرد الشياطين الثلاثة الأولى ، أما الرابع والأخير فقد كان أخطرهم ، ولا يتبين موقف بيكيت إزاءه ، هل انتصر عليه ، أو استجاب له؟

أما الموعظة الدينية ، فهى تتحدث عن المغزى المسيحى ، وراء الاحتفالات بموت المسيح عليه السلام وبعثه فى وقت واحد ، وتستعرض شهداء الكاتدرائية ، وتومئ إلى أن شهيدا آخر ربما يأتى فى الطريق .

أما الفصل الثانى ، فيتم فيه اغتيال بيكيت ، بعد حوار بينه وبين فرسان الملك ، يصمم فيه بيكيت على أن يقدم نفسه كشهيد من شهداء كانتربرى .

التعليق :

وهذه المسرحية ، لاتعتبر من مسرحيات الشخصيات . وعلى الرغم من أن بطلها هو بيكيت ، فإنها لاتعنى بتحديد ملامح البطل ، ولا بتحليل نفسيته ودوافعه ، كما هو الحال عند هاملت مثلا ، ولكنها تركز على الفكرة التى اعتنقها البطل ، والتى هى وراء بواعثه .

والموضوع هنا ، ذو مستويات . فقد يكون ـ ظاهريا على الأقل ـ هو الصراع بين هنرى وبيكيت . وقد يكون هو الصراع بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية الذى بلغ أشده فى العصور الوسطى . وقد يكون هذا الصراع رمزا لصراع أشد ، بين القوة الغاشمة والمعتقد الدينى . ولكن كل هذا قد يكون خلفية ، لفكرة الاستشهاد التى سيطرت على توماس .

والبطل هنا ، ليس بيكيت فقط كما يخيل إلينـا ، فإن الجوقة تلعب دورا لايقل عن دوره ، وهى تصاحب الأحداث ، وتتنبأ بالمأساة، وتتحدث عن القدر.

ولعل البطـل الرئيس فى هـذه المسرحية هو القدر. وقـد اعترف إليوت نفسه فى أكثـر من مناسبـة ، بأن هذه المسرحية ينقصهـا ما هو معـروف فى المسرحيات التقليدية مـن التسلسل المنطقى للأحـداث ، نتيجة للبناء المعروف الـذى يعتمد على "motive - act - result" ، وإن المسرحية كلها معلقة بيد الله . وهذا ما يفسره قول بيكيت نفسه فى المسرحية :

وما هـى إلا هنيهـة ، حتـى يحلـق الصقـر الجائع
ويـرفـرف ، ثـم ينقـض ، منتهـزا فـرصتـه . وسـوف
تكـون النهـايـة هينـة ، مبـاغتـة ، وكـأنها
منحة الإله .

وينبغى ألا نقرأ هذه المسرحية ، كما نقرأ المسرحيات التقليدية ، وإلا سنجد فيها هبوطا فى الحدث وعدم ترابـط الأفعال ، ونجد أن الشخصيات غير مبررة بـدرجة كافية . وقـد اقتنع بعض النقـاد بهذه القراءة الظـاهرية ، فحشـد للمسرحية الكثير مـن أمثال هـذه العيوب . ولكن ينبغـى أن نقرأهـا من زاويـة أن شكلها يتطابـق مع مـوضوعهـا . وهنا ، يظهـر تفرد إليوت ، فقد جعل المسرحية تبدو صورة للقدر، وحشد لذلك كل طاقاته وفلسفته وقراءاته . أفاد مـن الكورس الإغـريقى ، الـذى يرمز إلى حتميـة القدر. وأفـاد من شكـل المسرحيات الدينية المعروفـة فى العصور الوسطى . وأفاد من التراجيديا الإغـريقية ، وبنوع خاص أعمال إسخيلوس . وأضـاف إلى كل ذلك مـن عقائده وفنه ، مـا جعل فيهـا الشكل يتلاحـم مع المضمون ، فيجسدان معا صورة القدر.

لقد ذكـر إليوت فى حديـث إذاعى له ، وهو يعلـق على روايات « تشارلـز وليم » ، أن فى حياة كل منا لحظات روحية لايستطيع أن يعبر عنهـا بالكلمات . وقد سئل فيما إذا كان معنيا فى رباعياته " Four Quartets " » بالبحث عن إلهام روحى ، أجـاب بأنه لم يكن مشغولا بذلك أثناء الكتابة . فقط ، كان يبحـث عن « لغة مساوية لتجربة صغيرة كان يحس بها » . وحين تحدث عن « جـون مارستـون» ذكر أن فى حيـاة كل منـا لحظات غير عـادية ، تنتـابنا فجأة ، ثم تتضـح فى نفوسنا فجأة أيضـا ، وكأن شعاعا مـن ضوء الشمس قد كشفهـا لنا ، وهو ما كان يسميـه القدماء « القدر» ، وهى الكلمة التى أكسبتها المسيحيـة رهافة ، وقلت أهميتها فى العصر الحديث أمام الضغوط النفسية والاقتصادية .

وقد اتخذ بعض النقاد من تعبير « شعاع من ضوء الشمس» "Ashaft of Sunlight " ،

رمزا لتلك اللحظات المتناثرة فى مسرحية « جريمة قتل فى الكاتدرائية ». فالكورس مثلا يحس بالمجهول، ويحس بالقدر معلقا بيد الله الذى يشكل ما لم يتشكل بعد. لقد انكشف لهم كل ذلك أمام شعاع من ضوء الشمس.

Destiny waits in the hand of God.

Shaping the still unshapen.

I have seen these things in a shaft

of Sunligt.

(See : Twentieth Century interpretation of Murder in the Cathedral, P. 97.)

وتكشف الناقدة باتريشيا (Ibid, P. 73) عن نجاح إليوت فى وقوعه على شكل يتلاءم مع المضمون، فتقول: « وقد تعمد إليوت، وعن قصد، أن يضحى بما هو معروف عن بيكيت من حرارة وحيوية ونزعة ساخرة، لكى يركز على مفهومه الدينى للقديسين والشهداء، لقد كان إليوت معنيا بإظهار العلاقة بين الله والإنسان، ليست فى القرن الحادى عشر فحسب، بل فى القرن العشرين أيضا. وهذا ما شكل نظرته نحو حياة بيكيت وموته. إن مسحة من الهواء الواهن تتحرك بين الأعمدة العتيقة، فتختفى الأشكال الإنسانية. وكذلك، تبدو المسرحية فاترة وشفافة. من النادر أن تجد عملا فنيا كهذا، يعبر شكله عن مضمونه. إن المسرحية نفسها من فصلين تتخللهما الموعظة الدينية، تماما كالكاتدرائية، التى أسست على ثلاثة مستويات. وللمسرحية مثل ما للكاتدرائية من وضوح فى التصميم، ومن العقد المتشابكة، ومن الشكل المتماثل، وقبل كل شىء من «الحتمية»، التى تفرض عليك، حين تدخل من باب «الكاتدرائية» الغربى والعظيم، وحين تنظر إلى الأقواس المرتفعة فى قاعة المصلين، وحين تنظر إلى أماكن الجوقة « الكورس» حيث تتراقص الشموع أمام الهيكل المرتفع ».

وقد أكد الناقد كارول . هـ . سميث (Ibid, P. 82) هذا الشكل الأصيل، الذى يراه امتدادا وتطويرا لأفكار مسرحية قديمة، تدور حول الشعائر الدينية وتتخذ من صلب المسيح عليه السلام وبعثه موضوعا لها. ويبدو هذا واضحا من التناظر الشديد بين شخصيتى الشهيد والمسيح عليه السلام، باعتبار أن كلا منهما يمثل الضحية، التى تقدم نفسها خلاصا للبشرية، ويأخذ فى شرح ذلك التناظر، راجعا إلى موعظة بيكيت، التى تتخلل الفصلين، والتى يقارن فيها بين نفسه وبين شخصية المسيح عليه السلام. ثم إن

دخوله للمدينة يشبه دخول المسيح عليه السلام، وكذلك شيطانه يشبه شيطان المسيح عليه السلام.

ومعظم النقاد يتفقون على الفكرة العامة للمسرحية، وهي فكرة الاستشهاد بالمعنى المسيحي القديم، ولكن الناقد «ماكوبى» (ilid., P. 93) له رأى آخر، يقدمه من خلال تفسيره للشيطان الرابع، فيقول : لماذا قال الشيطان الرابع لتوماس. «أنت تعرف ولا تعرف ما الفعل وما المعاناة»؟ يبدو أن النقاد يميلون إلى أن هذا التعبير إنما هو سخرية من توماس. إنه يرد عليه جملته كما قال جونز، أو نصيحته ترد ضده كما قال نيفيل كوجيل، (وكان بيكيت قد قال تلك الجملة عن الجوقة)، فهم يميلون إلى أن هذه العبارة من باب النقد اللاذع، فالشيطان يريد أن يبين لتوماس أن الفعل النزيه شيء مستحيل، وأنه فوق طاقة النوع البشرى، حتى الشهادة نفسها لا تخلو من المصلحة الذاتية. ولكن هذا التفسير يبدو متعسفا، وربما كان من المستحيل على الممثل أن ينقل هذا المعنى، فالإيقاع بطيء والخطبة طويلة، لاتتناسب وهذا التفسير. إن القراءة الواعية تكشف عكس هذا المعنى، وتثبت أن تكرار هذه الجملة ربما يلخص فحوى كلام الشيطان الرابع، فإنه لايسخر بل يعلم، ولا يهزأ بل يشجع، تماما كما كان توماس يشجع عجائز كانتربرى، حين خاطبهن بهذه الجملة.

حقا فى هذه الجملة سخرية من نوع آخر، إنها ليست سخرية لوم أو شك، ولكنها سخرية من المعلم الذى يصبح الآن تلميذا. وحين ألقى توماس لأول مرة بهذه الجملة، كان هناك نوع من التعالى والسخرية من العجائز، اللاتى يدركن بفطرتهن، ما لم يستطعن التعبير عنه بطريقة دقيقة. والآن، فإن المعلم الساخر « توماس» يعبر بطريقة دقيقة، عما لايستطيع أن يدركه بفطرته. إنه يعرف ولا يعرف. يعرف ما لا يعرفه العجائز، ولا يعرف ما عرفنه. إن الشيطان يطلب منه أن يواجه بواعثه بكل ما فيها من قبح، ثم يتطهر منها. إنه يضعه أمام وحشية رغباته بصورة عارية . . . وهناك مايكفى ليبين لنا أن الشيطان الرابع يمثل الشيطان نفسه. إنه يقول « أنا أستطيع أن أقدم ماترغب فيه، وأسألك ما الذى يجب أن تعطيه». إنه هنا يتحدث بلغة « مفيستو فوليس» أمام « فاوست»، بينما يمثل الشياطين الثلاثة كائنات حية، ذات ملامح شخصية، إلا أن الشيطان الرابع شيء خارق، يثير مسحة من الرعب والإغراء فى آن واحد.

ويبدو أن إليوت قد ركز على فكرة أن الشيطان خادم الرب، وهى فكرة يهودية أكثر منها مسيحية. وقد فرض هذا على توماس شيئا من الاشمئزاز، يمكن أن يعتبر اشمئزازا ذاتيا، فجعل الشيطان يغريه بأفكاره التى لم يكن يرغب فى معرفتها، أو فى بيان كنهها، أو أيها

يمكن أن يقبل ، أو أيها يمكن أن يرفض . لقد أمسك الشيطان الرابع بحقيقة الموقف ، التى لم يدركها الثلاثة الآخرون ، الذين ظنوا بسذاجة أن توماس يمكن أن يغوى . ومن ثم ، فإن توماس حين عرف العبثية وقع فى اليأس ، وشك فى إمكانية التسويغات البشرية ، وصاح « ألا أستطيع أن أمارس أو أعانى بدون هلاك؟» . إن الشيطان يذكره بالتحليل ، الذى قدمه توماس نفسه عن معنى الممارسة والمعاناة . إن الاعتراف بالذنب يجب أن يسبق الخلاص . وإن يأس توماس يتطابق مع يأس الجوقة فيما بعد . إن توماس لايزال متطلعا ، لأنه يظن أن قدره بيده . إن الاقتناع بالعجز يصاحب الاقتناع بالذنب ، وهذا العجز يمثل القاعدة الأساسية للتجربة الحقيقية الصادرة من الإرادة الحرة ، والتى تتطابق مع الخطة الحتمية للإله .

تلك هى الرسالة التى أراد أن يبلغها الشيطان الرابع . وحين أفضى بها ، اعتبر رسول الرب ، وأثار الرحمة السلام ، أكثر مما أثار الشر . أو على وجه الدقة ، هو الشيطان الذى يخدم الرب ، والذى يستخدم الإغراء لكى يوقظ فى الإنسان المعرفة بطبيعته الخاصة .

الترجمـــة :

وقد ترجم صلاح عبد الصبور هذه المسرحية تحت عنوان « جريمة قتل فى الكاتدرائية» (من المسرح العالمى - يناير ١٩٨٢م) . والوقوف عند الترجمة مهم فى ميدان الأدب المقارن ؛ فإن أخطاء المترجم ، إن وجدت ، ذات دلالة وتكشف عن مدى التأثر بين الجانبين ، وهل الأخير نقل من الأول حرفيا ، أو أنه تأثر بالروح العام .

وصلاح عبد الصبور متفهم لإليوت ، ويستطيع أن يدرك مراميه ، وأن يلتقط إشاراته . فهو شاعر مثله ويتراسلان بلغة يدركانها تماما . وهذا هو السر وراء توفيق عبد الصبور فى تلك الترجمة ، وبخاصة فى صياغة إشاراته . وذلك على الرغم من التباعد بين اللغتين ، اللتين تنتمى كل منهما إلى ثقافة تختلف عن الأخرى . والأمثلة على نجاح عبد الصبور فى هذا الجانب أكثر من أن تحصى يكفى أن نشير إلى مثل واحد .

يقول إليوت :

What a way to talk at such a juncture!

You are foolish, immodest and babbling women.

Do you not know that the good archbishop is likely to arrive at any moment?

The Crowds in the streets will be cheering and Cheering.

You go on crooking like frogs in the treetops!

But frogs at least can be cocked and eaten.

Whatever you are afraid in your

Craven app Sehension, let ,me ask you at the least to put on Pleasant faces, and give a hearty welcome to our good archbishop.

وقد حرص عبد الصبور على روح هذا الأسلوب الذى يبدو سهلا عاديا ، ويحتفظ فى الوقت نفسه بالطابع الشعرى ، فترجمها كالآتى :

يا لها من طريقة فى الحديث فى مثل هذا الوقت الحرج !

إنكن نسوة حمقاوات ، ثرثارات ، بلا حياة !

هل تعلمن أن كبير الأساقفة الطيب قد يصل فى أية لحظة ؟ !

وأن الجمع فى الشوارع ستهلل وتهلل ،

بينما أنتن ترسلن النقيق كالضفادع فى قمم الأشجار؟ ولكن الضفادع ـ على الأقل ـ قد تطبخ وتؤكل .

مهما يكن ما تخفن منه ، وفقا لإدراككن الخائر ،

فإنى أسألكن ـ على الأقل ـ أن تبدين وجوها مبتهجة ،

وأن ترحبن من قلوبكن بكبير الأساقفة الطيب .

ومع ذلك ، فقد كانت هناك تحريفات فى الترجمة ، يرجع معظمها إلى النقل الحرفى من القاموس ، دون استشارة أية تفسيرات أو شروح للمسرحية .

يقول أليوت :

Had fair crossing , found at Sandwich Broc, Warenne and the Sheriff of kent those who ahd sworn to have my head from me.

وقد ترجمها عبد الصبور كالآتى :

وعبرت البحر سالما ، ووجدت فى ساندوتش بروك ، ووارن ، وشريف كنت قوما أقسموا أن ينزعوا رأسى عن جسدى .

وأظن أن الترجمة تكون أدق ، لو كانت :

وعبرت البحر سالما ، فوجدت فى « صاندويتش » بروك ، ووارن ، وشريف كنت هؤلاء الذين تعاهدوا أن يفصلوا رأسى عن جسدى .

صلاح عبد الصبور

حيــاته :

ولد عبد الصبور سنة ١٩٣١ ، بمحافظة الشرقية بمصر، وتخرج فى قسم اللغة العربية ، بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة. عمل أولا بوزارة التربية والتعليم ، ثم انتقل إلى الصحافة ، فعمل محررا بروز اليـوسف . ساهم فى الكتابة لعـديد من الصحف ، المصرية والعـربية من أهمها : الآداب ـ روز اليوسف ـ صباح الخير ـ الشعب ـ المساء ـ الكاتب ـ المجلة ـ الأهرام ـ الدوحة .

اشترك فى كثير من الأعمال الحكومية ، كان آخرها رئيسـا للهيئة المصرية العامة للكتاب . توفى سنة ١٩٨١ .

أصدر ستة دواوين ، واثنى عشر كتابا ، وأربعة أعمال مترجمة ، وكثيرا من المقالات .

أصدر أيضا خمس مسرحيات شعرية هى : مأساة الحلاج (عام ١٩٦٤م)، مسافر ليل (عـام ١٩٦٩م)، الأميرة تنتظر (عـام ١٩٧٠م)، ليلى والمجنـون (عام ١٩٧٠)، بعـد أن يموت الملك (عام ١٩٧٣م).

الحـلاج :

أما مأساة الحلاج ـ موضوع الدراسة ـ فهى تدور حول الحسين بن منصور الحلاج ، الذى ولد فى منتصف القرن الثالث الهجرى (عام ٨٥٨م) بفارس . عاش فترة فى دير، وذهب إلى مكة ، ثم عاش فى بغداد حتى صلب سنة ٣٠٩هـ (٩٢٢م) بتهمة الزندقة .

والقارئ لكتـاب « أخبار الحلاج» يكتشـف شخصية غير سـوية ، تظهـر عليها سمات المرض النفسى والعصبـى : « ثم زعق ثـلاث زعقات ، وسقـط وسال الدم مـن حلقه» ص ١٧ . « وكانـت عيناه فى خلال الكـلام تقطران دما» ص ٢٤ . « ثـم بكى حتى أخـذ أهل السـوق فى البكاء ، فلما بكـوا عاد ضـاحكا وكـاد يقهقـه ، ثم أخـذ فى الصياح صيحـات متواليـات مزعجـات . » ص ٥٤ . « فإذا به جـالس على صخرة والعـرق يسيل منـه ، وقد ابتلت الصخرة من عرقه . » ص ١٠٤ .

وتظهره تلك الأخبار ساعيا نحو الموت، لا من أجل قضية فكرية أو سياسية، وإنما لكى ينال عطف العامة وخلود الذكر. «وكيف أنت يا إبراهيم حين ترانى،، وقد صلبت وقتلت وأحرقت، وذلك أسعد يوم فى أيام عمرى جميعه.» ص ١٥. «حضرت الحلاج يوم وقعته، فأتى به مسلسلا مقيدا وهو يتبختر فى قيده وهو يضحك.» ص ٣٤. «فاجتمع عليه خلق كثير، فمنهم محب، ومنهم منكر، فقال: اعلموا أن الله تعالى أباح لكم دمى، فاقتلونى... فاقتلونى تؤجروا وأستريح... ليس فى الدنيا للمسلمين شغل أهم من قتلى.» ص ٧٥. «قدم الحلاج للقتل وهو يضحك. فقلت: ياسيدى، ما هذا الحال؟ قال: دلال الجمال، الجالب إليه أهل الوصال.» ص ١٢٣.

وتبدو شطحاته غامضة، ويخيل لى أنه يتعمد ذلك لكى يثير فضول العامة. وحين كانوا يسألونه عن مغزاها كان ينهرهم وأنها فوق إدراكهم. وتحمل شطحاته تجديفا. كان يثير علماء الشريعة، الذين يجدون منه خروجا على حدود الدين. ومن ذلك:

«جنونى لك تقديس وظنى فيك تهويس» ص ٢٩

«يا ولدى ستر الله عنك ظاهر الشريعة، وكشف لك حقيقة الكفر، فإن ظاهر الشريعة كفر خفى، وحقيقة الكفر معرفة جلية... وإياك والتوحيد.» ص ٦٢. «ثم احمرت وجنتاه، وقال: أقول لك مجملا. قلت بلى. قال: من زعم أنه يوحد الله فقد أشرك» ص ٧٤. «ففى دين الصليب يكون موتى. ولا البطحا أريد ولا المدينة» ص ٨٢. «كفرت بدين الله والكفر واجب لدى، وعند المسلمين قبيح.» ص ٩٩.

وكل هذا يفسر موقف القدماء من ابن الحلاج، فقد اعتبروه ملحدا زنديقا، من أصحاب نظرية «وحدة الوجود» واتهموه بالشعوذة والتدجيل، ونسبه الجنيد «إلى السحر والشعوذة والنيرنج» ص ٩٢.

التصوف الإسلامى:

إن الناظر فى الفكر الإسلامى، يتبين نوعين من التصوف، يختلفان باختلاف مفهوم العلاقة بين عالم الأمر (الله) وبين عالم الخلق (الإنسان).

فالنوع الأول، يلغى «الاثنينية»، ويجعل العالمين عالما واحدا، فقد حل الله فى الوجود، فليس هناك إلا حقيقة واحدة، أو كما يقول الدكتور أبو العلا عفيفى عن ابن عربى: «فليس فى الوجود فى نظره إلا حقيقة واحدة، إذا نظرنا إليها من جهة سميناها حقا وفاعلا، وإذا نظرنا من جهة أخرى سميناها خلقا وقابلا ومخلوقا» (فصوص الحكم ص ٨٠ – التعليق).

أما النـوع الآخر ، فهو يحتفـظ لكل عالم بـاستقلاليته ، ولكـن بينهما صلة من نـوع ما ، تسمـى وحدة المشـاهدة . وهـذا النـوع ، لا يؤمـن بفكـرة الفناء فى الله ، وطـرح التكاليـف والمسئولية . إنـه يؤمن بالبقـاء . وحين وصل النبى ﷺ فى معراجـه إلى المقام الأعلى ، لم يفن فيه ، بـل عاد ليكمل الـرسالة ، وكـذلك كان السلـف الصالح يـؤمنون بوحـدة الشهود ، ويحسون بالله فى كل شيء ، ولكنهم لا يلغون عالم البشرية .

ويشير نيكلسون إلى هـذين النـوعين ، فيقول : « ولكـن للفناء عنـد متصوفـة المسلمين ناحيتين : ناحية سالبـة ، وهى التى تكلم فيها فى القرن الثالث الهجـرى أبو زيد البسطامى الفارسى المعروف . وناحية موجبة ، وهى التـى تكلم فيها أبو سعيد الخراز ، وتكلـم فيها من بعده الصـوفية المتمسكـون بظاهـر الشرع . وأعنى بـالجانب الإيجابـى من الفنـاء مايسميـه الصوفية بـالبقاء . فالغاية الصـوفية عندهـم ليسـت هى الفناء عن النفس وأوصـافها ، بل البقاء بالله وأوصافه . » (فى التصوف الإسلامى ص ١١٨) .

والنوع الأول من التصـوف (وحدة الوجود) غريـب عن البيئة ، وعن المفهـوم الإسلامى للعلاقة بين الله والإنسان ، فهو قد يعود إلى أفكـار مسيحية عن اتحاد الناسوت واللاهوت ، أو إلى تأثيرات هنديـة ويونانية (فى التصـوف الإسلامى ص ١٠٤) ، أو إلى تأثير الكتـابات الهلينية المتأخرة المتأثرة بالفلسفة الهرميسية (فصوص الحكم ص ١٩٣) .

وهذا هو السبب فى أن القدماء ، الذين يمثلون الفكر الإسلامى ، قد وقفوا موقفا معاديا لأصحاب وحدة الـوجود ، يقول ابن تيمية : « وهـؤلاء يجعلون سبحانه وتعـالى موجودا فى نفس الأصنـام وحالا بها ، فهـم لايريـدون بظهوره وتجليـه فى المخلوقـات ، أنها أدلة عليـه وآيات له ، بل يريدون أنه سبحانه وتعالى ظهر فيها وتجلى فيها ، ويشبهون ذلك بظهور الماء فى الصوفة ، والـزبد فى اللبن ، والزيت فى الـزيتون ، والدهن فى السمسم ، ونحـو ذلك مما يقتضى حلول نفس ذاته فى مخلوقاته ، أو اتحاده فيها ، فيقولون فى جميع المخلوقات ، نظير ما قـالته النصـارى فى المسيح خـاصة » (تفسير سـورة النور ص ١١٠) . والغـزالى يحكم بـأن الواجب قتلهـم ، وتطهير الأرض منهـم وسفك دمـائهم (فضائح الباطنية ص ١٥٦) . وابن القيم يراهم أعظم الناس كفرا (مدارج السالكين ٣/ ٢٦٥) .

مأساة الحلاج :

لم يختر إليـوت شخصية بيكيـت عبثا ، فـأى زائر لكاتـدرائية كـانتربرى يـدرك للوهلـة الأولى ، أن هذه الشخصيـة جزء رئيس مـن تاريخها ، يتمثل فى الأمـاكن التى عـاش فيها ، وقصته المسجلة صوتيا ، والصور ، والكتب ، والأشياء التذكارية ، لقد أصبح بيكيت ـ كما

أراد ـ شهيدا آخر فى سلسلة الشهداء ، أو كما قال القس الثالث ، وهو ينهى المسرحية «فالحمد لله الذى قد وهبنا شهيدا آخر من شهداء كانتربرى» . ثم إن الكاتدرائية فى الكنيسة الإنجليزية هى كالأزهر الشريف فى مصر. فالحديث عنها ـ من خلال أهم شهدائها ـ هو حديث عن تاريخ الكنيسة الإنجليزية ، وتفسيرها لموت المسيح وبعثه ، ذلك التفسير الذى لخصه بيكيت فى الموعظة الدينية ، التى تخللت الفصلين . وكل هذا فى الوقت نفسه يعكس عقيدة إليوت ، ونظرته للوجود منذ أعلن انتماءه للكنيسة الإنجيلية فى بيانه الشهير، . فاختياره إذن لبكيت ليس عبثا ، بل هو يعكس موقفا وتاريخا .

فهل كان اختيار عبد الصبور لشخصية « الحلاج» اختيارا مقصودا ، لكى يحمل فلسفة التراث العربى الإسلامى ، ويعكس موقفه من هذا التراث؟

يذكر عبد الصبور أن لمقال ماسينيون عن « المنحنى الشخصى فى حياة الحلاج» ، ولكتاب « أخبار الحلاج» الذى حققه ماسينيون ، وعلق عليه بول كراوس ، أكبر الأثر فى لفته « إلى سيرة هذا المجاهد الروحى العظيم» كما يصفه (انظر تذييل المسرحية) ، وأضيف الآن أن « جريمة قتل فى الكاتدرائية» ، هى التى أوحت إليه بهذا التفسير الغريب لشخصية الحلاج .

وصلة عبد الصبور بمسرحية إليوت صلة مبكرة . فقد تحدث عنها فى تذييل مسرحية «مسافر ليل» حديث إعجاب ، فقال : « بل فى ظلال المؤلف الواحد ألوان من الاختلاف ، كما هو الشأن فى إليوت ، فإن « جريمة قتل فى الكاتدرائية» مسرحية مكثفة ، غنية بالإيقاعات ، جليلة بشخصياتها المنمذجة . بل هى عودة بالمسرح إلى حالته الأولى ، كطقوس كلامية ومصاحبة للطقوس الحركية ، بينما يحاول إليوت فى مسرحياته التالية ، وبخاصة « حفلة الكوكتيل» وما بعدها . أن يجعل من الشاعرية إطارا عاما للعمل الفنى ، مع قدر قليل من الإيقاعات يهب اللغة نفحة من السمو، تخفى أحيانا حتى ليخفى على المتفرج أنه يسمع شعرا» . ثم نقل هذه المسرحية إلى اللغة العربية ، وظهرت بعد وفاته فى سلسلة «من المسرح العالمى» يناير سنة ١٩٨٢ . وكان قبل ذلك قد ترجم أيضا « حفلة الكوكتيل» (سنة ١٩٦٤م) .

كتب عبد الصبور «مأساة الحلاج» فى فصلين : الفصل الأول بعنوان «الكلمة» ، وقد ألقى الحلاج بخرقة الصوفية ، وخرج إلى الناس يعظهم ويحرضهم ، وجعل يفسر الصوفية ، تفسيرا إيجابيا ، يقترب إلى «الفكر الإسلامى » الذى يعنى بأن نحقق فينا أسماء الله الحسنى .

« الله قوى يا أبناء الله

كونوا مثله

الله فعول يا أبناء الله

كونوا مثله» .

وينتهى هـذا الفصل بمـوعظة للحلاج، كشـف فيها عن مـوقفه الإيجابـى، المتمثل فى انحيازه للجموع، ضد السلطة والحكام. وقـد ظهرت الموعظة فى أسلوب أقرب إلى أسلوب المواعظ الدينية القـديمة. وكل هذا يشبه إلى حد ما موعظـة بيكيت، التى تخللت الفصلين والتـى تحدث فيها عـن تفسيره لموت المسيح وبعثـه، وبـأسلوب شبيـه بـأساليـب الوعـظ الكنسى.

أما الفصل الثـانى، فقد كان بعنوان «الموت» وأبـرز ما فيه تلك المحاكمـة، التى جرت بطريقة ساحـرة تذكر بالمسرحيات الكلاسيكية، ويـدور فيه الصراع بين قوتين: إحداهما، ويمثلها القاضى أبو عمرو الذى يحاول أن يستثير العامة، ويحرضهم على الحلاج:

والآن . . . امضوا، وامشوا فى الأسواق

طوفوا بالساحات وبالحانات

وقفوا فى منعطفات الطرقات

لتقولوا ما شهدت أعينكم

قد كان حديث الحلاج عن الفقر قنـاعا يخفى كفره (ص ٢٥١). أما الأخرى، فيمثلها القاضى ابن سريج، الذى يكشف حقيقة المحكمة، وأنها تريد أن تشوه صورة الحلاج أمام العامة لكى تحد من تأثيره، فيقول (ص ١٩٢).

«بل هذا مكر خادع

فلقد أحكمتم حبل الموت

لكن خفتم أن تحيا ذكراه

فأردتم أن تمحوها

بل خفتم سخط العامة ممن أسمع أصواتهم من هذا المجلس.

فاردتم أن تعطوه لهم مسفوك الدم، مسفوك السمعة والاسم».

انخدع الجمهور بهذه الحيلة واشتركوا فى قتل الحلاج.

«قالوا: صيحوا زنديق كافر

صحنا . . زنديق . . كافر

قالوا: صيحوا فليقتل، إنا نحمل دمه فى رقبتنا

فليقتل : إنا نحمل دمه فى رقبتنا» ص ١٦ .

والفصل الثانى فى مسرحية إليوت عن استشهاد بيكيت ، وتسيطر عليه أيضا قوتان ، عساكر الملك الذين يحاولون بعد قتلهم لبيكيت ، أن يبرروا فعلتهم أمام الجمهور، وأن يشوهوا دوافع بيكيت ، وأنه أراد أن يتبنى سلطة فوق سلطة ملكهم ، بل ذهب إلى أن السلطة الدينية لاتتفق مع السلطة الزمنية . يقول أحدهم : « لعلكم تتفقون معى أن مثل هذا التدخل من كبير الأساقفة يثير مشاعر أناس بسطاء مثلنا . إننا نقرأ فى وجوهكم أنكم تحبذون فعلتنا . لقد خدمنا مصالحكم . ، إننا نستحق رضاكم . وإذا كانت هناك جريرة ما ، فأنتم شركاؤنا فيها» .

أما القوة الأخرى ، فهم القساوسة الذين أخذوا يمجدون بيكيت ويقدرون تضحيته . يقول أحدهم : « إن الكنيسة سوف تقوى بهذه التضحية ، وتتغلب على أعدائها، وتصبح قوية محصنة مادام الرجال يضحون من أجلها» .

ولكن إليوت لا يتحدث عن موقف إيجابى للنظارة ، إلا أن الناقد دافيد .ا. جونز تحت عنوان "The temptation of the audiece" ، يذكر أن حديث القتلة أمام النظارة ليس مقحما كما يظن البعض، بل هو يمثل إغراء لهم، مساويا للإغراء الذى تعرض له بيكيت من الشياطين . إنهم يحاولون أن يشوهوا تضحيته، ويستخدموا ببراعة ــ وبلغة لاتتفق وقرنهم الثانى عشر ـ أساليب السياسة الحديثة ، لكى يجعلوهم يتقبلون فعلتهم ويشعروهم بالمشاركة فى الجريمة . ولكن المسرحية لم تنته عندما طلبوا منهم أن ينصرفوا إلى بيوتهم آمنين لقد اكتسب النظارة شيئا، وأحسوا بشعور مخالف تماما لما أراده القتلة . إن ما اكتسبوه هو شيء روحى أكثر منه شيئا سياسيا ، وكان بفضل معاناة توماس . إن ما لا حظه توماس من قبل عن حالة الحزن والبهجة التى تأتى نتيجة استشهاد القديسين، والتى هى واضحة فى ذكرى ميلاد وآلام السيد المسيح ، إن تلك الحالة قد تحققت كاملة فى حالة استشهاد توماس أيضا .

وموقف الجوقة فى نهاية المسحرية ، يؤيد تلك الفكرة . فقد أخذوا يغنون ترنيمة الشكر بأسلوب كنسى : « نحمدك على نعمتك بأن جعلت الدم يسيل فداء للناس ، نحمدك من أجل دماء الشهداء والقديسين ، التى سوف تثرى الأرض ، وتزيد البقع المقدسة ، نحمدك من أجل قديس قد وهبته لنا ، أو شهيد قدم دمه فداء لدم المسيح .

فمسرحية إليوت قد انتهت نهاية تفاؤلية ، نحس فيها أن رسالة الشهيد قد بلغت للآخرين ، بينما انتهت مسرحية عبد الصبور نهاية متشائمة . فبعد أن استجابت العامة لإغراء القضاة ، وصاحوا فى الحلاج بأنه كافر يجب قتله ، خرجوا « فى خطى متباطئة ذليلة كما يقول .

المقـــارنة :

فواضح ، إذن ، أن شخصية « الحلاج » التى صورها عبد الصبور تختلف عن شخصيته التاريخية . فقد رأيناه فى الأخبار التاريخية غـامضا سلبيا ، غصبيا لايتحمس لشىء ما ، بينما هو عنـد عبد الصبور إيجابى ، يحرض العـامة ، ويقف ضـد الحكام ، ويدافع عـن الفقراء والمظلومين والجوعى ، ويجمع الأنصار.

ماذا نقموا منى؟

أترى نقموا منى أن أتحدث فى خلصائى

وأقول لهم إن الوالى قلب الأمة

هل تصلح إلا بصلاحه؟

فإذا وليتم لا تنسوا أن تضعوا خمر السلطة

فى أكواب العدل؟ (ص ٤٥) .

وقد أحس عبد الصبور بهذا التباعد عن الشخصيـة التاريخية ، فراح يلتمس له المعاذير، فيقـول فى التـذييل « والإشـارة لـدوره الاجتماعـى نجدهـا فى المراجـع العـربية القـديمـة . فالإصطخرى يقـول إنه استمال جماعة من الـوزراء ، وطبقات من حاشيـة السلطان ، وأمراء الأنصار وملـوك العراق والجزيرة ومـا والاها ، استمالهم لماذا؟ لايحدثنا الإصطخـرى . ولكن أضـواء أخرى تلقـى على طبيعة هـذه الاستمالة ، مثـل تأكيـد الحجوى فى كتـابه « كشـف المحجوب» أنه رأى بالعراق بعـدما يزيد قليلا عن مائة سنة مـن موت الحلاج طائفة تسمى نفسها الحلاجية . وهذا أو قـريب منه ما يحدثنا به أبو العـلاء المعرى فى « الغفران» ، من أن هناك قـوما فى بغـداد ينتظرون خروج الحلاج ، ويقفـون حيث صلـب على دجلة يتـوقعون عودتـه . وقد مات المعرى بعـد صلب الحلاج بمائة وأربعين عاما . فمما لا شـك فيه إذن أن الحلاج كان مشغولا بقضـايا مجتمعه . وقد رجحت أن الـدولة لم تقف ضده هـذه الوقفة إلا عقابا على هذا الفكر الاجتماعى » .

هذا كل ما أورده عبد الصبور عن الدور الاجتماعى للحلاج . وهو غير كاف لتبرير دوره الاجتماعى . إن المصادر القديمـة تتحدث عن استمالته لبعض المريديـن ، وقد تحدثت هذه المصادر بـالفعل عن طبيعـة هذه الاستمالة ، فإذا هـى من ذلك النـوع الذى كان شـائعا فى العصور القـديمة ، والمتمثـل فى الطرق الصوفيـة ، ومن خلال الشطحـات الغامضـة التى كانت تؤثر على العامة . أما موقف الـدولة ، فقد كان تطبيقا لحكم الشرع ، الذى يأمر بقتل

الكافر. وواضح من أخبار الحلاج التى ذكرنا طرفا منها، أنه خارج عن التعاليم الإسلامية، رافض لظاهر الشرع .

شيء واحد يتفق فيه عبد الصبور مع الأخبار التاريخية، وهو رغبة الحلاج الملحة فى الاستشهاد. وقد ذكرنا من قبل طرفا من تلك الأخبار تكشف عن سعادة الحلاج بقتله، وعن دعوة الناس لكى يقتلوه، وأن هذا شيء واجب على المسلمين.

وهذا الجانب واضح فى مسرحية الحلاج، وفى أكثر من موضع. فمثلا، يقول مقدم مجموعة الصوفية (ص ٢١) عن الحلاج :

كان يقول :

إذا غسلت بالدماء هامتى وأغصنى

فقد توضأت وضوء الأنبياء

كان يريد أن يموت، كى يعود للسماء

كأنه طفل سماوى شريد

قد ضل عن أبيه فى متاهة المساء.

كان يقول :

كأن من يقتلنى محقق مشيئتى

ومنفذ إرادة الرحمن

لأنه يصوغ من تراب رجل فان

أسطورة وحكمة وفكرة

إن من يقتلنى سيدخل الجنان

لأنه بسيفه أتم الدورة» .

فلم التفت عبد الصبور إلى هذا الجانب فقط من الشخصية التاريخية؟ هنا يظهر تأثير إليوت بوضوح. فإن بيكيت كان يسعى نحو الاستشهاد بإلحاح، نستطيع أن نكتشف ذلك فى أكثر من موضع من المسرحية، فمثلا يتحدث أحد الفرسان عن رغبة بيكيت فى الموت، وأنه تفوه بذلك وهو فى فرنسا فذكر أمام كثير من شهود العيان، أنه يرغب فى السفر إلى إنجلترا لكى يقتل، وأنه استخدم كل وسيلة للاستثارة، وقد أتيحت له فرص النجاة فلم يهتم بها، ويختتم حديثه مخاطبا الجمهور « وبناء على كل تلك الحقائق التى قدمتها لا تترددون فى الحكم، بأنكم أمام حالة انتحار من شخص مريض» .

فهذا الجانـب من شخصية بيكيت، التـى تشبع بها عبد الصبـور هو الذى جذبـه نحو الحلاج ، حينما أراد أن يكتب أول مسرحية له فى الأدب العربـى . ومن ثم، جاءت مسرحية عبد الصبور أقرب إلى عالم إليوت منها إلى حقيقتها التاريخية .

يتحـدث كثير مـن النقـاد عـن مصـادر إليـوت المسيحيـة، وهـى واضحـة للعيـان فى مسرحيته، ففـى أكثر مـن موضـع نلتقى بهذا التنـاظر الشـديد بين شخصيـة بيكيت وبين شخصية المسيح . تقول ذلك الجوقة وفى أكثر من مناسبة، ويقول بيكيت نفسه فى موعظته الدينية : « إننا فى ذكرى ميلاد وآلام المسيح ، نحس بـالابتهاج والأسى معا، وكذلك بصورة مصغرة نحـس بالشعور نفسـه، الذى يختلط فيـه الأسى بـالبهجة ، عند مـوت الشهداء . نحن نـأسى من أجـل الخطيئة التى جعلتهـم يستشهـدون، ونحن نبتهج لأن روحـا أخرى سوف تنضـم إلى القديسين فى السماء تمجيدا . للإله وخلاصا للإنسان » .

يذكر الدكتور خليل سمعان بحق فى مقدمة murdor in Baghdad أن منظر الجماهير وهى تصيح بالحلاج « فليقتـل، إنا نحمل دمه فى رقبتنا»، إنما يذكـر بما جاء فى إنجيل متى إصحاح ٢٦ وإصحاح ٢٧ وبما جاء فى إنجيل مـرقس إصحاح ١٥ ، حينما صاح الحشد « اصلبوه ، اصلبوه» .

وأقول « بحق » لأن القـارئ لمسرحية عبد الصبور يلاحـظ تشابها بين الحلاج والمسيح فى مواطن كثيرة .

يقول الحلاج (ص ٧١) :

إلىّ إلىّ يا غرباء . . . يا فقراء . . يامرضى

كسيرى القلب والأعضاء، قد أنزلت مائدتى

إلىّ إلىّ

لنطعم كسرة من خبز مولانا وسيدنا» .

ويدور الحوار الآتى بين الحلاج وسجين (ص ١٢١) :

« الحلاج : إنى أتطلع أن أحيى الموتى .

الثانى (ساخرا) : أمسيح ثان أنت؟!

الحلاج : لا ، لم أدرك شأو ابن العذراء

لم أعط تصرفه فى الأجساد

أو قدرته فى بعث الأشلاء

فقنعت بإحياء الأرواح الموتى

الثانى (ساخرا) : ما أهون ما تقنع به

الحلاج : لم تفهم عنى يا ولدى

فلكى تحيى جسدا ، حز رتبة عيسى أو معجزته

أما كى تحيى الروح ، فيكفى أن تملك كلماته

نبئنى . . كم أحيا عيسى أرواحا قبل المعجزة المشهدة؟

آلاف الأرواح ، ولكن العميان الموتى

لم يقتنعوا ، فحباه الله بسر الخلق .

هبة لا أطمع أن تتكرر» .

ذكرنا من قبل أن صوفية وحدة الوجـود ذات مصدر مسيحى ، وذكرنا أيضا أنها مرفوضة ممـن يمثلون الفكـر الإسـلامى ، لأنها تقـف عنـد حد الفنـاء فى الله ، وتطـرح التكاليـف والمسئوليات . وحين صور عبد الصبور شخصية الحلاج ، جرده من تلك الصوفية السلبية ، ومنحه صوفية إيجابيـة تقترب به من صوفية أهل الإسـلام ، الذين يؤمنون بالظـاهر والباطن معا . وما أظنـه فى هذا يستوحى التعاليـم الإسلامية ، ولكنه يستوحى شخصية بيكيت كما صـورها إليـوت ، الـذى أعطى للقـدريـة المسيحيـة مفهومـا إيجابيـا ، يقوم على حـب الله والاستشهاد من أجله . ومن ثم ، فإن الصورة المسيحيـة التى لاحظناها عند الحلاج هى من تأثير إليوت أيضا ، وليست من تأثير المفهوم المسيحى لفكرة وحدة الوجود .

يذكـر الدكتـور خليل سمعـان فى مقالـه السابـق « أن الصوفيـة القائمـة على التقاليـد الإسلامية تلتقـى مع الصوفية المسيحية فى جـوانب كثيرة» . ونحن نتفق معـه إذا كان يعنـى بالصـوفية المسيحيـة تلك الصورة الممثلـة فى شخصية بيكيت ، وهـذا المفهوم الـذى شرحه إليوت فى مسرحيتـه ، ثم يذكر أيضـا أن الصوفية الإسلاميـة ـ ممثلة فى الحلاج ـ تختلـف عن تعـاليم الإسـلام ؛ فهى تـؤمن بحـرية الإرادة ، وبـأن الله حال فى البشر ، وبـأن الجزاء على الأعمال واجب ، وبطرح التكـاليف ، وبتحمل الخطيئة ، وبـالتطور الروحى . ونحـن نتفق معه إذا كان يعنـى بالصوفية الإسلامية تلـك الصوفية التى عرفت فى الإسـلام ، والتى تقوم على فكـرة وحدة الـوجود ، وهـى تختلف عـن صـوفية الإسـلام بمعناهـا الإيجابى ، والتـى لاتختلف مـع التعاليـم الإسلاميـة . والحلاج فى جانبـه التاريخى ينتمـى إلى صوفيـة وحـدة

الوجود، أما فى صورته التى صورها عبـد الصبور، فهو يقترب من الصوفية الإيجابية بمعناها الإليوتى .

وهناك جانب فى شخصية الحلاج يبتعد به عن الوقائع التاريخية، ويقترب به إلى تأثيرات معاصرة، وهـو الجانب العبثى أو الجانب « الفـاوستى »، الـذى يقوم على الحيرة وفقـدان اليقين . يقول الحلاج (ص ١٣٤) :

أين المظلومون، وأين الظلمة ؟
أو لم يظلم أحد المظلومين
جارا أو زوجا أو طفلا أو جارية أو عبدا ؟
أو لم يظلم أحد منهم ربه ؟

ويقول (ص ١٣٥) :

لا أبكى حزنا يا ولدى، بل حيرة
من عجزى يقطر دمعى
من حيرة رأيى وضلال ظنونى
يأتى شجوى، ينسكب أنينى .

ويقول (ص ١٧٣) بنبرة فاوستية :

لهثت وراء العلوم سنين، ككلـب يشم روائح صيد فيتبعها، ثم يحتال حتـى ينال سبيلا إليها فيركض، ينقض

فلم يسعد العلم قلبى، بل زادنى حيرة راجفة
بكيت لها وارتجفت
وأحسست أنى وحيد ضئيل كقطرة طل
كحبة رمل
ومنكسر تعيس، خائف مرتعد
فعلمى ما قادنى قط للمعرفة» .

وما أظن أن هذا الجانب العبثى يعود إلى مصدر تاريخى، فالغربة فى التصوف الإسلامى هى غـربة الروح، التـى تسعى نحو محبـوبها الأول، حتى إذا مـا التقت به عـادت لتحقق صفاتـه فى مخلوقـاته ولتكـون خليفته فى أرضـه . أما غـربة الحلاج فى تلـك النصوص التـى أوردناها، وهى كل ما ورد فى المسرحية، فهى غربة قلقة تحمل طابع الحضارة الأوروبية .

ويلقى عبد الصبور الضوء على مصدر هذا الجانـب، فيقول فى تذييل مسرحية « مسافر

ليل»: « أيـن كان يـونيسكو عنـدئذ؟ لا أدرى، فقد خلـت مأسـاة الحلاج من كـل شبهة معاصرة فى البناء المسرحى، أو خروج عن مألـوف الدراما الكلاسيكية، ولكنى حين كتبت هذه المسرحية، وبدأت أنظر فيها بالعين الناقدة، وجدت فيها ما تمثلته وأحببته عند غرامى الأخير يونيسكو».

لم يفصل عبد الصبور مـا وجده، فهل النصوص السابقة تعكـس بصمات يونيسكو؟ لا بأس، ولكـن أحس أن إليوت يطـل هنا مرة أخـرى. لايهم أن عبد الصبـور قد أنكر تـأثره بمسرحية إليوت (حياتـى فى الشعر) ، وأنه يلتمس المبررات لكى يفرمـن هذا التأثير. وإنما المهم أن جـانبا عبثيا يتبدى فى مسرحيـة إليوت. ونراه فى أكثر مـن موضع عند الجوقـة التى تظلل المسرحيـة بنوع من القدريـة، لا يستطيع الإنسان أن يفلـت منه، وقد نتذكـر فى هذه المناسبة رأى الناقد « ماكوبى» وإن الشيطان الـرابع كشيطان فاوست، الذى يحاول بطريقة بارعة أن يجعل مـن بيكيت نفسه شيطانا، وأن يشككه فى العدالـة الإلهية وأن يضعه مباشرة أمام اللاجدوى.

ولكن يخيل لى أن عبثية إليوت هنا تختلف عـن عبثية يونسكو. إن عبثية الأخير لا تنتهى إلى اليقين، بل تظـل فى مرحلـة الضياع واللاجـدوى، أما عبثيـة إليوت، فـإنها تقدم الحل للخلاص، ممثـلا فى تفسيره للقدريـة المسيحية. ومن هنـا، نجد أن بيكيـت حين تعرض لمحنة الإغـراء، ودخل فى صراع مـع الشياطين، وبنوع خـاص من الشيطان الـرابع، فـإنه يصبح منهيـا الفصل الأول « الآن أصبحـت طريقـى واضحة وأصبـح المعنى مفهـوما، إن الإغواء لن يرد مرة أخرى بهذه الطريقة، لقد كان الشيطان الرابع هو أخطرهم جميعا».

وشىء من هذا نـراه عند الحلاج، فإنه ينهى المرحلة الفاوستية بمـرحلة اليقين التى يقول عنها (ص ١٧٦) :

كما يلتقى الشوق شوق الصحارى العطاش بشوق السحاب السخى.

كذلك كان لقائى بشيخى أبى العاص عمرو بن أحمد، قدس تربته ربه.

وجمعنا الحب، كنت أحب السؤال وكان يحب النوال.

ويعطى، فيبتل صخر الفؤاد

ويعطى فتندى العروق ويلمع فيها اليقين.

فهل لى بعـد ذلك أن أستنتـج أن عبد الصبور فى عبثيتـه قد استوحـى إليوت، أكثـر مما استوحى يونسكو « غرامه الأخير » كما يقول؟

خاتـــمة الفصـــل

هنـاك نـاحيـة اختـلاف بين إليـوت وعبد الصبـور. فـإن مسرحيـة الأخير تـدور حـول «الاستشهاد»، ويجعـل عبد الصبـور ذلك هدفـا يستحق صـاحبه التمجيـد، أو كما تقول المجموعة «ماذا كانت تصبح كلماته لو لم يستشهد؟» (ص ٢٤).

أما إليوت، فـإنه يعمق هذه الفكرة. إنـه يخشى أن يكون دافع الاستشهـاد هو البحث عن مجد شخصي، ويجعل من الشيطان الرابع رمزا لهذا المزلق، الذى يقول عنه بكيت: «إن الإغواء الأخير هـو أخطر المزالـق، وذلك بأن تفعـل الشيء الحقيقى بـدافع خـاطئ». ولا يكتفى إليـوت بهذا. بل يصـور القدريـة بالمفهـوم المسيحى، والتـى تلقى ظـلالها على كل أحداث المسرحية.

ولكن أمثال هـذه الاختلافات لا تنفى التـأثير، كما لاحظ لوى تريمين فى مقـاله بعنوان Witnenes to the Events Ma'sat al Halla and Murder in the Cethedral (مجلة الفصـول - أكتـوبر ١٩٨١م)، فقـد نفى التـأثير والتأثـر بين الشاعـرين، على أسـاس أن مسرحية عبد الصبـور تدور فى إطار دنيوى، بينما تـدور مسرحية إليوت فى إطار كـونى. إن التأثير لا يعنـى أن العمل الثانـى هو طبق الأصل مـن العمل الأول، يكفى فى الـدراسات المقارنة مجرد الإيحاء بالفكرة، وهذا معنى قولنا من قبل إن إساءة الترجمة قد تكون ذات دلالة فى الأدب المقارن.

إن عوامل المشابهة بين هذين العملين أكثر من عوامل الاختلاف، ولكن هل هذا يسيء إلى عبد الصبور؟ لا، بكل تأكيد، فليست هى قضيـة عبد الصبور وحده، بل هى قضية الأدب العربى المعاصر، الذى لايزال يحمل ظلال الأدب الأوروبى فى مدارسه، وفى أشكاله وفى رؤاه، وفى صـوره. والتحرر مـن هذه الظـلال مرتبـط بالـدرجة الأولى بفلسفـة عربيـة معاصرة، يكفى عبد الصبـور أنه راد ميدانا، وأنه بدءا من مسرحيته هـذه خاض معارك مع أداته، التى بدأت تلين مع مسرحياته التالية.



الفصل الخامس

نحو قاموس للمصطلحات الأدبية
دراسة مقارنة حول انتقال المصطلح الأدبى

تواتر فى الفترة الأخيرة الكثير من القواميس التى تدور حول المصطلحات الأدبية ولكنها فى مجملها تتابع القواميس الغربية ، حتى فى الترتيب الهجائى ، وتستشهد بأعمال أوربية ، وتحيل إلى مصادر غربية ، ومن هنا أصبحت غامضة أمام القارئ العربى ، فلا يستطيع أن يتبين الفروق الدقيقة بين كثير من المصطلحات ، ولا أن يتفهم الرؤية ولا التيارات الفنية التى تشكل تاريخ هذه المصطلحات .

وفيما يلى سبعة نماذج ، حاولت فيها أن أتابع جذور المصطلح فى الثقافة العربية ، وأن أربط بينه وبين المصطلح الغربى ، منطلقًا من فكرة التأثير والتأثر التى تقوم عليها مختلف الحضارات الإنسانية .

ولعل هذه النماذج تكون بداية لقاموس يؤصل للمصطلحات الأدبية ، وينتشل القارئ العربى من غربته أمام سيل من المصطلحات لا تمس وجدانه ، ولا تنفع .

١ ـ الأدب الطليعى : Avant Grade

فى قاموسه عن المصطلحات الأدبية Dictionary of Literary Terms يذكر كودين Cudden أن مصطلح الطليعة Avant Grade يعنى الشيء الجديد الذى يثور على المواضعات السائدة فى عصره . ويضرب أمثلة على هذا الأدب الثائر فى فترات تاريخية مختلفة ، فهو يشير إلى الشعراء الرمزيين : من أمثال فارلين Varlaine ، رامبو Rumbund ، ومالارميه Mallarme ، وهو يشير أيضا إلى كتاب المسرح العبثى ، وأخيرًا يشير إلى كتاب الرواية الجديدة ، من أمثال ألن روب جرييه ، وميشيل بوتور ، وناتالى ساروت .

وواضح من هذه الأمثلة التى تنتمى إلى فترات تاريخية مختلفة ، أن صفة Avant Grade تعنى الريادة ، فهى فى المصادر الأوربية مأخوذة من أصول عسكرية ، من فرقة الطلائع Advance Guard ، وهى الفرقة التى تتقدم الجيش ، لكى تستكشف له الطريق ، وهذا هو المعنى الذى يمكن أن نلمسه فى كلمة الريادة فى اللغة العربية ، والتى تعنى الفرد أو الأفراد الذين يرودون الطريق أمام القوم ويكتشفون مخاطره .

وقـد أطلقت صفة الـريادة فى الأدب العـربى الحديث، على مجموعـة الكتاب، الـذين حاولـوا نقل الثقافـة الأوربية الحديثـة إلى الواقع العـربى، وذلك أمثـال الطهطاوى، وعلى مبارك، وأحمد لطفى السيد، وطه حسين، والعقاد.

وأخذ النقاد والمؤرخون يسمـون هذه العملية بالإحياء مرة، وبالبعث ثـانية، وبالنهضة ثالثة، وغير ذلك من صفـات تلتقى فى مجملها على أن عصرًا جديدًا قـد بدأ، على أنقاض العصور القديمة المتخلفة.

وحين ازداد المد الشيوعى فى العالم العربى، وخاصة فى فترة الستينيات، أصبحت كلمة الطليعى تطلق على ذلك الأدب الـذى يقوم على أسس مـاركسية، ويـروج لفكرة الـواقعية الاشتراكية التى تعتنى بالبطـولة الجماعية، وبديكتاتـورية الطبقة العاملـة، وبتقديم بديل لمجتمع جديد يقوم على أنقاض المجتمعات الـرأسمالية المتهدمة، وغير ذلك من خصائص تقدم واقعية جديدة تختلف عن الواقعية النقدية التى روج لها المجتمع الغربى الرأسمالى.

وقد ضرب محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس فى كتـابهما فى الثقافة المصرية، مثلاً على هذا الأدب من رواية الأرض لعبد الرحمن الشرقـاوى، ورأيا أنها تقوم على البطولة الجماعية، وعلى حـركـة الجماهير، وبناء على هـذا المنطلق الـذى يـركـز على المضمون، ذهبـا إلى حـد تفضيلها على روايات نجيب محفوظ، التى تصـور المجتمع المصرى فى حال تفسخه، وتركز على الجانب النقدى لهذا المجتمع دون أن تقدم البديل، أو تـرهص بمجتمع جديد، يقوم على أسس اشتراكية.

وقد روجت مجلة الطليعة القاهـرية فى عهد لطفى الخولى، لهذه المفاهيم الاشتراكية التى كانت تسميهـا بالتقدميـة، فى مقابل المفاهيم المتخلفـة والرجعية، التى يمثلهـا أصحاب الثقافة التقليدية.

وبعد أن سقطت الشيوعية وتقلص نفوذها فى العالم العربى، بدأت الدعوة إلى الحداثة، يتبنـاها كثير من الأدبـاء والنقـاد ممن كانـوا يبشرون فى فترة الستينيات ومـا بعـدها بـالأدب الطليعى الذى يقوم على أسس اشتراكية.

وأصبحت فكرة الحداثة تعنى عندهم استلهام الحياة الغـربية وخاصة الحياة الأمريكية، وقد صحب هذه الفكرة الـدعوة إلى التنوير، بمفهومه عند طه حسين ورفـاقه، وهو مفهوم ظهر أول هذا القرن ويدعو إلى استلهام النور الذى يأتى من العالم الأوربى، ومن هنا بدأت إعادة طبع كتب الـرواد، من أمثال طه حسين وفـرح أنطون، وبيعها بأسعـار رخيصة حتى تكون فى متناول الجماهير.

فالأدب الطليعى فى تاريخنا الأدبى الحديث ، كان دائمًا يعنى التطلع إلى ما وراء الحدود ، سواء كان عن طريق استلهام الأدب الإنجليزى والفرنسى أوائل هذا القرن ، أو عن طريق استلهام الأدب الروسى فى فترة الستينيات ، أو عن طريق استلهام النموذج الأمريكى أواخر هذا القرن .

٢ ـ بطل الكدية Anti Hero:

قد يبدو مصطلح بطل الكدية غريبًا على القارئ المعاصر، ولكن هذا المصطلح كان شائعًا ومتداولاً فى الكتب الأدبية القديمة ، وقد اشتق من الكدية بمعنى الأرض الصخرة الصلبة التى لا تمنح شيئا ، لأن بطل الكدية سيىء الحظ ، فقير لم تمنحه الدنيا شيئا ، مع أنه موهوب ينظم الشعر، وخطيب يؤثر على الناس ، وخفيف الروح ، يرسل النكتة تلو النكتة .

وربما كانت صورة السروجى فى مقامات الحريرى ، هى خير تعبير عن هذا البطل ، فهو رجل موهوب ، وقليل الحظ فى الدنيا ، يلجأ إلى كسب قوته بالسؤال والحيلة والتفنن ، إنه ينظر فيرى من هم أقل منه موهبة يتمتعون بالمال والسلطان ، فأخذ يرسل من الأبيات الشعرية ما يشكو به الدهر، وما يعبر به عن حالته النفسية ، من مثل قوله :

وإنما الدهر المسيء المعتدى مال بنا حتى غدونا نجتدى

حكل ندى الراحة عذب المورد وكل جعد الكف مغلول اليد

بكل فن وبكل مقصد بالجد إن أجدى ، وإلا بالدذ

وقد انتقلت صورة المكدى إلى السير الشعبية ، ولكن تحت عنوان الزيبق ليشير إلى أبعاد جديدة فى صورة هذا البطل متمثلة فى سعة الحيلة ، التى تجعل البطل مراوغًا مثل الزئبق لا يستطيع أحد الإمساك به ، وربما كانت صورة على الزيبق هى خير مثل على ذلك فقد استطاع أن ينتقم من صلاح الكلبى كبير الشرطة ، وبطريقة زئبقية تجعله يفلت من العقاب ، ولا يستطيع أحد الإمساك به .

أما مصطلح Anti Hero اللابطل ، فهو يشير إلى معنى قريب من هذا ، يتمثل فى تلك الشخصية الفقيرة ، التى تأتى من الطبقات الشعبية وتتحرك بين غمار الناس ، وتكسب قوتها بالحيلة والاستجداء .

وقد شرح شبلى فى قاموسه هذا المصطلح ورأى اللا بطل شكل انحرافا عن المثل البطولى

القائم حينذاك ، فقد يكون أحمق يلفت النظر بسذاجته فى عصر يعوّل كثيرًا على الكياسة ، أو منحلاً أو جاهلاً ، أو من الطبقات الفقيرة وفى القرن / ١٨ خلق بنجامين كونستانت Benjamin Constant نوعًا جديدًا من اللابطل يتمثل فى أدولف Adolphe الذى يغرى فتاة أحلامه لكى يتخلص من إحساسه بالملل فى رفقتها ، أما مشاعر « أما بوفارى» فى رواية جوستاف فلوبير، فهى مشاعر بطلة لا منتمية وتقابل دائمًا بالسخرية والرفض ، وقد ذهب الكتاب بعيدًا فى صورة اللابطل ، كما نرى فى ليو بولد بلوم فى رواية جويس ، أو فى غريب كامى المتحرر من كل شيء ، أو فى النشال الشاذ جنسيًّا عند جيينيه Genet ، أو فى المريض نفسيًّا عند سيلين Celine أو الموسوس عند هس Hesse ».

إن مثل هذه الروايات التى استشهد بها شبلى تمثل ثورة على صورة البطل فى الرواية الأوربية الحديثة ، ومن هنا تأتى السابقة Anti لتشير إلى تيار جديد يتحرر على كتفيه البطل فى الرواية التقليدية ، فإذا كان البطل الكلاسيكى يمثل دوره فى نبل وكياسة فإن اللابطل يمارس دورًا يقوم على الخسة والنذالة ، أو لا يمارس دورًا على الإطلاق ، كما يريد أصحاب العدمية ممن يجردون البطل من كل هدف .

ومن هنا ارتبط مصطلح اللابطل Anti hero بمصطلح اللارواية Ante novel لأن كلا من المصطلحين يشير إلى حالات من التحرر على الرواية التقليدية ، حالة تتحدد على صورة البطل بمفهومه التقليدى وأخرى تتحدد على بنية الشكل التقليدى .

ومن أجل هذا الارتباط الوثيق لم يفرد شبلى فى قاموسه مساحة خاصة بمصطلح اللارواية ولكنه تحدث عن هذا المصطلح أثناء الحديث عن مصطلح اللابطل ورأى أن اللارواية تمثل ثورة على البنية التقليدية لأنها تعتمد بالدرجة الأولى على فكرة التجريب دون تضمينات مسبقة ، وأخذ يستعرض الروايات التى تمثل حالة التمرد فى مختلف صورها ، مثل روايات «ديدرو» و«دستوفيسكى» ، وألان روب جرييه ، وناتالى ساروت ، ومارجريت دوراس ، وكلود مورياك ، وماكس فريش ، وجارجن بيكر ، وكلوس هنبرج ، ونابوكوف .

وقد أفرد كودين حديثًا مستقلا تحت عنوان Anti novel وضرب أمثلة جديدة من واقع روايات توماس هاردى وهنرى جيمس وصمويل بيكيت ، ولكنه فى نهاية حديثه يرصد حالات التطرف فى مفهوم اللارواية ، ويقول :

هناك ملامح متطرفة تتمثل فى صفحات يمكن أن تحذف ، وأخرى يمكن أن نتبادلها وكأنها أوراق اللعب ، وصفحات ملونة ، وصفحات فارغة ، وملصقات ، ورسوم ، ولغة مبهمة ، أو هيروغليفية .

وقد تأثـر الروائيـون العرب فى العصر الحديث بصورة الـلابطل أكثر من تأثـرهم بصورة السروجى أو بصـورة على الـزئبق ، وهـذا يفسر النـزعـة العبثيـة بمفهـومهـا الأوربى ، التى تجسدها صورة اللابطل فى كثير من الروايات العربية الحديثة .

٣ـ تداخل الحكايات Story Within a story:

تتشكل بنية القصيدة العـربية القديمة من مـوضوعات متجاورة (الغزل ــ الوقوف على الأطلال ــ وصف الصحراء ــ الحديث إلى الناقة ــ المدح ـ الفخـر) وكل موضـوع من هذه الموضوعات يستقل عن الآخر، ولكن هذه الموضوعات تتجاور، وتضمها رابطة من نوع ما ، تحدث عنها البلاغيون العرب .

ولا يـوجـد مصطلح محدد يمكن أن نطلقـه على هــذا المنهج ، وقـد اقترحت مصطلح «التجاوريـة» لأنه ينبثق من مفهوم الـوحدة التركيبية للقصيدة العـربية ، فى مقابل الـوحدة العضوية التى بشر بها أرسطو، وكما شرحت ذلك بـالتفصيل فى الكتاب الثالث من مشروع الوسيطة العربية .

وقد تضمنت ألف ليلة وليلة والسير الشعبية ظاهـرة يستطرد فيها الكاتب من حكاية إلى حكاية ، وقد أطلق النقاد الأوروبيـون على هذه الظاهرة مصطلح Story within a story وترجمها النقاد العرب إلى مصطلح تداخل الحكايات .

ويعرف شبلى فى قامـوسه هذا المصطلح بأنه يعنى أن حكـاية تتقاطع مع حكايـة ثانية ، وقد تقاطعها حكـاية ثالثة ، ويحيل إلى ألف ليلة وليلة كشـاهد على هذا المصطلح ، ثم يرى أنه انتقل فى ألف ليلة وليلة إلى الروايـة الأوربية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، يسوق الأمثلة الدالة على ذلك .

وقد أخذ هذا المصطلح يتردد على ألسنة نقاد الحداثة ، فيكتب الناقد جون بارث ، مقالة تحت عنوان « الأدب الذى استنفـد أغراضه» The Literatue of Ellhansion وهو يعنى ذلك الأدب القديم الذى يجب القضاء عليـه حتى يمكن التمهيد للتيارات الجديدة ، التى تحاول أن تثور على ذلـك الأدب الميت الذى استفـد غرضـه ، ويضرب مثلا لـلأدب الجديد بـرواية الكـاتب الأرجنتينى « يـورجز» تحت عنـوان «طـولون الأكبر» ويحلل الجديـد فى تلك الـرواية ، ويـراه فى الطريقـة التى اقتبستها مـن ألف ليلة وليلـة ، والتى تقوم على تـداخل الحكايات فقد استخدم المؤلف فى هذه الرواية ، الليلة ٦٠٢ فى ليالى شهر زاد ، لكى يضفى مسحة خيالية على الرواية ، ولكى يحول شخصياتها إلى مؤلفين يعلقون على الأحداث .

ويكتب الناقد « فيليب ستيل» مقالة تحت عنوان « شهرزاد تتحرر على العقدة» Scheherayade Runs Out of Plot ، يؤكد فيها الثورة على الشكل التقليدى فى الرواية ، الذى يقوم على الحبكة القصصية والاتجاه نحو محاكاة الواقع بطريقة حية، وتتخذ من شهرزاد رمزاً على هذا التحرر، فهى تستطيع أن تخلف عالما سحريا ، يتجاوز نظرية المحاكاة للواقع ، وينتقل بالقارئ من حكاية ، إلى حكاية ، بطريقة تزيد من إبهاره .

وفى ظل هذا السياق تستطيع أن نفهم مصطلح «اللاسببية» Discontinuity الذى طرحه الناقد «دافيدلودج» فى كتابه «الأطر الفنية فى الكتابة الحديثة The modes of modern writings» فهو يهدف فى هذا المصطلح إلى الثورة ضد السببية فى الرواية التقليدية ، والتى تقوم على توالى الأحداث عن طريق السبب والمسبب ، أو المقدمة والنتيجة . وقد حاول الروائيون أن يكسروا من حدة الصرامة المنطقية فى الرواية التقليدية ، فكان بيكيت يقطع الترابط عن طريق الفجائيات ، أو الفراغ الأبيض أو الدخول فى بديل مختلف ، وكان غيره يحول عمله الأدبى إلى فقرات قصيرة ومختلفة ، ويفصل بين الفقرات بعناوين جانبية ، أو بأرقام ، أو حتى بزخارف مطبعية .

وقد طرح لودج خلال مصطلحه السابق فكرة أن تتكون الرواية من مجموعة فقرات ، ينتقل فيها الذهن من شىء إلى شىء مختلف ، وهو يقفز جزلان من موضوع إلى موضوع ، ويصير كالكرة الصغيرة فى ماكينة اللعب ، تتحرك وترتد خلال إشارات وأضواء ، تأتى من هنا وهناك .

ويضرب لودج مثلا على ذلك ، فى واقع أعمال لونارد ميشيل ، فإن قصصه تتكون فى مجموعة عنقودية ، Cluster أى من فقرات قصيرة (حكاية- تعليق- قصة قصيرة- نكتة- اقتباس- ملاحظات- مسائل- أغنية- حكايات- خاتمة) .

وهذه المجموعات تلتقى مع منهج التأليف عند العرب القدامى ، فهو منهج يقوم على فكرة التنوع ، خلال نصوص أدبية مختلفة ، تحتوى على الجد والهزل ، والغث والثمين ، وينتقل القارئ خلالها من موعظة ، إلى بيت شعر، إلى نادرة ، إلى نكتة بلاغية ، أو لغوية . وقد أكد هؤلاء المؤلفون على هذا المنهج فى مقدمات كتبهم ، وبينوا أن الهدف منه دفع الملالة عن القارئ ، وهو يتنقل من زهرة إلى زهرة ، أو من ياقوتة إلى ياقوتة ، على حد تعبير ابن عبدربه فى كتابه العقد الفريد .

وهذا هو ما لمسه لودج وهو يتحدث عن المجموعات العنقودية ، ورأى أنها تعبر عن ميكانيكية الذهن البشرى المتمثلة فى دفعات شعورية مختلفة وغير مترابطة .

٤-الحداثة Modernesm:

يفرق لودج Lodge فى كتابه أنماط الكتابة الحديثة The Moders of writing - يفرق بين كلمة الحديث Modern، وكلمة الحداثية Moderimst ويرى أن الكلمة الأولى تطلق على كل ما يكتب منسوبا إلى العصر الحديث، أما الكلمة الأخرى فهى تطلق فى رأيه على تيار، الشعور، الذى بدأ ريادته فى انجلترا «هنرى جيمس james وبلغ قمته عند جويس joyce وفرجينيا وولف Virginia Woolf، وهو تيار يمثل ثورة على الأشكال التقليدية فلا يهتم بالحدث ولا بتصوير الشخصية، ولا بالزمن المحدد ولكنه يركز على التيار الداخلى وسواء كان هذا التيار شعوريا Consciousness أو لا شعوريا Inconsciousness إنه يقحم القارئ فى لحظة زمانية سائلة Fluid، تحطم الفواصل الزمنية بمفهومها التقليدى، وتقدم له الماضى والحاضر والمستقبل فى آن واحد، تتداخل فيه الحدود الزمانية، كما تتداخل قطرات الماء فى نهر جار، أو النغمات فى لحن موسيقى.

أما كلمة مذهب الحداثة Modernism فإن شبلى فى قاموسه عن المصطلحات الأدبية، يحدد خصائص معينة لهذا المصطلح، تميزه فى النهاية عن أدب العبث، وعن الرواية الجديدة فى فرنسا. ويتحدث لودج فى كتابه السابق عن مصطلح ما بعد الحداثة Post-modernism، ويضرب له مثلا من واقع الرواية الأمريكية الحديثة، ويحدد خصائص هذا المذهب فى أمور معينة، مثل التناقض. Contraduction والبدائل permutaion والعشوائية Randsomness والنهاية الخادعة False ending، وغير ذلك من مصطلحات تعنى فى مجملها تفريغ العمل الأدبى من المعنى، فلم يعد سؤال «ما هى السجادة» واردًا لأننا نحن إزاء سجادة، تفرض حضورها أمام العين، ومن هنا فإن المذهب مذهب ما بعد الحداثة، يعيب على الحداثة أنها تتمسك بأمل زائف فى أن تجعل هذا العالم مفهوما وتحاول أن تستنبط المعانى التى أرادها «جوليس» مثلا، بينما يكفى ان نعايش العمل الأدبى فى حضوره دون أن نتساءل عن عقدته أو مغزاه، ويضربون مثلاً على ذلك برواية الفيزة لجريليه، فهى لا تحمل عقد يحاول القارئ أن يكتشفها، ولكن يكفى أن يعايش القارئ متاهة الرواية دون مخرج.
والخلاصة أن كلمات مثل «الحديث» و «الحداثى» تواردت فى تاريخ الأدب الغربى عبر مراحل زمنية مختلفة ومتعاقبة وأحيانا متعايشة، وقد شرح نقاد الأدب هذه المصطلحات، وحددوا ملامحها، وتحدثوا عن تطورها التاريخى، واستشهدوا على كل ذلك بأعمال أدبية معروفة وذات تأثير على مسيرة الحركة الأدبية فى الغرب.

ثم انتقلت كل هذه المصطلحات جملة ومرة واحدة إلى العالم العربى، فاختلطت معانيها، وتداخلت مفاهيمها.

وقد درست قضية الحداثة فى الأدب العربى القديم، تحت عنوان «القديم والجديد»، وكانوا يعنون بالقديم ذلك الشعر الذى يحرص على ما يسمـونه بعمود الشعر ويأتى موزونا ومقفى حسب قواعد العـروضيين، ويعنون بالجديد تلك القصائد التى مـالت إلى رقة الألفاظ، أو وقفت على الطبيعة بدلاً من الوقوف على الأطلال أو أكثرت من استخدام البحور المجزوءة، أو البحـور ذات الإيقـاع السريع، أو أوردت بعـض مصطلحـات المتكلمين والفـلاسفـة والمنـاطقة. ولكن الجميع، سـواء كانـوا من أصحاب القـديم أو من أصحاب الجديـد، لم يخرجوا عـن قواعـد صحة اللغـة، وسلامة الألفـاظ، واشتقاقـات أهل الصرف، وقـواعد النحاة، وتحديدات أهل العروض.

ثم ظهـر فى العصر الحديث تعبير «الأدب الحديث»، الـذى أصبح يطلق فى المؤلفـات الأدبية، على كل أنواع الأدب التى عـرفتها اللغة العربية فى البلدان العـربية ابتداء من مجىء الحملـة الفـرنسيـة إلى مصر وحتى تلك اللحظـة التـاريخية، مـرورًا بـالتغيرات السيـاسيـة والاجتماعيـة والثقـافيـة، مثل مجىء المطبعـة، وظهـور الصحـافـة، وحـركـة الترجمة، والاستشراق، والاستعمار، والأحزاب، والمجـالس النيابيـة. وأخذت كتب الأدب الحديث تعتنى بالأجناس الأدبيـة، التى تأثرت بالتيار الغـربى مثل الشعر الحر، والرواية، والقصة القصيرة، والمسرح، وهى أنواع أدبيـة حديثة لم تأت استمرارًا للمـوروث فى الشعر أو النثر، ولكنهـا انقطعت عنـه، زعمـت نحـو الغـرب، تحاكيـه، وتستلهمـه، وتتحـدث عن مصطلحاته، ومدارسه، وأعلامه، وآرائه.

وقد اعتادت كتب «الأدب الحديث» أن تعقد تمهيدًا طويلاً عن حالة الأدب قبل العصر الحديث، تركـز فيه على الأدب فى العصرين المملوكى والعثمانى، وتصفـه بأنه أدب ميت، يخلو من الروح، ويسرف فى السجع والجناس وسائر المحسنات اللفظية والشكلية، ثم ظهر الأدب الحديث المتأثر بأوربا فكـان بعثا، أو منجزًا جديـدًا، أو غير ذلك من صفات اعتاد المؤلفـون أن ينثروهـا فى كتبهم التى تـؤرخ للأدب الحديـث. ومن هذا ارتبطت الحداثـة فى الأدب العـربى الحديث بـالمنجـزات الأوربية، وأصبح كـل ما يـرد من أوروبـا يمثل شيئًـا حديثًـا، حتى لو لم يكن فى بلاده منتميًـا للحداثـة، فالشكل التقليدى مثـلا فى القصة لا يمثل حداثـة فى أوروبا، لأنه كما تـوحى التسمية قائم على تقاليـد يعود بعضها إلى مـا ذكره ارسطو فى كتـابه فن الشعر، ولكن الأدبـاء العرب، تحمسوا لهذا الشكل واعتبروه جـديدًا، يمثل أدب المستقبل، وفضلتـه «مـدرسة الفجـر» بـزعـامة أحمد خيرى سعيـد، على الأدب العـربى القـديم، الـذى يمثل أدب الصحـراء، ولا يعبر عن وجـدان المصرى فى العصر الحديث.

وكل هـذا مهّد لأن يـرتفع صـوت الحداثة ، فى الثمانينيـات والتسعينيـات من هذا القـرن ، فتدعوا إلى الإطاحة بقواعد اللغة ، وتستخف بالعروض والقافية ، وتتحمس لقصيدة النثر، وتستخدم من التعبيرات والتشبيهات والصور ما يمس العقيدة والموروثات ، وحجتها فى ذلك أن الأديب يخلق لغته الخاصة وتركيبه الخاصة .

وتلك الحجة تصدر عن فهم خاطئ لمصطلح «التجربة» Experience الذى يعنى عند الغـربيين أن العمل الأدبى يقـدم كمشروع مفتـوح من المؤلف ، يستقبلـه القـارئ دون تضمينات مسبقة ، ثم يخلق على أرضيته مشروعه الخاص ، يقول شبلى فى قاموسه تحت مادة Anti Hero:

«إذا كـانت الروايـة التقليديـة حرصـت على أن تدمج القـارئ ، عن طريق تفصيـلات خيـالية ، وعـواطف مصطنعة ، فإن الـلاروايـة قاومت ذلك وحثت القـارئ على أن يمارس رغبته فى التجربة ، دون تضمينات مسبقة ، ومن ثـم فإن الروايات الأولى من هذا النوع ، مثل رواية «تـريستام شاندى» وروايـة «جاك القدرى» ، يعترضهما حـديث مباشر من المؤلف إلى القراء ، يطلـب فيه «ديدرو» من القـارئ أن ينهى الروايـة بنفسه ، فهـو لا يقل عن المؤلف معرفة بها ، وبهذه الطريقة يقلل من الإحساس بأن المؤلف معصوم» .

فالتجربـة لا تعنى الإطاحة باللغة ونحـوها وصرفها وعروضهـا ، لأن اللغة ليست ملكًا لفـرد واحد ، يستطيع أن يطيح بها متى مـا شاء ، ولكنهـا إرث جماعى ، وتقاليـد تاريخيـة ، تمكن الأديب من أن يقدم عن طريقها وليس دونها مشروعه الخاص .

إن انحياز الحداثة للمشروع الغربى على حساب الإرث الثقافى لا يمثل الخاصة الوحيدة التى تحدد ملامحها الأدبيـة والثقافية فى عالمنا العربى ، فإن هنـاك خصائص أخرى ، تختلف بها عن مصطلح الحداثة فى العالم العربى ، وربما كان من أهم هذه الخصائص أن الحداثة فى العالم العربى ، لا تمثل رؤية محددة ، تضع دون تمييز كـل ما يأتى فى الغرب فى سلة واحدة ، تحوى كل ما يمثل تحررًا وخـروجًا على المألوف دون أن تربط ذلك بسيـاقه التاريخى والبيئى ، ومن ثـم فهى تخلط بين أدب العبث ، والعدميـة ، وتيار الشعور والروايـة الجديدة والشكلية والبنائية .

فإذا كانت الحداثـة فى العالم الغربى تشير إلى بعض الإنجازات فى الـرؤية وفى الشكل ، وتستنـد على أعمال إبداعيـة رائدة فى عـالمنـا العربى فإنها لا تحمـل رؤية محددة ولا فلسفـة واضحة ، بل فقط تصدر عن «شعـار» يساير الغرب فى إنجازاته الأدبيـة والفكرية ، وفى نبرة متعالية تستخف بالواقع العربى .

٥- الخرافة Fabulation:.

كلمة خرافة فى مصدرها الأصلى تعنى الأحـاديث التى تبتعد عن عالم الناس، لأن رجلاً من عـذرة، يقال لـه خرافـة، استهوتـه الجن: فكـان يأتيهم ثم يعود إلى النـاس، ويقص عليهم من أخبار الجن ما لا يصدقه العقل. ومن ثم أصبح يطلق على كل حديث مستملح كذب- على حد تعبير القاموس المحيط- بأنه حديث خرافة.

وجاء فى دائرة المعـارف الإسلاميـة أن كلمة خـرافة تطـور معناهـا وأصبحت تطلق على الأسـاطير الخارقة المستحيلـة، التى لا يقبلها العقـل ولا يصدقهـا الخيال. ولكن يبـدو فى الاستعمال الجارى الآن بين الكتاب أن كلمة خرافة قـد أصبحت تتميز عن كلمة أسطورة، فالأخيرة تقترب إلى عالم الأدب، وتعنى الحكايات الخيالية التى لا تمت إلى الواقع بصلة، مما تراه فى السير الشعبية وفى ألف ليلـة وليلة، بينما كلمة خرافـة تعنى الأوهام التى تصدر عن جهل، ولا تقوم على أساس من العقل أو الدين.

ويقترب المصطلـح الأوروبـى Fabulation من هـذا المعنى كثيرًا، فهـو يطلق على العنـاصر الأدبيـة المختلفة، التـى لا تنتمى إلى الأدب الواقعـى، وقد أخـذ من كـاكستـون Caxton فى حكايته الثامنة تحت عنوان الملك ومضحكه The King And his Fabulator لأن هذا المضحك كان يختلق من الأحاديث الكثير ممـا لا ينتمى إلى الواقع، ويرضى خيال الملك.

وقد شرح سكولز Robert Scholes هذا المصطلح فى كتابه الذى أصدره عام ١٩٦٧، تحت عنوان صانعو الخرافات، The fabulators ورأى أن هذا المصطلح جـزء فى مرحلة اللاراوية Ante Novel أو بتعبير آخـر أن هـذا المصطلح يتحـدد على الروايـة الـواقعيـة (التقليديـة) ويقدم عناصر لا واقعيـة، تشكل عالم الـلاراوية، وتقوم على الحيل البهلـوانية والمهارة الشكلية، وغير ذلك من عناصر مختلفة، تفعل فى النفس ما يفعله السحر، وتؤدى الـدور الذى كـان يـؤديه مضحـك الملك الذى يتفنن فى الإثـارة واللعب، من أجل المتعـة فحسب، دون الاهتمام بالإسقاطات الواقعية..

٦- الديباجة Tescture:

تحدث النقـاد كثيرا عن «ديباجـة الشعر» وهم يعنـون بذلك الـزخرفـة التى تهيئها اللغـة للنص الأدبى، أخذًا من قولهم دبج الشيء بمعنى نقشه وزينه، ودبج المطر الأرض بمعنى سقاهـا فاخضرت وازهـرت، والديبـاج ضرب من الثياب يصنع من الحريـر. وقد ورد كثيرًا تشبيه الشعر بالثياب والصبغ والتصـوير والنسيج والعقد والوشاح والسماط والنقش، وغير

ذلك من تشبيهات تقف عند الجمال الذى تهيئه المفردات والتراكيب اللغوية، ويمتع الحواس الإنسانية، ويرضى الأذن العربية.

وقد تحدث البلاغيون عن التدبيج بمعنى أن يرد فى النص مجموعة من الألوان المختلفة كالأبيض والأسود، تشير إلى معانى متقابلة وتشبه ألوان النبات التى تزين الأرض عقب المطر، واستشهد على ذلك بقول أبى تمام:

تردى ثياب الموت حمرا، فما أتى

لها الليل إلا وهى سندس خضر

فقد جمع فى هذا البيت بين لونين الأول حمرة الثياب كناية عن الاستشهاد والآخر خضرة الثياب كناية عن دخول الجنة.

وكل هذا يعنى الميل إلى الجانب اللفظى فى النص الأدبى وهو ميل نجده عند كبار النقاد القدامى من أمثال: الجاحظ وقدامة بن جعفر وابن خلدون وابن سنان الخفاجى وعبد القاهر الجرجانى.

وقد تحددت البلاغة العربية فى أبواب ثلاثة، تهدف إلى الكشف عن جماليات اللغة فى مفرداتها وتراكيبها وصورها ومحسناتها، فعلم المعانى «علم يعرف به أحوال اللفظ العربى التى بها يطابق مقتضى الحال»، وعلم البيان «علم يعرف به وإيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه» وعلم البديع «علم يعرف به وجوه تحسين الكلام» على حد تعبير الخطيب القزوينى فى كل هذه التعاريف الثلاثة.

والخلاصة أن النقد العربى القديم قد مال إلى الجانب الشكلى للنص الأدبى، أكثر من ميله إلى الكشف عن صورة المجتمع أو صورة الذات فى النص الأدبى وغير ذلك من دراسات بدأت تظهر فى الساحة الأدبية مع وجود المناهج الاجتماعية والنفسية والتاريخية.

أما مصطلح Tescture فقد رأى «كودين» فى قاموسه أنه مقتبس من الفن التشكيلى وأنه يعنى أن العمل الأدبى يشبه لوحة يقف القارئ أو الناقد عند قماشتها ويستمتع بجمالها الذى تبصره العين، فليس المهم فى العمل الأدبى أفكاره ولا مضامينه ولا غير ذلك مما يتجاوز السطح Surface الخارجى، وضرب مثلا على ذلك من قصيدة الكلب Dog للشاعر جون كراو رانسوم John Crowe Ransom ووقف عند سطحها الخارجى كقماشة تثير المتعة وترضى الحواس الإنسانية وركز على ما فيها من خصائص لفظية، مثل امتلاء بعض الألفاظ، وخفة بعضها، وشحوب بعضها، وغير ذلك مما يقف فيه الناقد عند السطح الخارجى دون أن يستطرد إلى دلالات تاريخية، أو أفكار معرفية.

هذا وقد توارد فى النقد الأوربى الحديث، مصطلحات مثل «الشكلية» Formalism «والفن للفن»

Art For Arts Qake ، «والنقد الأدبى» The New Criticsm، «والسياق اللغوى» Contextualism , «والبنائية» Structurulism ، وغير ذلك من المصطلحات فروق دقيقة تصل إلى أن إحداها يتحدد على ما قبله وإن كان ينبثق منه، ويمثل إضافة جديدة، ولكن هذه المصطلحات فى مجملها تمثل ميلاً بارزًا فى النقد الغربى نحو الاهتمامات بجماليات العمل الآلية اللغوية دون إسقاطات خارج النص الأدبى، مما يمثل ثورة على المناهج الاجتماعية والنفسية والمعرفية، التى سادت النقد الغربى لفترة تاريخية طويلة.

وقد وقفت الناقدة سونتاج Suson Sontag فى كتابها منع التأويل Against Interpre-tation، ضد المناهج التفسيرية، التى تحمل النص الأدبى بتأويلات خارج ديباجته الشكلية، والتى كانت فيما يرى نتيجة لسيطرة نظرية المحاكاة Imiatation على الفكر النقدى ورأت ضرورة أن تتخلص لغة النقد من مفردات نظرية المحاكاة التى تجعل النص الأدبى يبحث دائما عن نموذج ومثال خارج بنيته الفنية، ودعت إلى أن يتبنى النقد لغة تستمد مصطلحاتها من داخل النسيج الأدبى، وطرحت من أجل ذلك مصطلح الشفافية Tranceperance وهو مصطلح يشبه إلى حد كبير مصطلح الديباجة Tescture الذى نحن بصدده لأن كلا منهما يركز على الشكل كقماشة تحمل جماليتها فى بنيتها، دون الغوص فى الأعماق والبحث عن مرجعيات خارج النص الأدبى نفسه. وقد سيطرت المناهج التفسيرية على النقد العربى فى العصر الحديث، ورأينا المناهج الاجتماعية ممثلة فى نقد محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس، والمناهج النفسية ممثلة فى تحليلات العقاد. وقد بدأت العودة إلى المناهج الشكلية فى الفترة الأخيرة وطرحت البنائية نفسها بإلحاح عند كثير من النقاد، ولكن هذا الطرح لم يأت استثمارًا للجانب الشكلى فى البلاغة العربية، ولكنه جاء محاكاة للمناهج الغربية، فامتلأ بالأعلام الغربية، والأفكار الغربية، والجداول والإحصائيات مما جعله أقرب إلى الترجمة منه إلى التأليف، وفقد بذلك تأثيره على القارئ العربى.

٧- الرواية الجديدة: **Nouveau Roman:**

هذا المصطلح أصبح جزءًا من اللغة النقدية، ابتداء من عام ١٩٥٥، حين أخذ آلان روب جرييه ينشر مقالاته فى الدوريات والمجلات، التى جمعها عام١٩٦٣ فى كتاب تحت عنوان «نحو رواية جديدة».

ومن ذلك التاريخ توالت الحركة وأصبح لها أعلام كثيرون، يدافعون عنها نظريا

ويبدعون الأدب الذى يعبر عن خصائصها ، ومن أهمهم ميشيل بورتور Michel Butor
وناتالى ساروت Nathale Sarraite، وموريس بلانكوت Maurice Blanchot
وكلود سيمون Claude Simon ، كافكا Kafka، وجيمس جويس James
Joyce، ولويس فردينـاند سيلين Ferdinand Louis، وبروست Proust، ووليم
فوكنر William Faulkner، وصمويل بيكيت Samuel Beckett، وألبير كامى
Camus، وأيضًا كتاب مسرح العبث والأدباء الوجوديون .

وأظن أن كودين ركز على فكرة رفض أصحاب الـرواية الجديدة لمعالم الشكل التقليدى ، وثورتهم ضـد الحدث والقصيدة ، وغير ذلك ممـا يلتقون فيـه مع الوجـوديين وكتاب العبث والروائيين ممن ثاروا على بنية الشكل التقليدى .

ولكن الروايـة الجديدة لا تقف عند حـد التحرر على الشكل التقليـدى ولكن لها رؤيتها الخاصة ، التى تميزها عن كتاب العبث وغيرهم من الاتجاهـات التجديدية ، بل أن «جرييه» فى كتابه السابق يرى أن الرواية الجديدة هى بـداية التاريخ للرواية ، وأن كل ما سبقها يدرج فى مرحلة مـا قبل الرواية ، وقد هـاجم كتاب العبث ، واتهمهم بالرومـانسية لأنهم يفترضون معنى فى الكون فلما افتقدوه أخذوا يتصايحون ويولولون .

وقـد شرح جربليـه رؤيـة الروايـة ورأى أنها تتخلص من كل الإسقـاطات البشريـة على الكون ، الذى تنظر اليه كحقيقة ماثلة وحضور يفرض نفسه ، وكل ما على الكاتب أن ينقله بالوصف الموضـوعى للشىء الماثل أمامه ، دون رموز أو إسقاطـات ، ومن ثم خلت رواياته من الشخصية بمعنـاها التقليدى ومن المشـاعر ، والصور الفنية التى يسقطهـا الإنسان على الظاهرة أمامه .

ولم يستخـدم هذا المصطلح فى العـالم العربى بمفهـومة المدرسى المحـدد ، فكان النقـاد يوردون أعلام هذه المدرسة مع بقية الأعلام الأخرى التى قامت بثورة ضد الشكل التقليدى ، ويتحدثون عن جريليه وساروت وبورتور جنبا إلى جنب مع سارتر وكامى وفولكنر وبروست وفرجينيا ، وكان النقاد أيضًا يطلقون تعبير الرواية الجديدة على كل حركة تتحرر على القوالب القديمة وتقدم شكلاً جديدًا فأصحاب مدرسة الغجر فى أوائل هذا القرن ، تحمسوا للرواية الـواقعية (التقليـدية) ووصفـوهـا بأنها أدب جديـد يبشر بـالمستقبل وحين ظهرت أشكـال جـديدة ، مثل تيـار الشعور ، تثـور على الشكل الواقعى التقليـدى ، وتقدم رؤيـة جديـدة للرواية ، وصف النقاد هذا الاتجاه بأنه تمثيل الحساسية الجديدة .



المصادر والمراجع

مرتبة حسب ورودها

- Hugh Kenner, the invisible poet T.S. Eliot, London 1977.

- Bradbrook, M.C.T.S Eliot, London, The British Council , 1950.

- Stephen Spender Eliot, London, 1975.

- Lyndall Gordon, Eliot's early, year, oxford university 1977.

- Eliot T.S. Murder in the Cathedral, London, Faber & Faber, 1979.

- David R. Clark (Ed), Twentieth Century interpretation of Murder in the Cathedral the United State of America, 1971.

- عبد الصبور ، صلاح « جريمة قتل فى الكاتدرائية» (ترجمة) (الكويت - من المسرح العالمى - يناير ١٩٨٢) .

- فصول (مجلة) القاهرة - أكتوبر ١٩٨١ .

- ماسينيون . ل وكراوس . ب « أخبار الحلاج» . (تحقيق) . باريس ١٩٣٦ .

- عفيفى ، أبو العلا « فصوص الحكم» تحقيق . (القاهرة - ١٩٤٦) .

- نيكلسون « فى التصوف الإسلامى » . (القاهرة - ١٩٤٧م) .

- ابن تيمية « تفسير سورة النور » . (القاهرة - ١٩٧٢م) .

- الغزالى : فضائح الباطنية . (القاهرة - ١٩٦٤م) .

- ابن القيم : مدارك السالكين . (القاهرة - ١٣٣١هـ) .

- عبد الصبور ، صلاح « مأساة الحلاج» . (بيروت - دار العودة - ١٩٦٩م) .

Khalil, Semaan, Murder in Bakhdad, Leiden, 1972.

- عبد الصبور، صلاح « حياتى فى الشعر » . (بيروت - دار العودة - ١٩٦٩م) .


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خاتمة الكتاب

الأدب المقارن
والصراع الحضارى

- ١ -

الصراع الحضارى شىء لازم للحضارات، ويمثل سمة جوهرية فى تكوينها، وربما يكون هو السبب الحقيقى وراء ازدهار الحضارات، وتفوق حضارة على الأخرى.

وإذا كان توينبى يتحدث عما يسميه بالتحدى والاستجابة. وهو يعنى بذلك مايثيره الموقع الجغرافى من استفزاز للعنصر البشرى، يكون هو وراء الحضارات،

فالدعة لاتدفع إلى الحضارة، والاسترخاء لايؤدى إلى إثارة المواهب البشرية.

إذا كان توينبى، بذلك، يتحدث عن الصراع الحضارى بمعناه الجغرافى، فإنه يمكن هنا أن نتحدث عن الصراع بمعناه التاريخى.

فالصراع بين الحضارات ثابت منذ أن كانت الحضارات. فهناك صراع بين الحضارة الفرعونية والحضارة الإغريقية، ثم صراع بين الحضارة الإغريقية والحضارة العربية الإسلامية، ثم صراع بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الأوروبية الغربية.

فالصراع الحضارى حقيقة قائمة. وعلى الرغم من مظهره الخشن، فإنه فى النهاية يؤدى إلى بقاء الأصلح، ويتيح للحضارة الجديدة أن تمتحن عوامل قوتها، وأن نفرضها على الحضارة الموليِّة، وأن تحتل مكانها.

- ٢ -

وقد كانت لغة الصراع حادة فى العصور القديمة، يتراشقها الناس بصراحة. فكل حضارة منتصرة تزهو بانتصارها، وتنطق ثمرة نجاحها، وتتحدث بلغة القوة، فتزعم لنفسها ولشعوبها المكانة اللائقة، وتتحدث عن الآخرين على اعتبار أنهم من البربر فيما تزعم الحضارة الإغريقية، أو من الموالى فيما تزعم الحضارة العربية الإسلامية، أو من العالم الثالث فيما تزعم الحضارة الأوروبية الغربية.

وتظل هذه اللغة هى القائمة، وإن كانت تستتر فى العصر الحديث وراء القفازات الناعمة، وتحت عبارات تضوغها هيئة الأمم فى دبلوماسية فائقة، تخفى وراءها مظهر الغالب الذى يفرض إرادته على المغلوب، تحت مسميات عديدة.

ـ٣ـ

ومن ينكر الصراع ، أو يتنكر له ، هو واحد من اثنين :

إما إنه ضعيف يخدع نفسه ، فينكر فكرة الصراع ، متسترا وراء مبدأ الإنسانية .

وإما إنه قوى يحاول أن يخدع غيره ، فيتنكر لفكرة الصراع ، تحت مظهر الإنسانية أيضا .

إن القوى يرادف بين الإنسانية وحضارته . فالإنسانية هى حضارته ، وإذا اقتنع الضعيف بهذا الوهم ، فإنه يلقى أسلحته ، ويعايش هذه الأوضاع ، ويسمح له القوى بهذه المعايشة ، وبأن يتسقط من المائدة مايقيم أوده .

أما إذا تمرد على حضارة القوى ، فإنه حينئذ يتجرد من إنسانيته ، ويستحق باسم هذا الشعار الويل والثبور .

ـ ٤ ـ

ليس فى هذا دعوة للتعصب ، لأن هناك فرقا كبيرا بين التعصب والاعتزاز.

التعصب ليس دائما يأتى من الضعيف ، فقد يأتى من القوى ، ويكون مصدره حينئذ الغرور.

أما الاعتزاز فهو الإيمان بالخصوصية ، والتشبث بها حتى لو أدى ذلك إلى مبدأ الصراع الحضارى ، لأنه مبدأ قائم على حقائق تاريخية ، وحضارية ، والإيمان به قوة تساعد التاريخ على حركته فى تنقية الأفكار ، وبقاء الصالح منها يحرك الحضارات ويتحرك بها .

ـ٥ـ

والأدب المقارن هومظهر من مظاهر الصراع الحضارى ، ولكن عن طريق الآداب .

فهو يدرس العلاقة بين الآداب على مستوى اللغات المختلفة . وهو يتابع الصراع بين هذه الآداب ، حتى ينتصر أدب على آخر ويخضعه لرؤيته .

ولا يوجد شىء مثل الأدب المقارن يمكن أن يقيس قوة الحضارات .

جوانب التأثير تدل على قوة الحضارة ، وأنها فى موقع الذى يمنح ويهب . وجوانب التأثر تدل على ضعف الحضارة ، وأنها فى موضع الذى يأخذ ويتقبل .

فهرست الموضوعات

٤ ـ البحث عن مذاهب أدبية داخل الفكر العربى ـ مجالات تستوحى التاريخ العربى ـ تتبع رحلة الشعر العربى خلال علاقة التأثير والتأثر بالآدب الأخرى ـ نظرية الشعر عند العرب ـ نظريةا الشعر عند اليونان ـ الصراع الحضارى بين النظريتين ـ رحلة الشعر إلى الفرس والترك، ثم إلى بلاد الأندلس، ثم إلى البلاد الأوروبية ـ تأثير الأدب العربى فى غيره ـ تأثير المقامات وحى بن يقظان والشعر العذرى والوقوف على الأطلال والعروض والقافية وصورة الشرق وقصة يوسف ومجنون ليلى ـ الأدب العربى فى إفريقيا ، وفى الصين ، وفى أمريكا اللاتينية، وفى الشعوب الإسلامية ، وفى أوروبا الشرقية ـ المذهب الأدبى ينشأ فى ظروف خاصة ، ويحمل رؤية فكرية خاصة، وملامح فنية خاصة ـ البحث عن مذاهب أدبية داخل التاريخ العربى ـ مذهب الوسطية ـ رؤيته ـ جمهوره ـ نقاده ـ تاريخه ـ أدبه ـ تأثيراته ـ علاقة التأثير والتأثر موجودة فى الأدب العربى منذ القديم، والمطلوب صياغتها فى صورة علمية حديثة تستهدف علم أدب مقارن من منظور عربى، وهذا الكتاب يساهم فى ذلك ، ويتتبع رحلة المقامات منذ الحريرى حتى تصل إلى كافكا فى روايته « أمريكا» ـ وهو يستهدف أمرين : الانطلاق من النصوص الأدبية من ناحية، وذلك للتخفيف من النزعة التاريخية، والانطلاق من الأدب العربى من ناحية ثانية، وذلك بهدف تأصيل علم أدب مقارن من منظور عربى .

الفصل الأول : البطل المراوغ بين الحريرى وكافكا :

البطل فى مقامات الحريرى ـ السروجى يحمل أبعادا تاريخية، ويعكس صورة مركبة، وقد تحول إلى نموذج أدبى ـ خصوصية بطل الحريرى ـ البعد النفسى، والبعد الاجتماعى ـ الحركة وحب التنقل ـ روح المطاردة ـ صورة البطل المكدى موجودة فى الآداب السابقة، ولكن الأدب العربى يضفى عليها خصوصية جديدة ـ فكرة الاستيحاء بين الحضارات ـ كل مقامة تتكون من مقدمة وموضوع وخاتمة ـ التنوع فى موضوع المقامات ـ منهج التأليف فى كتب الأدب القديمة ـ الوحدة التركيبية ـ دراسة المقامات كشكل روائى ـ المقامات تخضع لوحدة عامة ـ رواية الحكيم « أشعب» ، تطبيق عملى للشكل الروائى عند المقامات ـ مصادر الحكيم ـ مصادر أدبية ، وأخرى شعبية ـ مصادر الحكيم تخدم هدفه الفنى ـ اللغة تناسب الموضوع ـ المقامات هى المصدر الأساس للحكيم ـ الصلة العامة فى رواية الحكيم ـ الحكيم يحيى شكل النادرة العربية ـ الحكيم يضيف إلى الماضى ـ البنية الفنية للمقامات تقوم على المتعة الحسية من ناحية ، وعلى توظيف الشعر من ناحية ثانية، وعدم الإيغال من ناحية ثالثة، وعلى رؤية حضارية مميزة من ناحية رابعة ـ شرح هذه الخصائص الأربع من

واقع مقامات الحريرى ـ الحكيم ينطلق من هذه الخصائص ـ تطبيق ذلك على روايته «أشعب» ــ اختفاء عنصر الرؤية الحضارية فى رواية الحكيم ــ الموازنة بين بطل الحريرى وبطل الحكيم ـ البطل المراوغ فى السير الشعبية ـ الموازنة بين صورة السروجى وصورة الزيبق ـ الموازنة بين مقامات الحريرى ومغامرات السندباد ـ الشكل التراثى للرواية عند كل ـ يلتقيان فى الرؤية الدلالية ، وأيضا الفنية ـ الرؤية الإسلامية فى حكايات السندباد ــ موسى والعبد الصالح ـ التهوين من شأن الدنيا ـ الحل الإسلامى لمشكلة الفقر والغنى ـ صفة العنقودية فى مغامرات السندباد تتم خلال دوائر ثلاث ـ كل سفرة من سفرات السندباد تتكون ، مثل المقامات ، من مقدمة وخاتمة وموضوع ـ كثرة الصدف ـ تدخل إذا الفجائية ـ النهاية السعيدة ـ وأيضا النبرة الحزينة ـ الحديث عن هادم اللذات ـ التقارب بين مقامات الحريرى وحكايات السندباد ــ كلاهما يخضع لنبع واحد ، وهو الشكل التراثى للرواية العربية ـ الأصالة تتكون من بعد محلى وآخر عالمى ـ التراث القصصى عند العرب يحمل هذين البعدين ـ مصطلحات حديثة ذات جذور عربية ـ مصطلح تداخل الحكايات ـ مصطلح التجاورية ـ شبلى والمصطلح الأول ـ نقاد الحداثة والمصطلح الأول ـ لودج والمصطلح الثانى ـ لودج ومصطلح العشوائية ـ لودج ومصطلح التجاوز ـ الوحدة التركيبية تتخلص من الرابطة العقلية ـ ومن العشوائية ـ وأيضا من التجاوز ــ توظيف ألف ليلة فى الأدب الأوروبية ـ رواية جريجيا وتأثير ألف ليلة ـ رحلة بطل المقامات إلى الآداب الأوروبية ـ المنافذ بين الحضارتين العربية والإسلامية ـ المقامات فى أرض الأندلس ـ الشريشى يتحدث عن المقامات فى بلاد الأندلس ـ غنيمى يتحدث عن المقامات فى الآداب الأوروبية خلال أربع مراحلة ــ التأليف على غرارها . شرحها ــ ترجمتها ـ تأثيرها فى روايات فى الأدب الإسبانى ، وأيضا فى الأدب الفرنسى ــ تأثيرها فى قصص الشطار ، وفى روايات اللابطل ــ تأثر البطل المراوغ بالنزعة العبثية ـ النزعة العبثية فى الرواية الجديدة فى فرنسا ـ تأثير المقامات فى رواية «أمريكا» لكافكا ـ انتقال المقامات إلى اللغات الأوروبية الحية ـ المقامات فى اللغة الألمانية ـ رواية أمريكا تمثل خطا مختلفا فى مسيرة كافكا ــ شيوع الجو الشرقى فى الآداب الأوروبية ـ رحلات الرومانتيكيين ـ جوتة والأدب الشرقى ـ فنانون يستوحون الشرق ، بول كلى ـ كافكا يتأثر بأدب الشطار ـ عناصر المقامات فى رواية كافكا تتمثل فى روح السفر وحب المطاردة من ناحية ، وفى جاذبية البطل من ناحية ثانية ، وفى روح اللعبة من ناحية ثالثة ـ الفكاهة فى هذه الرواية تعتمد على الفطرية ـ المشاجرات الهزلية ـ صورة المرأة تذكر بالسير الشعبية ـ المباشرة والوصف ـ تداخل الحكايات ـ وظيفة العنوان فى الرواية ـ عنوان « العطشجى » أكثر دلالة على طبيعة الرواية ـ الشكل الفنى فى الرواية لاينمو بطريقة تاريخية تطورية ــ الرواية تتطور إلى الوراء ـ كل فصل مستقل بنفسه ـ خصوصية كافكا تتمثل فى جوهر المكان وفى

النزعـة العبثية ـ صـورة المكان فى مقـامات الحريرى ــ كافكا يجسـد روح المكان ــ ويصور أمريكا فى صـورة هزلية ـ الإنسـان ذو البعد الواحد ـ الأمـريكى يندمج فى اللعبـة ـ ويفتقد العنصر المتجاوز ــ رواية كافكـا تقف عند سلطـح الأشياء ـ الجو العبثـى ـ عالم لا يـرحـم ـ العبث فى هـذه الرواية يتـم بطريقة هـزلية (كاريكاتـورية) ـ والمأسـاة تتحول إلى كوميـديا ساخرة ــ سيطرة العبث على كتاب الستينيـات فى العالم العربى ـ وهـو عبث متأثر بـالنزعة الأوروبية ـ ترجمة روايـة أمريكا فى فترة الستينيات ـ أخطاء فى الترجمة ــ لايتحقق فيها وضوح المعنى كما تريده اللغة المنقول منها ، ولايتحقق فيها أداء المعنى بأسلوب اللغة المنقول إليها ـ أمثلة على ذلك ــ الترجمة غير الدقيقة قد تكون ذات دلالات فى علم الأدب المقـارن ـ إقبال أدباء الستينيات على هذه الترجمة ـ دلالة ذلك ـ أدباء الستينيات لم يلتفتوا إلى الجو الشرقى فى رواية أمريكا ، ولكنهـم التفتوا إلى النزعة العبثية ـ عبده جبير ونزعة العبث ـ مستجاب ونزعة العبث ـ سندباد « ثـلاثية سبيل الشخص » محبط وذو نزعة عبثية ــ بطل مستجاب تتساوى عنده الأشياء ـ الرحلة التاريخية للبطل المراوغ ـ من الأدب الفصيح إلى الأدب الشعبى ـ ومن الأدب العربـى إلى الأدب الأوروبى ــ ثم عودتـه محبطا إلى الأدب العربـى ـ العبرة مـن هذه الرحلة ــ التراث القصصى عند العرب نتيجة رؤيـة حضارية ـ وتحتفظ بخصـوصيتها وهى تنتقل عبر البحار وعبر الأجناس ـ البحث عن تلك الخصوصية .

الفصل الثانى : البنائية بين السكاكى ورولان بارت :

المصادر الغربية لنقاد الحداثـة ـ المصادر متشـابهة ، وهم يتبـاهون بها ـ كثـرة الأعلام ، والمصطلحات الأجنبية ـ بعضهم يتعشق كاتبا أجنبيا ـ ارتباك المصطلحات ـ تداخل الأعلام تخبط القارئ ـ تصنيف نقدهم فى قضايا ثلاث ، هى : موت المؤلف ـ التركيز على الشكل ـ مشاركة القارئ .

موت المؤلف الجذور الفلسفية ــ مقولة نيتشـة ـ المذهب الإنسـانى ـ مـوت الشخصية ـ الشخصية فى مذهـب الواقعية ـ كلود أودبير ومـوت الشخصية ـ تشويـه معالم الشخصية ـ الشخصية فى روايات جرييه ـ النفور من علم النفس التحليلى ـ صورة الغريب ـ الشخصية عند جرييه فى حالة بحث ـ الشخصية عند ساروت ـ النقد وموت المؤلف ـ اختفاء القيمة فى الأدب ـ جماعة الفن للفـن ـ سونتاج ضد تفسير النص ــ التفسير فى أعمال كافكا النصية : معاملة النص من السطـح الخارجى ـ مصطلحات لسونتاج ـ كولـر والأدب الأملس ـ رواية المحاولات لجرييه ـ الـوصف عند جرييه يختلف عـن الوصف عند سارتر ــ حلم فلوبير ـ قضية الالتزام عند جرييه ـ النقد الغربى يركز على المضمون بالدرجة الأولى ـ نظرية المحاكاة تهتم بالمضمون أكثر من الشكل ـ التحرر من المكان والمحاكاة .

مشاركة القارئ : أعمال أدبية تقوم على مشاركة القارئ ـ مجموعة « لقطات » تقدم مثالا على ذلك ـ فيش ومشاركة القارئ ـ كولر ومشاركة القارئ ـ الإيغال فى فكرة مشاركة القارئ إلى حد الفوضى ـ النهاية الخادعة .

الخلفية الحضارية : نقد الحداثة يرتبط بالواقع الغربى ـ بالمر يراه انعكاسا للروح العلمية السائدة ـ ومير دوك تراه انعكاسا لتيارات فلسفية سائدة .

تناقض مصطلح الموضوعية : نقد الحداثة يتعرض للرفض فى العالم الغربى ـ فرانكلين يرى أن فكرة الموضوعية فى الأدب تؤدى إلى الشكلية ـ والوجودية تراها امتدادًا للثنائية الديكارتية ـ وبالمر يرى أن فكرة الموضوعية تحول الأدب إلى شىء بارد ـ وجوفرى يراها تجمد اللغة فى إطار ثقافى ـ والنقاد المسيحيون يرونها أثرا من آثار الغرور البشرى ـ التناقض فى مصطلح الموضوعية من موقف إلى آخر ـ مصطلح « التجربة » يخفف من سطوة الموضوعية ـ عصر الأنماط الثقافية ـ أفكار الحداثة ترتبط ببنية الحضارة الأوروبية وبالوثنية الإغريقية ـ فكرة موت المؤلف تؤدى إلى اختفاء القيمة ـ والتركيز على الشكل هو رد فعل لنظرية المحاكاة أما مشاركة القارئ فتتحول إلى استبداد من القارئ .

النقد العربى وفكرة النصية : فكرة المحاكاة لم تلعب دورا مؤثرا فى تاريخ الأدب العربى ـ الشاعر الجاهلى لايحاكى الطبيعة بل يتغلب عليها ـ معظم النقاد العرب يؤثرون جانب الشكل ، ولايبحثون عما وراء العبارة الأدبية من دلالات فلسفية واجتماعية ـ غنيمى هلال يدين هذا الاتجاه عند النقاد العرب ، ولكن نقاد الحداثة فيما بعد يهللون لهذا الاتجاه بعد أن أتى من أوروبا ولايتنبهون لمصادره العربية .

نقاد الحداثة فى العالم العربى : هم لايبدءون من التراث العربى ـ يبدءون من الحضارة الغربية لما فى ذلك من بريق وإعلام ـ نقطة البداية تلقى بظلالها وتحرمهم من عنصر الابتكار البنائية فى العالم الغربى منهج ولكنها هنا تتحول إلى مذهب ـ نقاد الحداثة يتجنبون التطبيق ـ ويميلون إلى النقل ـ هم يخدعون القارئ عن نفسه ـ ويتحولون إلى سحرة وحواة .

الغذامى فى الخطيئة والتكفير : الغذامى من أفضل نقاد الحداثة ، لأنه يحاول أن يعود فى بعض الأمثلة إلى التراث ، ولأن لديه موهبة نقدية تتميز بالخصوص ، ولأنه يدعم حديثه النظرى بنموذج تطبيقى ـ وكتابه « الخطيئة والتكفير » هو أهم كتبه ، وبقية كتبه تعتمد على هذا الكتاب ـ الغذامى يؤكد فكرة الموضوعية فى الأدب ـ القسم النظرى يطغى على الكتاب وفى النموذج التطبيقى يميل إلى الفلسفة والمضمون ـ يقدم على النموذج بفكرة مسبقة عن الخطيئة والتكفير ـ شعر شحاتة لايعكس فلسفة الخطيئة والتكفير ـ الحديث عن العناصر الجمالية فى كتاب الغذامى قليل .

الجانب النظرى منقول : الغذامى عارض جيد لآراء الألسنين، وهو يجاهر بذلك ويفتخر به ـ الشخصية الأولى التى تجذبه تتمثل فى الناقد رولان بارت ـ يكرر اسمه، ويردد أفكاره، ويتوحد به .

النصية ورولان بارت : يلخص مقالة رولان عن موت المؤلف ـ اللغة هى التى تتكلم وليس المؤلف ـ عصر القارئ .

التناصية ورولان بارت : جماعية اللغة ـ المخزون المعجمى ـ البعد التاريخى ـ الشفرة الثقافية ـ الموروث التراثى ـ الأعراف الأدبية .

البلاغة العربية وفكرة النصية : مقدمة فى الفصاحة والبلاغة والتركيز على اللفظ ـ علم المعانى والنص ـ علم البيان والنص ـ علم البديع والنص .

نموذج تطبيقى من البلاغة العربية : الزمخشرى يستعرض آية كريمة من جهة علم البيان مرة ، ومن جهة علم المعانى مرة ثانية ، وهو فى كل مرة يركز على النسيج اللفظى دون إسقاطات معرفية .

البلاغة العربية وفكرة التناصية : السرقة الشعرية وتوظيف النص ـ مصطلح « التلميح» فى البلاغة يؤدى إلى التناصية ـ استلهام النص ـ مثال من شعر ابن المعتز ـ مثال ثان من أبى تمام ـ مثال ثالث من الحريرى ـ توارد الخواطر ـ الغذامى يغترب عن هذا التراث .

الخطيئة والتكفير : مسحة مسيحية : الخطيئة الأولى فى الكتاب المقدس ـ حمزة شحاتة يحمل خطايا عصره ـ الخطيئة الأولى فى التراث الإسلامى ـ عنصر التوبة .

حمزة شحاتة شخصية قلقة : محور التحرر فى شعره ـ محور القيود الاجتماعية ـ محور انتصار المجتمع ـ محور الاستسلام عند الشاعر ـ مفردات عن الهوى والعقل والظمأ والسكون ترمز إلى حالات الشاعر ـ ذكريات أليمة عن الماضى لاتعكس الفردوس المفقود .

الغذامى بعيد عن الأسرار الجمالية : صفحات قليلة فى كتابه عن الناحية الجمالية فى شعر شحاته ـ وهذا يتناقض مع منهجه النظرى ـ يختار ثلاث قصائد فقط من شعر شحاتة .

استبداد المنهج والنظرة الجزئية : المنهج التفكيكى وقصيدة « ياقلب مت ظمأ» ـ يقف عند الحروف والمفردات وتتحول القصيدة إلى شظايا ـ ويضيع هدفها الكلى .

استبداد المنهج والانحيازية : مفهوم التناصية ـ فرق بين الاستئناس بأرواح السابقين ـ وتقمص أرواح السابقين ـ قصيدة « غادة بولاق » ـ الغذامى ينحاز إلى هذه القصيدة ، على الرغم من ضعفها، وهو يبرر كل شىء لشاعره .

منهج مقترح : خير منهج ألا يكون لك منهج فى النقـد، ولكن بشرط أن تستوعب كل المناهج .

حمزة شحاتـة ورمز الليـل : رمز الليـل عند شحـاتة مسطـح، ورباعيـاته تعكـس هذا التسطيح ـ الإفادة من المنهج الاجتماعى .

حمزة شحاتة يحوم ولايرد : يبدأ القصيدة بداية موفقة ثم يهمـد ـ ترهل القصيدة عنده ـ لم يدخل فى صراع مع عبارته .

حمزة شحاتـة وتوظيـف الأسطورة : معنى الأسطورة ـــ توظيف الأسطورة سطحـى عند شحاتة ـ أسطورة إيزيس ـ أسطورة أبيس ـ الأسطورة عنده تفتقد بعدها التاريخى .

حمزة شحاتة وفن الملاحم : معنى الملحمة ـ شحاتة يقف عند السطح .

فراش وجليد ! وفكرة النصية : البدايـة من النص ـ قصيـدة (فراش وجليد) تتـوفر لها عناصر فنية فى البـداية والنهاية، وتفيد مـن التكنيك الدرامى الحديث، وتتميـز بالحركة، وبالتوظيف الفنى للوزن والقافية ـ والرؤيـة عنده تندمج فى النص ـ عنصر الحوار ـ الناقد فى كل ذلك ينطلق من علاقة مباشرة مع النص ـ دون أن تخضع هذه العلاقة لاستبداد المنهج .

بين صديقين وفكرة التنـاصية : تداخـل النصوص غير التقليـد وغير السرقة ـــ قصيدة «غادة بولاق» تقليد ـ أمـا قصيدة (صديقين) فهى من باب التناصية ـــ القصيدة معارضة لقصيدة (غـاندى) لأحمد شوقى، ولكنهـا تختلف عنها ـ قصيـدة تدور فى جو من المثـالية والجلال والشعارات الكبيرة ـ وهى من الأدب الكلاسيكى .

أما قصيدة شحاتة فهى تسخر من البطل الكلاسيكى، وتصور شخصية فقيرة أقرب إلى شخصيات الكدية، وهى تتميز عن قصيـدة شوقى ـ الجو الهندى ـ لم يكرر الكثير من قوافى شوقى ـ دعابة ـ نبرة من الشكوى المتمردة لانجدها فى بطل الكدية القديم .

الخاتمـة : الدعـوة إلى موت المؤلف أدت إلى استبداد القـارئ ـ قد نقبل تعسـف المؤلف ولكن لانقبل تعسف القارئ ـ هذه الدراسة دعوة إلى موت القارئ أيضاً ـ لكى يحيا النص، ويلتقى على أرضه المؤلف والقارئ معاً فى حوار مشترك .

الفصل الثالث : الرحلة إلى السماء بين إقبال والزبيرى :

الكشف عن مصـادر فكر الزبيرى ـ المدينـة الفاضلة عند الإغـريق والفلاسفة ـــ المدينة الفاضلة عنـد متصوفة الشرق ـ المدينة الفاضلـة عند إقبال ـ المدينة الفاضلـة عند الزبيرى ـ جنة الـزبيرى تتحقق فيها الحريـة والحب والفن ـ الزبيرى فى بـاكستان ـ اطـلاعه على أدب إقبال ـ أوجـه تشابه بين إقبال والزبيرى ـ لايـوجد دليل مادى على أن رواية الـزبيرى تأثرت

برواية إقبال ـ أوجه اختلاف بين الروايتين ـ نقطة البدء مختلفة عند كل من الكاتبين ـ إقبال مشغول بأمور فلسفية ـ والزبيرى مشغول بهموم وطنه .

الفصل الرابع : جريمة قتل بين إليوت وعبد الصبور :

إليوت ـ حياته ـ مسرحياته ـ جريمة قتل فى الكاتدرائية ـ توماس بيكيت ـ التعليق ـ ليست هى من مسرحيات الشخصيات ـ موضوعها ذو مستويات ـ بطلها هو القدر ـ شكلها صورة للقدر ، فهو يتلاءم مع المضمون ـ فكرة الاستشهاد ـ الشيطان الرابع ـ ترجمة المسرحية .

صلاح عبد الصبور ـ حياته ـ مسرحياته ـ مأساة الحلاج ـ صورة الحلاج فى التراث ـ التصوف الإسلامى ـ وحدة الوجود ـ مصادر عبد الصبور فى مسرحيته ـ صلته بإليوت ـ تخطيط مأساة الحلاج قريب من تخطيط جريمة قتل ـ شخصية الحلاج بعيدة عن شخصيته التاريخية ـ رغبة الحلاج فى الاستشهاد ـ المصادر المسيحية فى مأساة الحلاج ـ الدكتور خليل سمعان يشير إلى التشابه بين الحلاج والمسيح ـ صوفية الحلاج إيجابية ـ وهو بذلك يقترب من شخصية بيكيت ـ الجانب العبثى فى شخصية الحلاج ـ عبد الصبور يشيد بيونسكو ـ عبثية الحلاج هى من تأثير إليوت ـ عبثية إليوت تختلف عن عبثية يونسكو ـ عبثية إليوت تنتهى إلى اليقين ـ وأيضا عبثية الحلاج تنتهى إلى اليقين ـ اختلافات بين إليوت وعبد الصبور ـ مسرحية عبد الصبور تدور فى إطار دنيوى ـ أما مسرحية إليوت فهى تدور فى إطار كونى ـ ولكن هذه الاختلافات لاتنفى التأثير ـ عوامل المشابهة أكثر من عوامل المفارقة .

الخاتمة : الأدب المقارن والصراع الحضارى :

الصراع ضرورة حضارية ـ اختلاف لغة الصراع بين القديم والحديث ـ من يتجاهل الصراع فهو ضعيف الثقة بنفسه وبحضارته ـ الفرق بين التعصب والاعتزاز ـ الاعتزاز يقوم على الإيمان بالخصوصية ـ الأدب المقارن مظهر من مظاهر الصراع الحضارى ـ جوانب التأثير تدل على القوة ـ وجوانب التأثر تدل على الضعف .



الفهـــــرس

من مؤلفات
الأستاذ الدكتور عبد الحميد إبراهيم

- قصص الحب العربية : الطبعة الأولى سنة ١٩٦٦ ، الطبعة الثانية سنة ١٩٨٨م.
- من قصص العرب : الطبعة الأولى سنة ١٩٦٧م.
- قصص العشاق النثرية : دراسة فى التراث القصصى. الطبعة الأولى سنة ١٩٧٢م، الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٨م.
- القصة المصرية وصورة المجتمع الحديث : الطبعة الأولى سنة ١٩٧٣ .
- الأدب وتجربة العبث : الطبعة الأولى سنة ١٩٧٣م.
- القصة اليمنية المعاصرة . الطبعة الأولى سنة ١٩٧٧م، الطبعة الثانية سنة ١٩٨٦م.
- ألوان من القصة اليمنية المعاصرة: ألطبعة الأولى سنة ١٩٨١م، الطبعة الثانية سنة ١٩٨٥م.
- الوسطية العربية (٦ أجزاء) :

الكتاب الأول : المذهب ، الطبعة الأولى سنة ١٩٧٩م، الطبعة الثالثة سنة ١٩٩٠م.

الكتاب الثانى : التطبيق ، الطبعة الأولى سنة ١٩٧٩م. الطبعة الثانية سنة ١٩٨٦م.

الكتاب الثالث : نحو وسطية معاصرة ، الطبعة الأولى سنة ١٩٩١م.

الكتاب الرابع: نحو رواية عربية ، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٥م.

الكتاب الخامس : حلم ليلة القدر : رواية عربية ، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٥م.

الكتاب السادس: القرآن الكريم والمذهب الوسطى (تحت الطبع).

- المسرح المصرى بين ثلاثة أجيال : الطبعة الأولى سنة ١٩٨٢م.
- القصة القصيرة فى الستينيات : الطبعة الأولى سنة ١٩٨٢ ، الطبعة الثانية سنة ١٩٨٨ .
- القصة القصيرة فى السبعينيات : الطبعة الأولى سنة ١٩٨٤ ، الطبعة الثانية سنة ١٩٨٧م.

ـ لقطات : ألان روب جرييه (ترجمة) الطبعة الأولى سنة ١٩٨٥م .

ـ الرعشة الأولى وهؤلاء الأدباء : الطبعة الأولى سنة ١٩٨٦م ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٩٤م .

ـ مقالات فى النقد الأدبى (١٥ جزءًا)

الجزء الأول سنة ١٩٨٨م ، الجزء الخامس عشر (تحت الطبع)

ـ قاموس الألوان عند العرب : الطبعة الأولى سنة ١٩٨٩م .

ـ نقاد الحداثة وموت القارئ : الطبعة الأولى سنة ١٩٩٥م .

ـ نوادر الحب والحكمة : (تحت الطبع)

ـ الرواية العربية والبحث عن جذور (تحت الطبع) .

ـ الرواية العربية والبحث عن شكل : الطبعة الأولى سنة ١٩٩٥م .

ـ القصة القصيرة والبحث عن شكل (تحت الطبع) .

ـ التراث القصصى والبحث عن شكل (تحت الطبع) .

ـ مشاهد وشواهد : الطبعة الأولى سمة ١٩٩٦م .

ـ قال لقمان لابنه ، الجزء الأول (تحت الطبع) .

ـ من أوراق طه حسين ؛ الجزء الأول (تحت الطبع) .

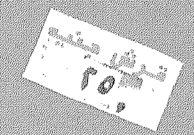
ـ حوار مع . . . الجزء الأول : الجزء الأول الطبعة الأولى سنة ١٩٩٥م .

ـ حوار مع . . . الجزء الثانى . الطبعة الأولى سنة ١٩٩٥م .

رقم الإيداع : ٩٧/١٠٥٣٤
I.S.B.N : 977 - 09 - 0395 - 7

مطابع الشروق

القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس.٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص ب ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ـ٨١٧٢١٣ـ فاكس . ٨١٧٧٦٥ (٠١)



الأدب المقارن

من منظور الأدب العربى

مقدمة وتطبيق

إن الأدب المقارن، مهما أوغل فى عالميته، فهو يحمل داخله مفهوما قوميا؛ لأنه ليس فلسفة تتعامل مع الإنسان كإنسان، ولكنه فى نشأته الأولى ينطلق من نصوص أدبية كتبت بلغة خاصة، وتحمل وجهة نظر خاصة وتعكس وجدانا خاصا.

إن العالمية والقومية معًا، يتدخلان فى مفهوم الأدب المقارن. فهو يبدأ من نصوص مكتوبة بلغة قومية، قد تكون هى العربية، ثم يصعد فوق هذه النصوص ليكتشف علاقتها مع نصوص كتبت بلغة أخرى، قد تكون هى الفرنسية.

إن الدراسة، التى تتعلق بالأشياء المشتركة بين الآداب المختلفة، ودون أن تنطلق من نصوص أدبية، هى من نوع ما يسميه بعض الباحثين بالأدب العالمى، بصدد محاولتهم تأسيس علم، يشبه الفلسفة، ويبحث فيما هو مشترك بين الآداب الإنسانية.

وهم يطمحون أن يكون لهذا العلم تاريخ، مثلما للآداب القومية تاريخ، وإن كانوا لا يطمحون إلى أن يكون له نقد، مثلما للآدب القومية نقد؛ لأن النقد يرتبط بالنصوص، وهذا العلم يتجاوز الخصائص اللغوية للنصوص، لكى يقف عند ما هو مشترك بين الآداب الإنسانية، وعند الموضوعات الكلية، التى هى أشبه بموضوعات الفلسفة.